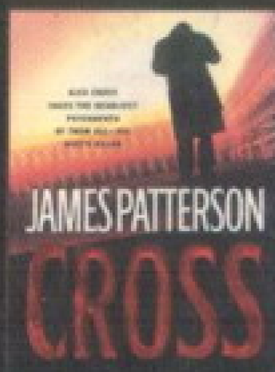
جيمس باترسون

أليكس كروس
يواجه أخطر
المجرمين المختلين
على الإطلاق
. قاتل زوجته

حياة أليكس كروس

حياة أليكس كروس



من بين الأشرار الذين واجههم أليكس كروس - جاري سونجي، وكازانوفا، وكال كريج، الملقب بالذئب - هناك قاتل مختل يفوقهم جميعا. وكان أليكس يعرفه على أنه قاتل زوجته.

«جيمس باترسون»، مؤلف الروايات الأعلى مبيعا، يعود إلينا بأكثر روايات أليكس كروس إثارة وتشويقا.

كان أليكس كروس نجماً لامعاً في قسم شرطة واشنطن عندما قام قاتل مجهول بقتل زوجته ماريا أمام عينيه. اضطر أليكس إلى تأجيل انتقامه؛ حيث كان يواجه تحديا كبيرا آخر - ألا وهو تربية أطفاله في غياب أمهم.

أكثر قصص كروس رعبا

بعد مرور عدة سنوات، قام أليكس بنقلة جريئة في حياته؛ حيث ترك مكتب التحقيقات الفيدرالية وعاد ليمارس عمله الخاص كمعالج نفسي مجددا، وأخيراً بدا أن النظام قد عاد لحياته مع جدته وديمون وجاني وأليكس الصغير، بل إن لديه فرصة ليحظى بحب جديد. ثم عاد رفيق كروس السابق جون سامبسون يطلب منه المساعدة، وكان الأخير يطارد سفاحا يغتصب النساء في «جورج تاون»، والمعروف عن هذا القاتل أنه يتبع أسلوبا وحشيا يتضمن تهديد ضحاياه بصور مرعبة. أراد كروس وسامبسون الحصول على شهادة هؤلاء السيدات ليوقفا هذا الوحش المفترس، ولكنهن كن يرفضن ذكر أي شيء عن ذلك الشخص الذي اعتدى عليهن.

أكثر قصص كروس إثارة للعواطف

عندما ترتبط هذه القضية بموت ماريا، فعندئذ ربما تكون الفرصة قد سنحت لأليكس ليلقي القبض على قاتل زوجته بعد كل هذه السنوات، هل ستنتصر العدالة في النهاية؟ أم أن هذا هو أكثر المشاهد إثارة في هواجسه المهلكة التي استحوذت عليه؟

من الرجل الذي أطلقت عليه جريدة (USA Today) «سيد الرواية في عصره»، تخرج إلينا رواية «كروس» ذات الأحداث المتسارعة، التي طالما انتظر جمهور «جيمس باترسون» و«أليكس كروس» سنوات عديدة كي يقرأوها.

جيمس باترسون أحد مؤلفي الروايات الأكثر مبيعا على الإطلاق، وتتضمن أحدث أعمال باترسون، والتي حققت أعلى نسبة مبيعات، ما يلي: «ماري، ماري»، "The 5th Horseman" "Lifeguard" والرواية الفائزة بجائزة الرواية العالمية لعام ٢٠٠٥ "Honeymoon".

لمتابعة الإصدارات التالية لمؤلفات جيمس باترسون ومعرفة المزيد من المعلومات عنه، يرجى زيارة الموقع التالي على شبكة الإنترنت: www.jamespatterson.com

6 281072 058227
282204300

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

Cross

James Patterson

الشخصيات والأحداث الواردة فى هذه الرواية من نسج خيال المؤلف، وأى تشابه مع أشخاص حقيقيين، سواء كانوا أحياءً أم أمواتًا، هو محض مصادفة وغير مقصود من جانب المؤلف.

أهدى هذه الرواية إلى مدرسة "بالم بيتش داى"،
وأخص بالذكر "شيرلى"، ومدير المدرسة
"جاك تومسون".

مقدمة

ما اسمك يا سيدى ؟

تومسون: أنا الدكتور تومسون، من مركز بيركشايرز الطبى. كم عدد الطلقات التى سمعتها؟

كروس: سمعت العديد من الطلقات.

تومسون: ما اسمك يا سيدى؟

كروس: أليكس كروس.

تومسون: هل تعانى من مشكلة فى التنفس؟ أو تشعر بأى ألم؟

كروس: أشعر بألم فى بطنى؛ ثمة سوائل تتحرك بداخله. وأشعر أيضًا بضيق فى التنفس.

تومسون: هل تدرك أنك أصبت؟

كروس: أجل، مرتين. هل مات؟ أقصد الجزار مايكل سوليفان؟

تومسون: لا أدرى ؛ فقد مات العديد من الرجال. حسنًا يا رجال، أعطونى قناع تنفس، وخيطى وريد متسعى القاعدة حالاً، أعطونى كذلك لترين من المحلول الملحى الوريدى. الآن! سنحاول أن ننقلك إلى أحد المستشفيات فورًا سيد كروس. عليك فقط أن تتماسك. هل لاتزال تسمعنى؟ هل أنت معى؟

كروس: طفلاى ... أخبرهما بأنى أحبهما.

الجزء الأول

لن يحبك أحد مثلى قط ١٩٩٣

الفصل ١

"إنى حامل يا أليكس".

مازلت أذكر تمامًا كل شىء عن تلك الليلة، ولا تزال تفاصيلها عالقة فى ذاكرتى بعد كل هذا الوقت، وبعد مرور كل هذه السنوات. ومازلت أذكر كل ما حدث فيها، هؤلاء القتلة المتوحشون الذين كشف عن بعضهم، بينما ظل البعض الآخر مجهولاً.

كنت واقفًا فى حجرة النوم المظلمة وذراعاى تحيطان بخصر زوجتى ماريا برفق، وذقنى متكئ على كتفها. كنت وقتها فى الحادية والثلاثين من العمر، ولا أذكر أنى كنت أسعد حالاً فى حياتى كلها من ذلك الوقت.

بل لم تمر علينا أوقات كتلك التى قضيناها معًا؛ أنا وماريا وديمون وجانى.

كان ذلك فى خريف عام ١٩٩٣، وإن كنت أشعر الآن أن ذلك كان منذ مليون سنة.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحًا، وكانت طفلتنا جانى تعانى من التهاب حاد فى الحنجرة مصحوب بسعال وضيق فى التنفس. هذه الفتاة الجميلة المسكينة لم تنم طيلة الليلة ؛ بل طيلة الليالى القليلة الماضية، بل معظم فترات طفولتها. كانت ماريا تهدهد جانى بين ذراعيها برفق وتغنى لها " أنت جميلة جدًا "، بينما وضعت ذراعى حول ماريا أهدهدها هى الأخرى.

كنت أول من استيقظ، ولكنى لم أستطع أن أعيد جانى إلى النوم على الرغم من الحيل الكثيرة التى لجأت إليها، ثم جاءت ماريا وأخذت الطفلة بعد ساعة أو أكثر. وكان كل منا مرتبطًا بعمل فى الصباح الباكر، حيث كان علىّ العمل فى قضية قتل.

قلت وأنا لا أزال متكئًا بذقنى على كتف ماريا: " أنت حامل؟ ".

ليس بالوقت المناسب، أليس كذلك يا أليكس؟ هل تخشى المزيد من الالتهابات، وملابس الأطفال، والحفاضات القذرة، وليال كهذه فى المستقبل؟".

" صحيح أنى أكره هذه الأمور كثيرًا، كالاستيقاظ متأخرًا أو مبكرًا وما شابه، ولكنى أحب حياتنا يا ماريا، وأحب كذلك أن يكون لدينا طفل آخر".

اقتربت من ماريا وأدرت الموسيقى من جهاز التسجيل الصغير المتدلى من سرير جانى، ورقصنا معًا على أنغام أغنية " أريد أحدًا يهتم بى ".

بعد ذلك، ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة التى تتسم بالخجل والتى تظهر فيها أسنانها البارزة ، وهى الابتسامة نفسها التى أوقعتنى فى غرامها؛ ربما منذ الليلة الأولى التى رأيتها فيها. وكنا قد التقينا لأول مرة فى غرفة الطوارئ فى

مستشفى سانت أنطونى فى أثناء إحدى الحالات الطارئة ؛ حيث قدمت ماريا إلى المستشفى بصحبة إحدى عميلاتها، التى كانت قد أصيبت بطلق نارى بعد أن سقطت ضحية للاغتصاب الجماعى من قبل بعض الخارجين على القانون. كانت ماريا آنذاك تعمل كمتطوعة فى العمل الاجتماعى، وكانت تتعامل معى بحيطة وريبة خاصة لأنى أعمل تحريًا فى جرائم القتل المفزعة ، وهى لا تثق كثيرًا فى الشرطة، وفى الحقيقة، لم أكن أنا أيضًا أثق فيها.

جذبت ماريا نحوى وقلت لها: "أنا سعيد حقًا، وأخالك تشعرين بذلك. أنا سعيد لأنك حامل. فلنحتفل بهذه المناسبة. سأحضر بعض المشروبات".

"تريد أن تكون أبًا نبيلاً، أليس كذلك؟".

"أجل، ولكنى لا أعرف لماذا بالضبط. أريد ذلك فحسب".

"هل تحب صراخ الأطفال فى منتصف الليل؟".

"كل هذا سيمر بسلام، أليس كذلك يا جانيل؟ أتحدث إليك أيتها السيدة الصغيرة".

استدارت ماريا برأسها بعيدًا عن الطفلة الباكية وطبعت قبلة رقيقة على شفتى. كان فمها رقيقًا وجذابًا دائمًا. وكم كنت أحب قبلاتها؛ فى أى وقت وفى كل مكان.

أفلتت من ذراعى أخيرًا وقالت: "عد إلى فراشك يا أليكس، فلا جدوى من بقاء كل منا مستيقظًا. واحصل على قسط من النوم من أجلى أيضًا".

وعندئذ، لاحظت شيئًا آخر فى حجرة النوم فلم أتمالك نفسى من الضحك.

ابتسمت ماريا وهى تقول: "ما الذى يضحكك بهذا الشكل؟".

أشرت إليه بيدى فرأته هى أيضًا. ثلاث تفاحات على كل واحدة منها أثار قضمة واحدة لطفل. كانت التفاحات الثلاث

موضوعة عند أرجل ثلاث دمى محشوة لثلاثة ديناصورات ماركة بارنى ذات ألوان مختلفة. أدركنا على الفور أنه ولدنا الصغير "ديمون" الذى أمضى بعض الوقت فى حجرة أخته جانى.

وعندما وصلت إلى باب الحجرة، ابتسمت لى ماريا تلك الابتسامة التى تظهر أسنانها وغمزت بطرف عينها. ثم همست إلىّ بكلمات لن أنساها ما حييت؛ حيث قالت: " أحبك يا أليكس. ولن يحبك أحد مثلى قط".

الفصل ٢

على مسافة أربعين ميلاً شمالى واشنطن العاصمة، تجاهل اثنان من القتلة المأجورين فى منتصف إلى أواخر العشرينات من العمر، اللذان أطلقا شعرهما طويلاً إشارة "للأعضاء فقط" وتقدما بخطى واثقة إلى نادى سانت فرانسيس الاجتماعى فى شارع ساوث هاى، على مقربة من الميناء. كان الرجلان مدججين بالأسلحة، وكانا يبتسمان كأنهما ثنائى من الممثلين الهزليين واقفين على خشبة المسرح.

كان هناك سبعة وعشرون حارسًا فى النادى، فى تلك الليلة، يلعبون الورق ويحتسون الشراب ويشاهدون فريق بولتس وهو يخسر أمام نيكس فى التلفاز. وفجأة، ساد الحجرة هدوء حذر.

ولم يكن يسمح لأى أحد بمجرد الدخول إلى نادى سانت فرانسيس أسيزى، لا سيما إذا لم يكن يحمل بطاقة دعوة أو كان مسلحًا.

وقف أحد الدخيلين عند مدخل النادى وكان يدعى مايكل سوليفان واتسم بالهدوء وهو يلقى التحية على مجموعة رجال المافيا. كان سوليفان يحدث نفسه بأنهما سيضطران إلى مواجهة بعض الصعوبات مع هذه الزمرة من الرجال الغلاظ الذين يتجمعون للعق مخلفاتهم. وفي الوقت نفسه، كان رفيقه جيمى هاتس جالاتى يتفقد الحجرة من طرف قبعته السوداء كتلك التى يرتديها المجرمون فى الأفلام السينمائية كان النادى الاجتماعى كأى نادٍ آخر يحتوى على مقاعد اسطوانية الشكل، وطاولات الورق، وركن المشروبات وغيرها من المصنوعات الخشبية.

بادر سوليفان الذى كانت حياته عبارة عن سلسلة من الاشتباكات والمشادات من أى نوع، سواء كان بالقول أم بالجسد بالسؤال: "أما من لجنة ترحيب بنا؟ أو حتى فرقة نحاسية تعزف لقدومنا؟". اعتاد سوليفان وجيمى هاتس طوال حياتهما أن يتشاحنا مع الآخرين منذ كانا فى الخامسة عشر من العمر، ومنذ هربا من منزليهما فى بروكلين.

وهنا نهض أحد الحراس الشخصيين فجأة من إحدى طاولات الورق الواهية وسأل: "من أنت بحق الجحيم؟". كان طوله ست أقدام وبوصتين، وشعره أسود داكنًا، فيما تجاوز وزنه المائتين والعشرين رطلاً ؛ مما يشير إلى أنه كان قوى البنية.

أجابه جيمى هاتس: "إنه جزار سليجو. هل سمعت عنه من قبل؟"، ثم أردف قائلاً: "نحن من مدينة نيويورك. هل سمعت عنها من قبل؟".

الفصل ٣

لم يبد الحارس الشخصى المتغطرس أى رد فعل، ولكنّ رجلاً أكبر منه سنًا ذا سترة سوداء وقميص محكم الإغلاق حتى ياقته رفع يده، وكأنه زعيمهم أو ما شابه، وتحدث ببطء وتأنٍ وهو يقول بطريقة واثقة: "لمن ندين بهذا الفضل؟ سمعنا بالطبع عن الجزار. ولكن لماذا جئتما إلى بالتيمور؟ وأية خدمة نسديها لكما؟".

أجاب مايكل سوليفان على الرجل الكبير قائلاً: "إنه مجرد مرور عابر. لدينا عمل بسيط من أجل السيد ماجيونى فى واشنطن العاصمة. هل تعرفون السيد ماجيونى يا سادة؟".

أطرق كل من فى الحجرة برأسه، وفهم الجميع من مضمون المحادثة أنهما يعتزمان القيام بعمل بالغ الجدية؛ حيث كان دومينيك ماجيونى يترأس إحدى عائلات المافيا فى نيويورك،

أرجوك يا إلهى، هذه الذكريات هى كل ما تبقى لى، هى كل ما أملك، فلا تحرمنى منها.

أضأت النور.

لم يعد البقاء فى الفراش خيارًا مطروحًا الآن، فقمت وتجولت فى الردهة وأنا أفكر فى النزول لأسفل والعزف على البيانو.

وعند أول درجة من السلم، توقفت ويدى على عمود الدرابزين، حيث أوقفنى الصوت الرقيق لأنفاس آلى حيث أنا توجهت إلى حجرته وأخذت أنظر إلى ولدى الصغير وأنا على باب الحجرة.

كان مجرد كومة صغيرة تحت الغطاء، وإحدى قدميه عارية خارج الفراش، وكانت أنفاسه على شكل شخير بسيط.

كانت الإضاءة الليلية الخافتة على حائط الحجرة تمكننى بالكاد من رؤية وجهه. كان حاجبا أليكس الصغير معقودين وكأنه مستغرق فى التفكير، تمامًا كما أبدو أنا فى بعض الأحيان.

وعندما دخلت تحت الغطاء، دس أنفه فى صدرى وغاص برأسه بين ذراعى.

قال وهو بين النوم واليقظة: " أهلاً يا أبى".

همست إليه: " أهلاً يا صغيرى، عد إلى النوم".

"هل رأيت حلمًا سيئًا فى المنام؟".

ابتسمت لهذا السؤال، فهو السؤال نفسه الذى طرحته عليه مرات عديدة فى الماضى. الآن فقط، عادت إلىَّ الكلمات مثل قطعة منى كنت قد افتقدتها.

لقد أعاد إلى كلماتى، فقلت له كلمات ماريا: " أحبك يا آلى. لن يحبك أحد مثلى قط".

كان الولد ساكنًا تمامًا، ربما يكون نائمًا بالفعل. رقدت هناك وأنا أضع يدى على كتفه حتى عادت أنفاسه إلى حالتها الهادئة المنتظمة التى كانت عليها من قبل. ثم عدت إلى مكان ما بالداخل هناك، لأكون مع ماريا مرة أخرى.

التى تبسط نفوذها على معظم أرجاء الساحل الشرقى وتمتد حتى أطلانطا.

كان كل شخص فى الحجرة يعرف تمامًا من هو دومينيك ماجيونى، وأن الجزار أكثر القتلة المأجورين الذين يستعين بهم غلظة وقسوة. وثمة أقاويل بأنه كان يوجه أسلحة ومطارق الجزارين إلى صدور ضحاياه. وقد علق أحد مراسلى الـ "نيوزداى" على إحدى عمليات القتل التى نفذها الجزار بالقول: "لا يمكن لأى آدمى أن يقوم بمثل هذا العمل". وكان الجزار مهيب الركن لدى دوائر الشرطة ورجال المافيا. لذا، أخذت الدهشة كل من بالحجرة عندما علموا أن هذا القاتل صغير السن جدًا، وأنه أشبه ما يكون بأبطال السينما؛ لما يتسم به من شعر أشقر طويل وعينين ثاقبتين زرقاوين.

"إذن أين الاحترام؟ لقد سمعت هذه الكلمة كثيرًا، ولكنى لا أراها بادية على أى من الحاضرين فى هذا النادى". كان هذا كلام جيمى هاتس المعروف بقيامه ببتر أيدى وأقدام ضحاياه تمامًا مثل الجزار.

أمر الجزار الحارس ـ الذى وقف فجأة ـ أن يتقدم إليه، وبوحشية تامة قطع أرنبة أنفه، ثم قطع شحمة إحدى أذنيه. أمسك الجندى وجهه من موضعين وتراجع مسرعًا ثم فقد اتزانه ليسقط بقوة على الأرضية الخشبية.

كان الجزار سريعًا وماهرًا كما هو معهود عنه فى استخدام السكين. لقد كان أشبه ما يكون بقتلة صقلية القدماء، وهكذا تعلم مهارته الفائقة فى اللعب بالسكين على يد أحد الجنود القدامى فى جنوب بروكلين. ولم يكن يجد أية صعوبة فى القيام ببتر الأعضاء وتكسير العظام، بل كان يعتبرهما علامة مسجلة باسمه ودليلاً على قوته.

كان جيمى هاتس يشهر بندقيته نصف الآلية من نوع كاليبر إيه ٤٥ مم. وكان يطلق عليه أيضًا "جيمى المدافع"،

وكان مؤازرًا للجزار وساعده الأيمن دائمًا.

أخذ مايكل سوليفان يتجول ببطء فى الحجرة، ثم ركل طاولتى ورق وأغلق التلفاز ونزع قابس آلة صنع القهوة. وعندئذ ظن الجميع أن أحدهم سيموت الآن. ولكن لماذا؟ لماذا أطلق دومينيك ماجيونى هذا المجنون عليهم؟

بادرهم الجزار بالقول: "أرى أن بعضكم يتوقع حدوث عرض بسيط. أرى ذلك فى أعينكم ، وأشتمه فى أنفاسكم. حسنًا، لا أريد أن أخيب ظن أى أحد".

وفجأة، جثا سوليفان على ركبتيه حيث يرقد الحارس الشخصى الجريح منطرحًا على الأرض وطعنه. طعنه أولاً فى حلقه ثم فى وجهه وصدره، وظل يطعنه حتى أصبح جثة هامدة. كان من الصعب أن يحصى عدد الطعنات ولكن من المؤكد أنها بلغت الاثنتى عشرة طعنة أو قد تزيد.

وأغرب ما فى الأمر أن سوليفان نهض وانحنى فوق جثة القتيل، وكأنه انتهى لتوه من عرض كبير ، وكأن ما قام به مجرد فصل من مسرحية.

وفى النهاية، أعطى الجزار ظهره إلى الحجرة واتجه إلى الباب غير مبال بما اقترفته يداه، وبدا أنه لا يخاف أحدًا ولا يأبه لأى شىء ثم صاح بأعلى صوته: "لقاء طيب يا سادة. فى المرة القادمة ، أبدوا بعض الاحترام من أجل السيد ماجيونى إن لم يكن من أجلى أو من أجل السيد جيمى هاتس".

ارتسمت على وجه جيمى ابتسامة عريضة وهو يضرب برفق طرف قبعته ثم قال: "أجل، إنه على حق". ثم استطرد قائلاً: "أود أن أخبركم بأن أداءه يكون أفضل باستخدام المنشار الحديدى".

الفصل ٤

ظل الجزار وجيمى هاتس يضحكان ويسخران وهما يتذكران زيارتهما لنادى سانت فرانسيس أسيزى الاجتماعى طوال طريقهما إلى واشنطن، حيث تنتظرهما مهمة كبيرة فى غضون يوم أو يومين. وقد أمرهما السيد ماجيونى أن يتوقفا فى بالتيمور ليلتمسا الأخبار، وذلك لأنه كان لديه شكوك بأن هناك رجلى مافيا يتعقبان أخباره. طمأنه الجزار بأنه قد نفذ المطلوب منه وأدى مهمته على أكمل وجه.

كان ذلك جزءًا من سمعته المتنامية: فهو ليس بارعًا فى القتل فقط، ولكنه كان أيضًا موثوقًا به فى أداء المهام الموكلة إليه، ولا يقل عن تأثير الأزمة القلبية على رجل بدين يفرط فى تناول البيض المقلى وشرائح اللحم المقدد.

كانا على مشارف واشنطن العاصمة عندما أخذا الطريق الملىء بالمناظر الجاذبة وقد مرا على متحف واشنطن وغيره من المبانى الشهيرة. وفى أثناء ذلك، كان جيمى هاتس يغنى "مدينتى الجميلة" بصوت فيه نشاز.

تعالى صوت سوليفان بالضحك عندما سمع غناء جيمى وقال له: "يا لك من عبقرى يا جيمس يا صغيرى، أين تعلمت تلك الأغنية بحق الجحيم؟ مدينى الجميلة؟".

"فى مدرسة سانت باتريك الكائنة فى بروكلين بنيويورك، حيث تعلمت كل ما أعرفه عن القراءة والكتابة والحساب وحيث قابلت هذا الحثالة المجنون الذى يدعى مايكل شون سوليفان".

وبعد عشرين دقيقة، توقفا بسيارتهما الفارهة من طراز أنستون مارتنز وانخرطا مع زمرة الشباب الذين كانوا يتسكعون فى آخر الليل فى شارع "إم" فى جورج تاون. وبينما كان سوليفان وجيمى اللذان يشكلان معًا ثنائيًا مميزًا من القتلة المحترفين بصحبة هذه الزمرة من المتسكعين وقطاع الطرق، إذ شرد سوليفان بذهنه وأخذ يطرح على نفسه بعض الأسئلة مثل: تُرى من يعيش الحياة بشكل أفضل؟ من الذى نجح ومن الذى أخفق فى هذه الحياة؟

قاطعه هاتس بالسؤال: "هل فكرت من قبل فى الالتحاق بالجامعة؟".

فأجابه سوليفان: "لم أشأ أن أضيع مالى فيها، كما أنى كنت أكسب خمسة وسبعين ألف دولار بالفعل وأنا فى الثامنة عشر من العمر. هذا فضلاً عن أنى أحب عملى!".

توقفا عند ملهى شارلى مالون وهو ملهى محلى يرتاده طلبة الجامعة فى واشنطن. ولسبب ما غير واضح، أراد سوليفان أن يدخل الملهى. ولم يكن أى من الجزار أو جيمى هاتس قد ذهب فى دراسته إلى أبعد من المدرسة الثانوية ، ولكن على الرغم

من ذلك تمكن سوليفان أن يتحاور بسلاسة وطلاقة داخل الملهى مع اثنتين من الطالبات، لم تتعد أى منهما العشرين من العمر ، بل قد لا تكونان قد تخطيتا العقد الثانى بعد.

ولكن سوليفان قرأ كثيرًا، ولا يزال يذكر معظم ما قرأه، ولذا كان قادرًا على التحاور مع أى شخص. تطرق فى حديثه الليلة إلى الاستهداف الأخير للجنود الأمريكان فى الصومال. بالإضافة إلى الحديث عن فيلمين من أفلام الإثارة، بل وتطرق أيضًا إلى بعض شعراء الرومانسية من أمثال بليك وكيتس، الأمر الذى أثار إعجاب طالبتى الجامعة.

بالإضافة إلى تمتعه بقدر كبير من الوسامة ، كان سوليفان جذابًا أيضًا ، وكان يدرك ذلك تمامًا. وعلى الرغم من كونه نحيفًا، فإنه كان يتمتع بجسد قوى، وكان فارع الطول؛ يبلغ طوله ست أقدام وبوصة واحدة، وكان ذا شعر أشقر طويل، وابتسامة جذابة تبهر أى شخص يقترب منه.

ولذلك، لم يكن غريبًا أن ترمقه فتاة فى العشرين من العمر مثل ماريان ريلى من بيركتسفيل، ميريلاند بنظرات الإعجاب وتسعى إلى التقرب إليه.

اقترب سوليفان بدوره من الفتاة التى بدت مثل الوردة البرية وأخذ يدندن لها: "ماريان، ماريان... كانت هناك أغنية لفريق كاليسبو بهذا الاسم. هل تعرفينها؟ ماريان، ماريان؟".

فردت الفتاة: "كانت قبل أن أولد"، ولكنها بعد ذلك غمزت إليه بطرف عينها. كانت تمتلك أجمل وأروع عينين خضراوين، وشفتين حمراوين ممتلئتين، وشعر انسيابى ناعم، وعلى الفور، قرر سوليفان أن يقوم بمغامرة عاطفية معها ولم يكن يجد أى مانع من اللعب واللهو لبعض الوقت.

"أعى ذلك. ولكن ألم يكن السيد كيتس والسيد بليك والسيد بايرون شعراء من زمن سبق مولدك أيضًا؟"، ثم مازحها بابتسامته الجذابة ، وأمسك بيدها وقبلها برفق. بعد

ذلك جذبها من فوق مقعدها وضمها إليه وأخذ يدور بها ويقوم برقصة اللندى على أنغام أغنية فريق رولنج "ستونز " التى اختارها من جهاز الأغانى المسجلة.

سألته الفتاة: "إلى أين نحن ذاهبون؟ برأيك أين ترانا نذهب يا سيدى؟".

فأجابها مايكل سوليفان: "ليس بعيدًا جدًا يا آنستى".

تساءلت ماريان: "ليس بعيدًا جدًا؟ ماذا يعنى ذلك؟"

فأجابها: "سترين يا عزيزتى. لا داعى للقلق، ثقى بى".

ضحكت الفتاة وطبعت قبلة صغيرة على خده ، وأخذت تضحك مرة أخرى وهى تقول: "وكيف لى بمقاومة عينيك القاتلتين؟".

الفصل ٥

كانت ماريان تعتقد أنها لم تكن تريد فعلاً أن تقاوم هذا الرجل الجذاب القادم من مدينة نيويورك، هذا بالإضافة إلى أنها كانت تشعر بالأمان داخل الملهى فى شارع "إم". فما الخطر الذى قد يحدق بها هنا؟ وماذا يمكن لأى شخص أن يفعله كى يؤذيها؟ إن أقصى ما يمكن أن يفعله أى شخص هنا هو تشغيل أغنية لفريق نيو كيدز أون ذا بلوك على جهاز الأغانى المسجلة؟

أجابها سوليفان وهو يقودها إلى مؤخرة ركن المشروبات: "لا أحب الضوء كثيرًا ".

فسألته: "تظن نفسك توم كروز آخر، أليس كذلك؟ ألا تجدى دائمًا هذه الابتسامة العريضة؟ ألا تساعدك فى الحصول على ما تريد؟".

قالت ذلك وهى تبتسم أيضًا وتحثه على القيام بأفضل ما لديه.

قال: "لا أدرى يا عزيزتى. ولكن أعتقد أنها تنجح أحيانًا".

ثم قبلها فى الرواق المظلم جزئيًا عند نهاية ركن المشروبات، وكانت القبلة رائعة تمامًا كما تمنتها ماريان، بل كانت أكثر رومانسية مما كانت تتوقع. ولم يحاول سوليفان أن يفعل أى شىء آخر سوى هذه القبلة، وإن كانت هى لا تمانع فى ذلك، ولكنه وجد أنه من الأفضل ألا يفعل.

تنهدت وحركت يدها أمام وجهها كالمروحة. كانت دعابة ، ولكن ليست مجرد دعابة بالكلية.

قال سوليفان: "الجو حار بعض الشىء هنا، أليس كذلك؟"، فارتسمت على وجهها ابتسامة أخرى، ثم أردف: "المكان محكم بعض الشىء، ألا تعتقدين ذلك؟".

"عذرًا ولكنى لن أخرج معك. هذا ليس موعدًا".

فأجابها: "أعى ذلك تمامًا. لم أفكر فى أن تخرجى معى. بل لم يخطر ذلك ببالى قط".

"بالطبع لم تفعل ، فأنت رجل رقيق ومهذب جدًا".

قبلها مرة أخرى، ولكن القبلة هذه المرة كانت أكثر حميمية. أعجب ماريان أنه لم يستسلم بسهولة كبيرة. ولم يكن عليها أن تقلق فلم يكن عليها أن تذهب معه إلى أى مكان. ولم تقم بذلك بالفعل، لا من قبل، ولا بعد ذلك.

قالت له: "أنت بارع فى التقبيل. سأعطيك هذه، ثم قبلته".

فمازحها قائلاً: "وأنت أيضًا بارعة حقًا فى التقبيل. كانت تلك أفضل قبلة فى حياتى".

دفع سوليفان الباب بثقله فوجدا نفسيهما فجأة داخل حمام الرجال، ثم نهض جيمى هاتس ليراقب الباب من الخارج، وقد اعتاد دائمًا أن يؤازر الجزار ويحمى ظهره باستمرار.

صاحت ماريان: "لا، لا، لا !" ولكنها لم تتمالك نفسها من الضحك مما حدث للتو. حمام الرجال؟ يا له من أمر طريف. صحيح أنه لا يخلو من الجنون ولكنه يبقى طريفًا. هكذا كما يفعل طلبة الجامعة.

سألته: "أخالك تظن حقًا أنك ستظفر بأى شىء ، أليس هذا ظنك؟".

"الإجابة نعم، فعادة ما أفعل ما أريد يا ماريان".

وفجأة أخرج مشرطًا وقرب شفرته الحادة من حلقها، وتغير كل شىء فى غمضة عين. ثم قال لها: "أنت على حق، فهذا ليس موعدًا. والآن ، لا تنطقى بكلمة واحدة يا عزيزتى وإلَّا أقسم بحياة أمى أن تكون هذه آخر كلمة لك على وجه الأرض".

الفصل ٦

همس إليها الجزار بصوت متحشرج: "هناك آثار دماء بالفعل على المشرط. هل ترينها؟". قاصدًا بذلك إخافتها وافقادها صوابها.

أخذ يلوح بالمشرط أمام عينيها وهو يقول: "قد تؤذيك هذه الشفرة كثيرًا، وقد تشوه وجهك الجميل. أنا لا أمزح يا فتاة الجامعة".

ثم ضغط بالمشرط على حلق ماريان ريلى ولكنه لم يجرحها، وشرع فى الاعتداء عليها.

قال لها: "لا أريد أن أذبحك. أخالك تدركين ذلك ، أليس كذلك؟".

استطاعت بالكاد أن تقول: "لا أدرى".

"أعدك بذلك يا ماريان".

كان الجزار يدرك أنه لا يتعين عليه المكوث هنا طويلاً.

"اللعنة، لن أرى ماريان، ماريان بعد الليلة قط".

كانت ماريان ذكية على الأقل بما يكفى لئلا تصرخ أو تحاول مقاومته. ولما فرغ من فعلته، أخرج إليها صورتين. كانتا لا تبرحان جيبه أينما حل أو ارتحل لكى تتأكد فقط من إدراكها خطورة موقفها، وأنها تعى هذه الخطورة تمامًا.

"لقد التقطت هاتين الصورتين بنفسى. انظرى إليهما يا ماريان. والآن، لا يجدر بك أن تتحدثى البتة الليلة إلى أى أحد، وخاصة الشرطة. مفهوم؟".

أومأت برأسها دون أن تنظر إليه.

"أريدك أن تنطقى بها يا صغيرتى. أريدك أن تنظرى إلى مهما كان ذلك مؤلمًا!".

فقالت: "مفهوم. لن أخبر أى أحد".

"انظرى إلىَّ".

التقت عيناها بعينيه، وكان التغير فى نظرتها رهيبًا. هذه المرة كان الخوف والكراهية يطلان منهما، الأمر الذى كان يستمتع به كثيرًا. ويرجع ذلك إلى قصة طويلة، قصة بدأت وتنامت فى بروكلين، قصة أب وابنه يفضل أن يحتفظ بها لنفسه ولا يحدث بها أحدًا.

"فتاة صالحة. قد يكون غريبًا أن أقول إنى أحبك. ما أعنيه هو أنى معجب بك. وداعًا ماريان، ماريان".

وقبل أن يغادر الحمام، أخذ يقلب فى حقيبتها وأخذ حافظة نقودها، ثم ما لبث أن قال لها: "أؤكد عليك ألا تتحدثى إلى أى أحد".

بعد ذلك فتح الجزار الباب وانصرف. أما ماريان ريلى فقد تركت نفسها تهوى على أرضية الحمام وجسدها كله ينتفض. لن تنسى أبدًا ما حدث للتو. لا سيما هاتان الصورتان المروعتان.

الفصل ٧

"من هذا الذى استيقظ فى مثل هذا الوقت المبكر من الصباح؟ حسنًا، انظروا من هذا. هل أرى أمامى ديمون كروس؟ وهل هذه جانيل كروس؟".

وصلت جدتى فى السادسة والنصف صباحًا تمامًا لتعتنى بالأطفال، كما اعتادت أن تفعل صباح كل يوم. وعندما دخلت من باب المطبخ، كنت أطعم ديمون طحين الشوفان بالملعقة، بينما كانت ماريا تربت على ظهر جانى لتساعدها على التجشؤ. وكانت جانى تبكى مرة أخرى، يا لهذه الفتاة الصغيرة المسكينة التى تعانى من المرض.

قلت لجدتى وأنا أوجه ملعقة عصيدة إلى فم ديمون: "نفس الطفلين اللذين لم يناما منذ منتصف الليل".

قالت غاضبة وهى تضع حقيبتها على منضدة المطبخ: "بإمكان ديمون أن يقوم بذلك بنفسه".

يبدو أنها أحضرت معها البسكويت الساخن هل يمكن أن يكون ذلك ما أتوقعه؟ ـ مربى الخوخ منزلية الصنع. هذا بالإضافة إلى مجموعة كتب الأطفال التى اعتادت إحضارها معها لتقرأها عليهم طوال اليوم.

قلت لـ "ديمون": "تقول جدتك إنك قادر على إطعام نفسك يا عزيزى. هلا أعفيتنى من ذلك!".

قالت له: "خذ الملعقة يا ديمون".

وبالطبع، نفذ ما طلبته منه، فلا أحد يخالف جدتى.

قلت لها وأنا أتناول قطعة بسكويت: "شكرًا لك". الحمد لله، بسكويت ساخن! وكان مذاقه رائعًا جدًا فشكرتها مرة أخرى ودعوت لها بالقول: "أسعدك الله يا سيدتى العجوز. أسعدك الله".

قالت ماريا: "لم يعد أليكس يسمع جيدًا هذه الأيام، وذلك لانشغاله الدائم بالتحرى عن أحداث القتل التى لا تتوقف. أخبرته من قبل أن ديمون يطعم نفسه معظم الوقت. بل عندما لا يكون منشغلاً بإطعام الحائط والأسقف".

أومأت جدتى برأسها وهى تقول: "سيطعم نفسه دائمًا، إلا إذا أراد أن يبقى جائعًا. هل تريد أن تبقى جائعًا يا ديمون؟ لا تريد ذلك بالطبع يا صغيرى".

أخذت ماريا تلملم أوراق عملها؛ حيث ظلت تعمل فى المطبخ منذ منتصف الليلة الماضية. وكانت ماريا تعمل فى مجال الخدمة الاجتماعية فى المدينة، وكانت تعانى من ضغط عمل شديد. أخذت وشاحها البنفسجى من مشجب الباب الخلفى، بالإضافة إلى قبعتها المفضلة التى تتماشى مع بقية ملابسها، التى يغلب عليها اللونان الأسود والأزرق.

وقبل أن تغادر، مالت على طفلنا ديمون وقبلته وهى تقول له: "أحبك يا ديمون كروس"، ثم مالت على جانى وطبعت قبلتين على خديها وهى تقول أيضًا: "أحبك يا جانى كروس حتى بعد ما حدث الليلة الماضية".

بعد ذلك مالت على جدتى وقبلتها وقالت لها: "وأحبك أنت أيضًا".

تهللت جدتى وكأنها تعرفت لتوها على عظيم من العظماء أو حتى أحد رجال الدين البارزين وقالت لماريا: "أحبك كثيرًا يا ماريا. أنت عظيمة حقًا".

قلت لهم من خلف باب المطبخ: "أنا لست موجودًا".

فقالت جدتى: "نعلم ذلك بالفعل".

وقبل أن أتمكن من الذهاب للعمل، كان على أن أقبل كل شخص وأضمه إلى صدرى وأقول لهم "أحبكم جميعًا". قد يبدو ذلك سخيفًا، ولكنه أمر مشبع جدًا، وهذه نصيحة أسديها إلى كل من يعتقد أن الأسر كثيرة المشاغل لا يمكنها أن تنعم بالمرح والحب؛ فها هى أسرتنا تنعم بقدر كبير منهما.

وعند خروجى أنا وماريا معًا من باب المنزل قلنا فى صوت واحد: "إلى اللقاء، نحبكم جميعًا، إلى اللقاء، نحبكم جميعًا".

الفصل ٨

وكما اعتدت أن أفعل كل صباح، أوصلت ماريا إلى عملها فى مشروع إسكان "بوتوماك جاردنز"، الذى لا يبعد أكثر من خمس عشرة أو عشرين دقيقة من الشارع الرابع. وكان ذلك يمنحنا بعض الوقت.

ركبنا السيارة البورش السوداء؛ آخر دليل على المال الذى جنيته من عملى كمعالج نفسى خاص لمدة ثلاث سنوات، قبل أن أنتقل للعمل فى قسم شرطة العاصمة بنظام اليوم الكامل. كانت ماريا تمتلك سيارة تويوتا بيضاء لم أكن أحبها كثيرًا، ولكنها كانت تعجبها.

بدت شاردة الذهن ذلك الصباح ونحن فى شارع جى ستريت.

بادرتها بالسؤال: "هل أنت بخير؟".

ضحكت وغمزت لى بطرف عينيها.

"أنا مرهقة قليلاً فقط. ولكن لا بأس، فأنا بخير. كنت أفكر فقط فى إحدى الحالات التى قابلتها يوم السبت الماضى، وقد نالت هذه الحالة اهتمامًا خاصًا من جانبى. وهى حالة فتاة جامعية من جامعة جورج تاون تعرضت للاغتصاب فى حمام الرجال فى أحد الملاهى فى إم ستريت".

قطبت جبينى وهززت رأسى، ثم سألتها: "هل الجانى طالب جامعة أيضًا؟".

أجابت: "تقول لا، ولكنها ترفض الإفصاح عن أية تفاصيل أخرى".

تقوس حاجباى وأنا أقول لها: "إذن تعرف المغتصب؟ هل يمكن أن يكون أحد أساتذة الجامعة؟".

"تنفى الفتاة ذلك بشدة يا أليكس، وتقسم إنه ليس ممن تعرفهم".

"وهل تصدقينها؟".

"أظن ذلك. فأنا بالطبع ساذجة وأصدق ما يقال لى على أية حال. كما أنها رقيقة جدًا ولا أظنها تكذب".

لم أشأ أن أتدخل فى عمل ماريا أكثر من ذلك. ولم يتعود أحدنا على التدخل فى عمل الآخر على الأقل كنا نسعى جاهدين ألا نفعل ذلك.

سألتها: "أما من خدمة أسديها لك؟".

هزت ماريا رأسها، ثم قالت: "أنت مشغول. سأتحدث إلى الفتاة ماريان مرة أخرى اليوم. وآمل أن أقنعها بالتحدث ولو قليلاً".

وبعد دقيقتين، توقفت أمام مشروع إسكان بوتوماك جاردنز فى جى ستريت، بين شارعى الثالث عشر وبن. وقد تطوعت ماريا بالمجىء إلى هنا بعد أن تركت عملاً مضمونًا يدر دخلاً

أكثر فى "جورج تاون". وأعتقد أنها تطوعت لأنها عاشت فى منطقة جاردنز حتى الثامنة عشرة من العمر، عندما انتقلت للعيش فى فيلانوفا.

وقبل أن تغادر السيارة، قالت لى ماريا: "أريد منك قبلة حارة. وليس مجرد قبلة عابرة تطبعها على خدى".

وبالفعل ملت نحوها وقبلتها ثم قبلتها مرة أخرى. وقتها لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى مدى حبى لها، وكم أنا محظوظ أن أحظى بزوجة مثلها، وما زاد من سعادتى أنى كنت أدرك تمامًا أن ماريا تبادلنى الشعور نفسه.

وأخيرًا ترجلت ماريا من السيارة وهى تقول: "علىَّ أن أذهب الآن".

ولكنها عادت مرة أخرى إلى السيارة لتقول: "قد لا يبدو علىَّ ذلك، ولكنى سعيدة، سعيدة جدًا".

ثم غمزت لى بطرف عينيها مرة أخرى.

مكثت أراقب ماريا وهى تمشى طوال الطريق حتى صعدت السلالم الأولى للمبنى الذى تعمل فيه. كنت أكره أن أراها وهى تذهب، وكان هذا هو الشعور نفسه الذى يراودنى كل صباح.

تمنيت لو التفتت لترى ما إذا كنت قد انصرفت بعد. وهذا ما حدث بالفعل وعندما رأت أنى مازلت هناك، ابتسمت إلى ولوحت إلىَّ كالمجنونة، أو على الأقل كمن أذهب الحب عقلها. ثم اختفت داخل المبنى.

كنا نفعل الشىء نفسه كل صباح، ولكنى لم أكن أشبع من هذه الأمور، لا سيما غمزة العين تلك التى تقوم بها ماريا. لن يحبك أحد مثلى قط.

لم أشك فى صحة هذه العبارة للحظة واحدة.

الفصل ٩

كنت محققًا مفعمًا بالنشاط والحيوية فى تلك الأيام، ومستعدًا دائمًا للقيام بأية مهمة، ومتأهبًا لأى حدث، ومتلهفًا لأية معلومات. ولذا، كنت فى طريقى بالفعل للحصول على أكثر من نصيبى العادل من القضايا الأكثر إثارة وتعقيدًا. ولكن لسوء حظى، لم تكن القضية الأخيرة من هذا النوع.

وطبقًا للتقارير الصادرة عن قسم شرطة واشنطن، لم تقم المافيا الإيطالية بأية عملية كبرى داخل واشنطن دى. سى. وقد يرجع ذلك إلى الصفقات التى أحبطتها وكالات معينة مثل مكتب التحقيقات الفيدرالية ووكالة الاستخبارات المركزية. ولكن على الرغم من ذلك، اجتمعت مؤخرًا، الخمس عائلات الإجرامية الكبرى فى نيويورك واتفقت على مباشرة

أعمالها فى واشنطن وبالتيمور وبعض أجزاء فرجينيا. ولم يكن من المستغرب ألا يشعر زعماء العصابات الإجرامية المحلية بالتهديد من جراء هذا التطور، خاصة أولئك الذين ينحدرون من أصول آسيوية؛ لأنهم لا يزالون يتحكمون فى تجارة الكوكايين والهروين.

وكان تاجر مخدرات صينى كبير يدعى يانج آن لو قد أعدم اثنين من رجال المافيا الإيطالية منذ قرابة الأسبوع، الأمر الذى أنذر بقدوم ما هو أسوأ. وثمة أخبار بأن مافيا نيويورك قد أرسلت قاتلاً مأجورًا بارعًا، أو ربما فريقًا كاملاً من القتلة المأجورين، للتعامل مع يانج.

وقد تأكدت لى هذه الأخبار فى أثناء جلسة تداول معلومات فى مركز قيادة الشرطة. انطلقت أنا وجون سامبسون إلى المكان الذى يدير منه يانج عملياته، وهو عبارة عن منزل مزدوج عند ملتقى شارعى الثامن عشر وإم ستريت فى الشمال الشرقى. كنا نشكل معًا أحد فريقى تحقيق أسندت إليهما مهمة مراقبة صباحية، وهى المهمة التى أطلقنا عليها اسم "عملية مراقبة الحثالة".

أوقفنا السيارة بين شارعى التاسع عشر والعشرين وبدأنا أعمال المراقبة. كان منزل يانج آن لو باهت اللون تكسوه قشارات صفراء، وبدا متهالكًا من الخارج. أما ساحة المنزل، فكانت تعج بشتى أنواع القمامة والقاذورات، مما جعلها تبدو مقززة جدًا. وكانت معظم النوافذ مغطاة برقائق الخشب أو الصفيح. ومع ذلك، كان يانج آن لو أحد أقطاب تجارة المخدرات.

كان الطقس دافئًا، وكان معظم الناس فى الجوار ما بين المتجولين فى الطرقات أو المحتشدين فى الشرفات وأروقة المنازل.

تساءل سامبسون: "فيم يتاجر رجال يانج؟ الهروين، أم عقار النشوة؟".

"إنهم يحيطون عملهم بهالة من السرية. ولكن التوزيع يدور على قدم وساق فى الساحل الشرقى، وفى واشنطن، وفيلادلفيا، وأطلانطا، ونيويورك. لقد كانت عمليتهم الأخيرة ثمينة جدًا، وهذا هو السبب الذى دفع الإيطاليين إلى الطمع فيه. ما رأيك فى تعيين لويس فرنش فى المكتب؟".

"لا أعرف الرجل. كل ما أعرفه أنه عُيِّن بالفعل فى المكتب، ولذلك لابد أنه ليس فى الوظيفة المناسبة".

ضحكت من الحقيقة التى تنطوى عليها دعابة سامبسون.

بعد ذلك اختبأنا فى انتظار ظهور فريق قتلة المافيا المأجورين وخروجهم بـ "يانج آن لو". هذا إذا كانت معلوماتنا دقيقة.

سألنى سامبسون: "هل لدينا أية معلومات عن القاتل المأجور؟".

أجبته: "من المفترض أن يكون أيرلنديًا"، ونظرت إليه أنتظر رد فعله.

تقوس حاجبا سامبسون، ثم التفت ناحيتى وسأل متعجبًا: "يعمل لدى المافيا؟ كيف يكون ذلك؟".

"يقولون عنه إنه بارع ومجنون أيضًا. إنهم يسمونه الجزار".

وفى هذه الأثناء، كان هناك رجل عجوز، محنى الظهر، يعبر شارع "إم ستريت" وهو يلتفت يمينًا ويسارًا، ويدخن سيجارته ببطء. تقابل برجل آخر أبيض نحيل الجسيم تتدلى من مرفقه عصا من الألومنيوم. ألقى الرجلان الغريبان التحية على بعضهما البعض بأن أحنى كل منهما رأسه للآخر فى منتصف الشارع.

قال سامبسون وهو يبتسم: "لدينا شخصان هناك". وبعد ذلك أردف قائلاً وهو يبتسم: "سنكون مثلهما فى يوم من الأيام".

أجبته: "ربما. إذا كنا محظوظين لنعيش حتى هذا العمر".

وبعد ذلك، قرر يانج آن لو أن يقوم بظهوره الأول فى ذلك اليوم.

الفصل ١٠

كان يانج طويل القامة وبدا نحيلاً إلى حد كبير، وذا لحية خشنة سوداء تتدلى من ذقنه بطول ست بوصات.

وقد عُرف عن زعيم المخدرات هذا أنه عنيف وداهية ومولع بالمنافسة وشرير، وغالبًا ما كانت تظهر عليه هذه الصفات فى غير ضرورة، وكأن الأمر برمته مجرد لعبة كبيرة وخطيرة بالنسبة له. لقد نشأ فى شوارع شنغهاى، ثم انتقل إلى هونج كونج، ثم إلى بغداد، واستقر أخيرًا فى واشنطن". حيث مارس سطوته على العديد من الأحياء المجاورة وكأنه قائد حرب صينى جديد.

ألقيت نظرة على شارع إم ستريت باحثًا عن أية إشارة على بدء المتاعب. وقعت عيناى على اثنين من الحرس الشخصى لـ "يانج" وقد بَدَوَا متأهبين تمامًا، فتساءلت عما إذا كان قد

تلقى تحذيرًا وإذا كان ذلك صحيحًا، فعن طريق من؟ هل يكون أحد رجال الشرطة المرتشين؟ فهذا احتمال وارد تمامًا.

كنت أتساءل بينى وبين نفسى أيضًا عن مدى براعة هذا القاتل الأيرلندى.

قاطعنى سامبسون بالسؤال: "هل رأتا الحرس الشخصى بعد؟".

"أتوقع ذلك. فنحن هنا لنقوم بدورنا كرادع أكثر من أى شىء آخر".

"وهل رآنا القاتل المأجور أيضًا؟".

"إذا كان هنا، وإذا كان يتمتع بأى قدر من البراعة. بل إذا كان هناك قاتل مأجور أصلاً، فعندئذ يحتمل أن يكون قد رآنا هو أيضًا".

وبينما يانج آن - لو فى منتصف الطريقة إلى سيارته المرسيدس اللامعة المتوقفة على جانب الطريق إذ بسيارة أخرى، من طراز بويك ليسابر، تخترق شارع إم ستريت. زادت السيارة من سرعتها، وكان يُسمع لمحركها صوت عالٍ، ولعجلاتها صفير من شدة احتكاكها بالطريق.

استدار حارسا يانج الشخصيين بحركة لولبية باتجاه السيارة المسرعة، وأشهر كل منهما سلاحه. فتحت أنا وسامبسون البابين الجانبيين لسيارتنا، ثم قال بسخرية: "من يحمى من".

تردد يانج، ولكن للحظة واحدة، قبل أن يطلق ساقيه للريح ويجرى بخطى سريعة وضيقة وهو يحاول الهرب وكأنه يرتدى تنورة طويلة وضيقة تمنعه من الجرى بسرعة، وقد حاول الاختباء فى منزله المزدوج الذى خرج منه للتو حيث إنه من الممكن أن يصاب ويبقى فى خطر إذا قرر مواصلة التقدم والوصول إلى سيارته المرسيدس.

ولكن أخطأ الجميع فى حساباتهم يانج والحارسان الشخصيان وسامبسون وأنا.

حيث جاءت الطلقات من خلف تاجر المخدرات، من الجانب المقابل من الشارع.

ثلاث طلقات مدوية من بندقية طويلة.

سقط يانج على الأرض بجوار الرصيف، بلا حراك على الإطلاق. وأخذ الدم يسيل بغزارة من أحد جانبى رأسه، وكأن ماسورة دماء قد انفجرت. بدأت أشك فى أن يكون على قيد الحياة.

استدرت بسرعة ونظرت أعلى سقف مكشوف متصل بالمزيد من الأسقف المتراصة على الجانب الآخر من شارع إم ستريت.

رأيت رجلاً أشقر، ثم قام هذا الرجل بأغرب شىء رأيته فى حياتى: انحنى باتجاهنا. لم أكد أصدق ما قام به للتو! ينحنى باتجاهنا؟

بعد ذلك اختفى خلف أحد الأسقف وتوارى تمامًا عن الأنظار.

عبرت أنا وسامبسون شارع إم ستريت بسرعة فائقة ودخلنا البناية التى كان القاتل فوق سطحها، ثم صعدنا السلالم مسرعين حتى نلحق به. ولما وصلنا إلى سطح البناية، كان القاتل قد ذهب، لم نجد أى أحد فى المكان بأكمله.

هل كان هو القاتل الأيرلندى المأجور؟ الجزار؟ ذلك القاتل الذى أرسلته المافيا من نيويورك؟

ومن يكون غيره بحق الجحيم؟

مازلت لا أستطيع تصديق ما قد رأيته؛ ليس فقط لأنه تمكن من اصطياد يانج آن لو بسهولة، وإنما لأنه انحنى لنا بعد أن انتهى من مهمته.

الفصل ١١

لم يجد الجزار أية صعوبة تذكر فى التخفى وسط طلبة الجامعة فى الحرم الجامعى لجامعة جورج واشنطن. كان مرتديًا بنطالاً من الجينز وقميصًا قطنيًا متجعدًا رمادى اللون مكتوبًا عليه "القسم الرياضى"، وكان يحمل معه نسخة من رواية إسحق عظيموف Foundation " ظل طيلة الصباح يقرأ وهو ينتقل بين المقاعد يتفحص فتيات الجامعة، ولكنه كان يتعقب ماريان طوال الوقت. حسنًا، كان منشغلاً بعض الشيء، على الأقل بمشاكله الخاصة.

كان يقتفى أثر الفتاة أينما ذهبت، وقد مضى على مراقبته لها أربع وعشرون ساعة الآن، وقد رأى منها فى هذه الفترة ما أغضبه كثيرًا؛ حيث أطلقت العنان للسانها ولم تكف عن الحديث عما حذرها منه. لقد تأكد من أنها أطلقت لسانها

لأنه سمعها تتحدث مع صديقتها المفضلة، سيندى، عن "مستشارة". كانت قد تحدثت إليها قبل أيام قليلة. ثم عادت لحضور جلسة "استشارية" أخرى، وهو ما يعد خرقًا صارخًا لأوامره وتحذيراته.

لقد أخطأت يا ماريان.

وبعد انقضاء محاضرة الظهيرة عن الأدب البريطانى فى القرن الثامن عشر، قامت ماريان بسلوك طائش حين تركت الحرم الجامعى ليتبعها هو فى مجموعة تتكون من عشرين طالبًا على الأقل. أيقن الآن أنها صاعدة إلى مسكنها. إذن، فالفرصة مواتية.

ربما انتهى يومها الدراسى، أو ربما كانت فى فترة راحة طويلة بين المحاضرات. ومهما يكن الأمر، فلا يهمه كثيرًا أن تكون هذه أو تلك؛ وإنما ما يهمه أنها خرقت القواعد، ولابد من التعامل معها.

وما إن عرف وجهتها، حتى قرر أن يسبقها إليها. ونظرًا لأنها كانت طالبة فى السنة النهائية، كان يسمح لها بالسكن خارج الحرم الجامعى، وكانت تتشارك مع سيندى فى غرفة صغيرة تتسع لشخصين عند تقاطع شارعى التاسع والثلاثون ودافيس. كان المكان فى الدور الرابع، ولم يكن لديه أية مشكلة فى دخوله؛ حيث لم يكن عليه إلا اجتياز الباب الأمامى وإيجاد طريقة للتعامل مع قفله الصغير. يا له من أمر مضحك.

قرر الجزار أن ينعم بالراحة فى أثناء انتظاره؛ فتجرد من جميع ملابسه وخلع حذاءه، الحقيقة أنه لم يشأ أن تطال ملابسه أية قطرة دم.

ثم أخذ ينتظر الفتاة، وكان يسلى وقته بقراءة المزيد من كتابه. وبمجرد أن دخلت ماريان إلى حجرة نومها، طوقها الجزار بذراعيه من الخلف ووضع المشرط تحت ذقنها.

قال لها بصوت منخفض: "مرحبًا بك يا ماريان، ماريان. ألم أخبرك، ألا تتحدثين؟".

فأجابته: "لم أخبر أى أحد. أرجوك".

"تكذبين. أخبرتك بما سيحدث إذا فعلت ذلك. بل أريته لك".

"لم أخبر أحدًا. لقد وعدتك ألا أفعل".

"وأنا وعدتك أيضًا يا ماريان، وأقسمت بحياة أمى".

وفجأة، ضرب المشرط فى عنق فتاة الجامعة وأخذ يمزقه من اليسار إلى اليمين. ثم ضربه فيه مرة أخرى، وهذه المرة فى الاتجاه الآخر من اليمين إلى اليسار.

وبينما كانت تتلوى على الأرض وهى تنازع وتصارع الموت أخذ يلتقط لها بعض الصور.

لا شك أن هذه الصور ستفوز بالكثير من الجوائز. وهو لا يرغب فى نسيان ماريان أبدًا.

الفصل ١٢

ظل الجزار فى واشنطن الليلة التالية. وكان يدرك تمامًا ما يفكر فيه جيمى هاتس، ولكن جيمى كان جبانًا جدًا وحريصًا على حياته، فلم يكن ليسأله السؤال الذى يدور بذهنه، ألا وهو: هل لديك أية فكرة عما نفعله هنا بحق الجحيم؟ أو لماذا لا تزال فى واشنطن؟

ولكنه فى الحقيقة كان يعرف سبب بقائه فى واشنطن. كان يقود سيارة مسروقة من طراز شيفى كابريس ذات زجاج مطلى قاطعًا بها أحد أحياء واشنطن يعرف بالحى الجنوبى الشرقى، وهو يبحث عن منزل معين، فى إطار استعداداته للقيام بعملية قتل أخرى، كل ذلك بسبب ماريان، ماريان وثرثرتها.

كان العنوان محفورًا فى ذاكرته، وبدا له أنه صار على مقربة منه الآن. كان عليه القيام بعملية قتل أخرى، ثم يرحل بعدها هو وجيمى من واشنطن وبذلك يكون ملف القضية قد أغلق نهائيًا بالنسبة له.

قال جيمى هاتس من المقعد المجاور للسائق: "الشوارع هنا تذكرنى بالوطن". وكان يحاول بذلك أن يبدو عاديًا وغير مبالٍ بمكوثهما فى واشنطن مدة طويلة بعد قتلهما الرجل الصينى.

سأله الجزار بلهجة ساخرة لا تخلو من الجدية: "ولم ذاك؟"، وهو يعرف رد جيمى. ودائمًا ما كان يعرف ما يعتزم جيمى قوله. وللحقيقة، فإن إمكانية توقع تصرفات جيمى هاتس كانت تشعر الجزار بالراحة معظم الوقت.

"كل شيء يتدهور هنا أمام أعيننا كما تعلم، تمامًا كما فى بروكلين. وهنا يكمن السبب الذى تسأله عنه. ألا ترى كل هذه الفوضى التى تعم كل شارع من شوارع المدينة؟ ومن يرغب بالعيش هنا بحق الجحيم؟ من يريد أن يعيش هكذا؟".

ارتسمت على وجه مايكل سوليفان ابتسامة، ولكنها لم تكن ابتسامة سعيدة. ففى بعض الأحيان يكون هاتس أبله بشكل يبعث على السخط. قال له الجزار: "الساسة يريدون ذلك، فبإمكانهم أن ينظموا كل هذه الفوضى. لن يكون الأمر صعبًا جدًا يا جيمى".

"يا لك من رجل ذى قلب حنون يا مايكى. ربما من الأفضل لك أن تتقلد أى منصب سياسى". ثم أطرق جيمى هاتس برأسه وأدار وجهه إلى النافذة الجانبية، بعدما أدرك أنه لا يتعين عليه أن يتمادى أكثر من ذلك.

"ألا تتساءل عما نفعله هنا بحق الجحيم؟ ولا تعتقد أنى مجنون ومتهور؟ أخالك تريد أن تقفز خارج السيارة وتتوجه إلى محطة يونيون لتستقل أول قطار عائد إلى نيويورك يا

جيمى يا صغيرى".

كان الجزار يبتسم وهو يقول ذلك، لذا أدرك هاتس أنه لا بأس من أن يضحك هو أيضًا. ربما. ولكنه رأى سوليفان وهو يقتل اثنين من "أصدقائهما" فى العام الماضى، أحدهما بمضرب بيسبول والآخر بمفتاح سباكة. ولذلك، يتعين عليه أن يأخذ حذره طول الوقت.

سأله هاتس: "إذن ماذا تفعل هنا إذا كان ينبغى لنا أن نعود أدراجنا إلى نيويورك؟".

هز الجزار كتفيه وهو يقول: "أبحث عن منزل شرطى".

أغمض هاتس عينيه قبل أن يصيح: "يا إلهى. ليس شرطيا. لماذا شرطى؟".

جذب قبعته وغطى بها وجهه وهو يغمغم: "فلتحفظنا السماء".

هز الجزار كتفيه مرة أخرى، ولكنه كان يضحك هذه المرة، ثم قال له: "عليك فقط أن تثق بى. هل خذلتك من قبل؟ وهل سبق أن تماديت فى تهورى؟".

أخذ كل منهما يضحك من هذا السؤال الأخير. هل سبق أن تمادى سوليفان فى تهوره؟ وكان من الأفضل أن يكون السؤال: "هل سبق ولم أتماد فى تهورى من قبل؟".

استغرق الأمر عشرين دقيقة أخرى حتى يجد المنزل الذى كان يبحث عنه. كان المنزل ذا طراز قديم على شكل حرف "A"، وقد بدا كأنه أعيد طلاؤه مؤخرًا، وكانت به أصص زرع مليئة بالورود عند نوافذه.

"أيعيش الشرطى هنا؟ المكان ليس سيئًا جدًا حقًا. لقد اعتنى به ونظمه جيدًا".

"أجل يا جيمى. أشعر برغبة فى التسلل وإثارة بعض الفوضى داخله. وقد أستخدم منشارى وألتقط بعض الصور".

تجهم وجه هاتس وهو يقول: "وهل هذه فكرة صائبة؟ أنا جاد هذه المرة".

هز الجزار كتفيه استهجانًا ثم أجابه: "أعلم أنك جاد. ويمكننى رؤية ذلك يا جيمى. بل أشعر بالحرارة المنبعثة من عقلك الذى يعمل طوال الوقت".

سأله هاتس: "هل تعرف اسم الشرطى؟ أعلم أن الأمر لا يهمك غاية الأهمية؟".

"إنه كذلك بالفعل. واسم الشرطى هو أليكس كروس".

الفصل ١٣

أوقف الجزار السيارة على بعد منزل أو اثنين فى مقدمة الشارع الرابع، ثم ترجل منها وعاد مسرعًا إلى المنزل العائلى حيث يسكن الشرطى فى الشقة التى بالطابق الأرضى منه. ولم يواجه الجزار أية صعوبة فى الحصول على العنوان الصحيح، وذلك لأن المافيا ترتبط بعلاقات قوية مع بعض الأشخاص داخل مكتب التحقيقات. أخذ يحوم حول المنزل محاولاً ألا يراه أحد، وإن كان ذلك لا يعنيه كثيرًا؛ لأن الناس الذين يعيشون فى الجوار لا يتكلمون عما يرون.

وكان من المخطط أن تتم هذه العملية بسرعة الآن؛ بحيث يتسلل إلى المنزل ويخرج منه فى ثوان قليلة، ثم يعود إلى بروكلين ليحتفل بنجاح مهمته الأخيرة ويقبض ثمنها.

تسلل إلى المنزل عبر فتحة خفية فى السياج المحيط بالرواق الخلفى، ثم اندفع داخل المنزل. أخذ يسير باتجاه باب المطبخ، الذى بدا بابه كأنه يئن مثل حيوان جريح.

ما من مشكلة حتى الآن، أصبح داخل المكان بسهولة كبيرة، فظن أن التسلل إلى بقية المنزل سيكون سهلاً أيضًا.

لا يوجد أحد فى المطبخ.

ألا يوجد أحد فى المنزل؟

ثم ما لبث أن سمع صراخ طفل، فخلع قبعته وتحسس المشرط فى جيبه الأيسر.

كان هذا تطورًا مفيدًا، فوجود الأطفال فى المنزل يشغل كل فرد فيه. ولطالما قتل العديد من الرجال فى ظروف مشابهة من قبل فى بروكلين وكوينز. حدث ذات مرة أن قطع أحد جواسيس الشرطة إربًا فى مطبخ بيته ثم وضعه فى الثلاجة ليهدد ذويه.

انتقل بعد ذلك إلى ردهة قصيرة، وكان يتحرك كالظل دون أن يحدث صوتًا.

ثم واصل تقدمه إلى غرفة المعيشة الصغيرة، أو غرفة الأسرة، ليس ذلك ما يهم.

وهنا، وجد أمامه ما لم يكن يتوقع رؤيته، حيث رأى أمامه رجلاً طويلاً ووسيمًا يغير الحفاضات لطفلين صغيرين. كان الرجل بارعًا فى ذلك أيضًا. عرف ذلك سوليفان من تجربته فى بروكلين قبل سنوات عندما كان مسئولاً عن إخوته الثلاثة الذين لم تكن أنوفهم تكف عن الرشح، وكان حينها يغير الكثير من الحفاضات الكريهة يوميًا.

بادره الجزار بالسؤال: "هل أنت سيدة المنزل؟"

نظر إليه الرجل المحقق أليكس كروس دون أن يبدو خائفًا منه، بل لم يتفاجأ حتى بوجود الجزار فى المنزل، حتى لو كان من المفترض أن يكون مصدومًا، أو حتى مذعورًا. وبذلك يكون

تصرف الشرطى قد فاجأ الجزار على أية حال؛ فهو الأعزل، المنشغل بتغيير حفاضات طفليه، ولكنه على الرغم من ذلك أظهر موقفًا ثابتًا وشجاعًا جعله يبدو رجلاً حقيقيًا.

سأله المحقق كروس: "من أنت؟"، وكأنه هو من يمسك بزمام الموقف.

طوى الجزار ذراعيه ليبعد المسدس عن ناظرى الطفلين. فهو يحب الأطفال. أما مشكلته فكانت مع البالغين فقط، مثل أبيه وهو أحد الأمثلة المفزعة

"ألا تعرف لماذا أنا هنا؟ أليست لديك أية فكرة؟".

قال أليكس: "ربما أعرف. أظنك القاتل المأجور الذى نفذ عمليته منذ بضعة أيام. ولكن لماذا أنت هنا؟ فى منزلى؟ هذا ليس صوابًا".

هز سوليفان كتفيه غير مبال وهو يقول: "صواب؟ خطأ؟ من يقرر ذلك؟ يفترض أنى مجنون بعض الشىء. هكذا يقول عنى الناس على أية حال. قد يكون ذلك صحيحًا. هل تعتقد ذلك؟ إنهم ينادوننى بالجزار".

أومأ كروس برأسه ثم قال: "هذا ما سمعته عنك. ولكن لا تؤذ طفلىّ، لا أحد هنا غيرى، فأمهما ليست فى المنزل".

"ولماذا أفعل ذلك الآن؟ أؤذى طفليك؟ أو أؤذيك أمامهما؟ هذا ليس أسلوبى. سأنصرف من هنا. وكما قلت لك أنا مجنون. أنت رجل محظوظ. وداعًا يا صغيرى".

بعد ذلك انحنى له القاتل المأجور مرة أخرى، تمامًا كما فعل بعد أن أطلق النار على يانج آن لو.

انصرف الجزار وغادر الشقة من حيث دخل إليها تاركًا المحقق البارع فى حيرته يحاول تفسير ما حدث. كان جنونه لا يخلو من النظام على الرغم من ذلك بل كانت كل حركة يخطوها تتسم دائمًا بالنظام. كان يعرف تمامًا ما يفعله، ولماذا يفعله، ومتى يفعله.

الفصل ١٤

هزتنى تلك الليلة مع الجزار أكثر من أى شىء آخر حدث لى من قبل كرجل شرطة. قاتل فى منزلى! بل فى غرفة المعيشة مع أطفالى!

وماذا كان يفترض بى أن أفعل إزاء ما حدث؟ هل كان من المفترض أن آخذ حذرى؟ أم أعتبر نفسى محظوظًا لبقائى حيًا؟ كم أنا محظوظ؟ لقد أبقى القاتل على عائلتى. ولكن لماذا اقتفى أثرى وجاء إلى هنا؟

كان اليوم التالى واحدًا من أسوأ أيامى فى الشرطة. فبينما وقفت سيارة مراقبة تابعة للشرطة لمراقبة المنزل، تم استدعائى لثلاثة اجتماعات بشأن ما حدث عند منزل يانج آن لو. وكان هناك حديث حول خضوعى لتحقيق إدارى هو الأول من نوعه منذ انضمامى للشرطة.

ونظرًا لكل هذه الاجتماعات غير المتوقعة والعمل الورقى الإضافى، فضلاً عن ضغط العمل المألوف، تأخرت عن إحضار ماريا من "بوتماك جاردنز"، وكنت أشعر بالذنب إزاء ذلك. لم أتعود على تأخرها فى مشروع مثل "بوتوماك جاردنز" خاصة عندما يحل الظلام. وقد أقبل الليل الآن، وماريا حامل مرة أخرى.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف بقليل عندما وصلت إلى المشروع تلك الليلة، ولم تكن ماريا تنتظر أمام المبنى كالمعتاد.

أوقفت السيارة وخرجت منها، وأخذت أسير باتجاه مكتبها المجاور لقسم الصيانة بالدور الأرضى. بعد ذلك، أخذت أسرع من خطواتى.

ثم رأيت ماريا تخرج من الباب الأمامى، وكان كل شىء على ما يرام فى تلك الليلة. كانت حقيبتها تعج بالأوراق إلى الحد الذى يصعب معه إغلاقها. كانت تمسك بيدها أيضًا مجموعة من الملفات التى تعذر وضعها داخل الحقيبة.

كانت لا تزال قادرة على التلويح بيدها ورسم الابتسامة على شفتيها عندما رأتنى قادمًا إليها. لم تكن تغضب أبدًا من أى خطأ أرتكبه كأن أتأخر عليها أكثر من نصف ساعة لأحضرها من العمل.

لم يكن يعنينى سذاجة هذا الأمر أو كونه تقليديًا، فقد كنت أسعد كثيرًا لرؤيتها، وكان هذا حالى معها دائمًا وكانت أولوياتى موجهة إلى ماريا وأسرتى فى المقام الأول، ثم وظيفتى بعد ذلك. وبدا ذلك جيدًا بالنسبة لى. ذلك هو التوازن الصحيح.

كانت ماريا قد صاحت وهى تنادينى بنفس طريقتها الحماسية المعهودة قائلة: "أليكس! أليكس"، وأخذت تلوح بإحدى يديها بينما كنت أهرع لمقابلتها أمام المبنى. التفت إلينا

اثنان من العاملين فى الجوار كانا متكئين على السور الأمامى وضحكا من تصرفنا هذا.

قلت لها: "مرحبًا يا جميلتى. عذرًا على التأخير".

"ليست هناك مشكلة. كنت أعمل أيضًا"، ثم قالت لأحد العاملين الواقفين أمام السور:

"مرحبًا يا روبين ! هل تغار منا؟".

أخذ يضحك وهو يقول: "أعلم أنك تتمنين يا ماريا أن أكون زوجك بدلاً منه".

"نعم بالتأكيد. فى أحلامك".

"قبلتها ولكنا لم نشأ أن نطيل القبلة لأننا كنا أمام عملها، وكان العاملان يرقباننا، ولكن قبلتنا كانت كافية لتظهر لكل منا مدى حب أحدنا للآخر، ثم أخذت ملفات العمل منها وبدأنا نسير باتجاه السيارة".

قالت ماريا: "هذا لطف كبير منك أن تحمل عنى كتبى يا أليكس".

"بل يمكننى أحملك أنت أيضًا إن شئت".

قالت وهى تبتسم مرة أخرى: "افتقدتك طوال اليوم أكثر من المعتاد"، ثم غاصت بوجهها فى كتفى وهى تقول: "أحبك كثيرًا".

ارتخت ماريا بجسدها بين ذراعى أولاً قبل أن أسمع الطلق النارى، أطلقت ناحيتنا طلقتان من مسافة بعيدة، ولكنهما لم تكونا طلقتين عاديتين. لم أر الفاعل، ولم تكن هناك أية إشارة تدل عليه. لم أكن حتى متأكدًا من أى اتجاه جاءت الطلقتان.

قالت ماريا بصوت منخفض: "أوه، يا أليكس"، ثم سكنت تمامًا. ولم أكن أستطيع القول إن كانت حتى تتنفس.

وقبل أن أدرك ما كان يحدث، انزلقت من بين ذراعى وسقطت على الرصيف. لقد أصيبت فى صدرها أو فى معدتها.

ولكن الجو كان معتمًا جدًا ولم أستطع الجزم بأى شىء آخر.

حاولت أن أحجبها بجسمى لأحميها، ولكنى رأيت دمًا كثيرًا يتدفق من جرحها، ولذا حملتها بين ذراعى وأخذت أجرى بها.

كان دمها يغمر جميع جسدى أيضًا. أعتقد أنى كنت أصيح، ولكنى لست متأكدًا بالضبط مما حدث بعد أن أدركت أن ماريا قد أصيبت، ومدى خطورة وضعها.

كان اثنان من العاملين يهرولان من خلفى ليتفقدا حالتها. وكان روبين واحدًا منهما، ربما أرادا المساعدة، ولكنى لم أكن أعرف ما إذا كان بإمكان أى شىء أن يساعد ماريا الآن. كنت أخشى أن تموت بين يدىَ.

الفصل ١٥

لم يكن مستشفى "سانت أنطونى" بعيدًا عنا، وكنت أجرى بأقصى سرعة حاملاً بين ذراعىَ ماريا التى كانت تنزف بشدة. كان قلبى والدم المندفع يحدثان صوتًا مفزعًا فى أذنى، وكأنى سقطت تحت أو ربما داخل موجة فى محيط على وشك أن تغمرنا وتغرقنا فى شوارع هذه المدينة.

كنت أخشى أن أتعثر وأسقط لأن قدمىَّ كانتا ضعيفتين وترتجفان بشدة، ولكنى أيضًا كنت أعلم أنه لا يمكننى السقوط، فلا يمكن أن أتوقف عن الجرى قبل الوصول إلى غرفة الطوارئ.

لم يصدر عن ماريا أى صوت منذ أن همست باسمى. كنت خائفًا، وربما مصدومًا، ومشوش الفكر إلى حد كبير، فكان كل شىء من حولى غير واضح، مما جعل اللحظة تبدو غير حقيقية.

ولكنى بالتأكيد كنت أواصل الجرى.

وصلت إلى حى "إنديبندنس" ورأيت أخيرًا الضوء الأحمر ينبعث من غرفة الطوارئ فى مستشفى "سانت أنطونى" على مسافة أقل من بناية سكنية.

كان علىَّ التوقف بسبب المرور الذى كان مكتظًا جدًا والسيارات تتحرك بسرعة. أخذت أصرخ طالبًا المساعدة. استطعت أن أرى من مكانى مجموعة من العاملين بالمستشفى وهم يتحدثون مع بعضهم البعض، ولكن أحدًا منهم لم يرنى أو يسمعنى نظرًا للضوضاء الصاخبة التى تحدثها السيارات.

لم يكن أمامى خيار آخر، لذا أخذت أشق طريقى وأخترق الشارع المزدحم.

أخذت السيارات تنحرف من حولى، واضطرت إحداها إلى التوقف تمامًا. كان وراء عجلة القيادة أب ساخط، وكان أطفاله يطلون من المقعد الخلفى. ولكن أحدًا منهم لم يصح فى وجهى غضبًا؛ ربما لأنهم رأوا ماريا وهى بين ذراعىَ؛ أو ربما بسبب ما رأوه على وجهى من ذعر ويأس، وغيرها من المشاعر.

توقفت المزيد من السيارات لتسمح لى بالمرور.

كنت أفكر بينى وبين نفسى بأننا سوف نتجاوز هذه المحنة.

قلت لـ "ماريا": "نحن فى مستشفى سانت أنطونى. ستكونين بخير يا حبيبتى. لقد وصلنا تقريبًا. تماسكى، فقد كدنا نصل إلى المستشفى. أحبك".

وصلت إلى الجانب الآخر من الشارع، ثم فتحت ماريا عينيها فجأة، نظرت إلىَّ، وكانت تحدق بعمق فى عينىَّ. بدت مشوشة فى البداية، ولكنها بعد ذلك ركزت على وجهى.

قالت: "أوه، أحبك كثيرًا يا أليكس"، ثم أعطتنى تلك الغمزة الرائعة. بعدها انغلقت عينا فتاتى الجميلة للمرة الأخيرة وضاعت منى للأبد، على الرغم من أنى كنت أجاهد من أجل إنقاذ حياتها الغالية.

الفصل ١٦

ماتت ماريا سيمبسون كروس بين يدىَ الأمر الذى لم أخبر به أحدًا إلاّ سامبسون وجدتى.

لم أرد التحدث عن لحظاتنا الأخيرة معًا؛ ولم أرد أن يضايقنى أى أحد بشفقته أو فضوله. لم أرد أن أشبع حاجة بعض الناس إلى الثرثرة البغيضة، وآثرت أن أحيط هذه القصة المأساوية الأخيرة بهالة من السرية. لم أناقش أبدًا ما حدث بينى وبين ماريا أمام مستشفى سانت أنطونى طيلة فترة التحقيق التى امتدت لشهور عديدة بعد حادثة القتل. تحدثت أنا وسامبسون إلى مئات الأشخاص، لكن لم يعطنا أى منهم معلومة تقودنا إلى القاتل. بحثنا عن القاتل المجنون ولكن وجدناه قد عاد إلى نيويورك الليلة السابقة للقتل ويبدو أنه غادر المدينة بعد وقت قصير من مغادرته مطبخى. ساعدنا

مكتب التحقيقات الفيدرالية لأن القتيلة هى زوجة أحد رجال الشرطة. ولم يكن الجزار هو القاتل.

وعندما كانت الساعة تشير إلى الثانية صباح اليوم التالى لموتها، كنت داخل شقتنا وأنا لا أزال أرتدى الجراب الذى يحمل مسدسى. دخلت حجرة المعيشة وأنا أحمل بين ذراعىَ جانيل التى لم تكف عن البكاء. لم أستطع أن أخرج من رأسى فكرة أن طفلتنا كانت تبكى من أجل أمها التى ماتت هذه الليلة خارج المستشفى التى ولدت بها جانى قبل ستة أشهر.

وفجأة انهمرت الدموع من عينىَ وأخذت أفكر فى كل ما حدث، بواقعيته ومأساويته. لم أستطع التعامل مع أى من هذا، خاصة الطفلة الصغيرة التى بين يدىَ، والتى لم أتمكن من إيقاف بكائها.

همست إلى طفلتى المسكينة، التى كانت تتعذب من الالتهاب الداخلى والتى ربما كانت تريد أن تكون بين يدى أمها لابين يدىَ أنا، بالقول: "لا بأس يا صغيرتى، لا بأس". كررت لها: "لا بأس يا جانى. لا بأس"، على الرغم من أنى كنت أعرف أن ذلك محض كذب. وكنت أقول لنفسى الأمر ليس على ما يرام ! لقد ماتت أمك، ولن ترينها ثانية بعد الآن. ولن أراها أنا أيضًا. عزيزتى ماريا الجميلة، التى لا أذكر أنها آذت إنسانًا قط، والتى كنت أحبها أكثر من حياتى، رحلت عنا فجأة، ولا يستطيع أى أحد أن يذكر لى السبب.

ظللت أتحدث إليها فى نفسى وأنا أسير جيئة وذهابًا حاملاً الطفلة بين ذراعىَ: "آه يا ماريا، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ وكيف يمكننى القيام بما يتعين علىَ القيام به من الآن فصاعدًا؟ وكيف لى أن أقوم به من دونك؟ لا أشعر بالأسف والأسى من أجل نفسى. لقد طار عقلى الآن. ولكنى سأقف على قدمىَ مرة أخرى معًا. أعدك بذلك. ولكن ليس الليلة".

كنت أعلم أنها لن تجيبنى، ولكنى كنت أشعر بارتياح كبير وأنا أتخيل أن بإمكانها أن ترد على، أو ربما تتمكن من سماعى على الأقل. ظللت أتخيل أنى أسمع صوتها وهى تقول لى ستكون بخير يا أليكس ؛ لأنك تحب طفلينا كثيرًا".

همست إلى طفلتنا بالقول: "آه يا جانى، أيتها الطفلة المسكينة. أحبك كثيرًا"، وكانت حينها تعانى من ارتفاع كبير فى درجة حرارتها.

ثم ظهرت أمامى جدتى فى هذه اللحظة.

الفصل ١٧

كانت جدتى تقف عند باب الردهة المؤدية إلى حجرتى النوم الصغيرتين. كانت تعقد ذراعيها أمامها وهى تراقبنى كل هذا الوقت. هل كنت أتحدث إلى نفسى؟ أم كنت أتحدث بصوت عالٍ؟ ليست لدىّ أية فكرة عما كنت أفعله .

قلت لها بصوت خافت حتى لا أزعج الطفلة الباكية: "أيقظتك، أليس كذلك؟".

كانت جدتى هادئة، وبدت مسيطرة على نفسها. وكانت قد مكثت فى الشقة لتعتنى بالأطفال فى الصباح، ولكنها استيقظت الآن، وكان ذلك خطأى، وخطأ الصغيرة جانى أيضًا.

قالت لى: "بل كنت مستيقظة أفكر فى ضرورة عودتك أنت والطفلين إلى منزلى فى الشارع الخامس، فهو منزل كبير بما يكفى يا أليكس، بل كبير جدًا. فهذه أفضل طريقة لكى ينجح

الأمر من الآن فصاعدًا.

سألتها، وأنا مضطرب قليلاً لما كانت تقوله، خاصة وأن جانى كانت تصرخ بصوت عالٍ فى أذنى الأخرى: "لكى ينجح ماذا؟".

أجابت جدتى: "تريدنى أن أساعدك فى رعاية هذين الطفلين يا أليكس، فهذا أمر واضح وضوح أنفك فى وجهك. أقبل ذلك، بل أريد أن أقوم بذلك، وسأقوم به بالفعل".

قلت لها: "سنكون بخير يا جدتى، وسنقوم بذلك بأنفسنا. فقط امنحينى بعض الوقت حتى أخرج من هذه المحنة".

تجاهلتنى جدتى وواصلت محاولاتها لإقناعى بفكرتها، فقالت لى: "أنا هنا من أجلك يا أليكس، ومن أجل الطفلين. وهذه هى الطريقة التى يتعين عليك التعامل بها مع الأمور الآن. لا أريد المزيد من الكلام فى هذه الموضوع، لذا كف عن ذلك، أرجوك".

ثم تقدمت نحوى ووضعت ذراعيها النحيلتين حولى، ثم ضمتنى إلى صدرها بأقصى قوتها وقالت: "أحبك أكثر مما أحب حياتى". وتابعت: "أحببت ماريا أيضًا، وأفتقدها كثيرًا. وأحب هذين الطفلين يا أليكس، الآن أكثر من أى وقت مضى".

كان كل منا يبكى بحرقة فى ذلك الوقت بل كنا نبكى نحن الثلاثة فى حجرة المعيشة تلك التى ضاقت علينا الآن. وكانت جدتى محقة فى أمر واحد: وهو أن هذا المكان لا يمكن أن يكون بيتًا لنا بعد الآن؛ لأنه ملىء بالكثير من الذكريات مع ماريا.

قالت جدتى: "والآن اترك جانى وأعطنى إياها"، ولم يكن ذلك مجرد طلب منها. تنهدت وأعطيتها لهذه المرأة المكافحة التى يبلغ طولها خمس أقدام، والتى قامت بتربيتى منذ أصبحت يتيمًا وأنا فى العاشرة من العمر.

أخذت جدتى تربت على ظهر جانى وتحك رقبتها، ثم تجشأت الطفلة بقوة، فضحكنا معًا على الرغم من الآلام التى تعتصرنا.

همست جدتى: "ليس هذا تصرفًا يليق بسيدة مهذبة. والآن يا جانيل، فلتكفى عن هذا البكاء المزعج. هل تسمعيننى؟ كفى عنه الآن".

فعلت جانى ما أخبرتها به جدتى، وكانت هذه هى بداية حياتنا الجديدة .

الجزء الثانى

قضية باردة ـ ٢٠٠٥

الفصل ١٨

تلقيت خطابًا اليوم من ذلك المختل عقليًا المدعو كريج، وقد أدهشني هذا الخطاب كثيرًا. كيف يرسل خطابًا إلى؟ جاءنى الخطاب على عنوان المنزل الذى بالشارع الخامس. وحسب معلوماتى، فإن كايل محتجز فى سجن مشدد الحراسة بعيدًا فى فلورنس بولاية كولورادو. ولذلك، فإن استلام رسالة منه أمر محير.

وفى الواقع، حيرتنى هذه الرسالة وأزعجتنى كثيرًا.

أليكس

لقد افتقدتك كثيرًا مؤخرًا ـــ أحاديثنا المنتظمة وكل ما دار بيننا هو ما دفعنى إلى كتابة هذه الرسالة القصيرة. وحتى أكون صادقًا معك، فإن الأمر الذى

لا يزال يضايقنى هو أنك أقل منى حنكة ودهاءً. ومع ذلك، فأنت الذى أمسك بى وزج بى إلى هنا، أليس كذلك؟ وقد تجعلنى الظروف والنتيجة النهائية أو من بالتدخل الإلهى، ولكنى بالطبع لست عاجزًا ولا ضعيفًا إلى هذا الحد.

على أية حال، أعلم أنك فتى مشغول (لا أقصد بذلك أية إهانة)، ولذلك لن أضيع وقتك. أردتك فقط أن تعلم أنك فى خاطرى دائمًا، وأنى آمل أن أراك قريبًا. وحقيقة، يمكنك الاستعداد لما أعتزم القيام به، فأنا أخطط لقتل جدتك وطفليك أولاً أمام ناظريك، ولا أطيق صبرًا حتى أراكم جميعًا، مرة أخرى سأعمل على حدوث هذا أعدك بذلك".

"ك"

قرأت الرسالة مرتين، ثم مزقتها وحاولت أن أفعل عكس ما أراده منى كايل؛ أن أخرجه من رأسى.

نوعًا ما.

بعد ذلك اتصلت بالسجن المشدد الحراسة هناك فى كولورادو وأخبرتهم عن الخطاب وتأكدت من أن كايل كريج لا يزال هناك فى زنزانته.

الفصل ١٩

على أية حال، كان اليوم السبت، وكنت متغيبًا عن العمل ذلك اليوم، وليس هناك جرائم أو عقوبات اليوم، وليس هناك أشخاص مختلون عقليًا، على الأقل ممن عرفتهم حتى الآن.

كانت سيارة آل كروس فى هذه الأيام من طراز تويوتا كورولا القديمة التى كانت يومًا ما تخص ماريا. ولولا قيمتها العاطفية وطول بقائها معنا لما أبقيت عليها. وبصرف النظر عن تدهور حالتها وسوء أدائها ـ ناهيك عن لونها الأبيض المائل إلى الصفرة والبقع الكثيرة التى تكسو صندوق السيارة وغطاء الكبوت فقد أهدانى الأطفال ملصقين للسيارة فى عيد ميلادى الأخير مكتوب عليهما: "قد أكون بطيئًا، ولكنى لا أزال أسبقكم". "حقق أمنيتى من هذه السيارة". إنهم أيضًا لا يحبون الكورولا.

ولذا، أخذت جانى وديمون وأليكس الصغير فى ذلك السبت المشرق لنشترى سيارة أخرى.

وفى الطريق، كانت تويستا تغنى "Overnight Celebrity" على مشغل السى دى ثم تبعها كانى وست بأغنيته "All falls Down" وفى أثناء ذلك، لم يكف الأطفال أبدًا عن تقديم اقتراحات جامحة مجنونة عن السيارة الجديدة التى أردنا شراءها.

كانت جانى تريد سيارة من نوع رينج روفر ولكن ذلك لم يكن ليحدث لأسباب كثيرة وجيهة. فى حين أن ديمون كان يحاول إقناعى بشراء دراجة بخارية، ليستخدمها بالطبع عندما يبلغ الثامنة عشر بعد أربع سنوات، وهو ما كان بعيد المنال، ولذا لم يلق أية استجابة منى.

أما أليكس الصغير، أو آلى، فلم يكن يريد طرازًا بعينه، ما دام لونها أحمر أو أزرق لامعا. إنه حقا ولد ذكى، وكان من الممكن أن تكون هذه خطة منه لولا تحديده اللون "الأحمر" أو "اللامع".

ولذلك توقفنا عند تاجر سيارات مرسيدس فى أرلينجتون، بولاية فرجينيا التى كانت على مسافة ليست بالبعيدة عن المنزل. أخذ كل من جانى وديمون يحدقان فى سيارة كابريوليه ذات سقف متحرك من طراز سى إل كى ٥٠٠ فضية اللون، بينما أعجبنى أنا وآلى المقعد الأمامى الرحب للسيارة آر ٣٥٠. وكنت أفكر وقتها فى سيارة عائلية تتمتع بالأمان والأناقة، وتحتفظ بقيمتها عند إعادة بيعها ؛ أى أننى اخترتها على أساس عقلانى وعاطفى.

قال آلى: "أحب هذه السيارة، إنها خضراء وجميلة. إنها ما كنت أبحث عنه بالضبط".

"تتمتع بذوق رفيع فى السيارات يا صغيرى. إنها ذات ستة مقاعد، كم هى رائعة مقاعدها. انظر إلى ذلك السقف

الزجاجى، لابد أنه يبلغ خمس أقدام أو أكثر".

كرر آلى: "إنها جميلة".

"يمكنك التمدد فيها. انظر إلى هذه المساحة أمام الأرجل أيها الرجل الصغير. هذه هى السيارة المثالية".

كانت معنا بائعة تدعى لورى برجر تقف إلى جانبنا طوال الوقت دون أن تحاول دفعنا إلى الشراء أو تكون متطفلة علينا فى غير ضرورة، وهو ما أقدره لها كثيرًا. فليحفظ الله المرسيدس.

سألتنا قائلة: "أية أسئلة؟ هل هناك أى شىء تود معرفته؟".

"لا ليست هناك أية أسئلة يا لورى. عندما يجلس المرء داخل هذه الآر ٣٥٠، فإنه يرغب على الفور فى شرائها".

"هذا يجعل وظيفتى سهلة. لدينا أيضًا سيارة سوداء وتنجيدها باللون الرمادى. إنهم يطلقون على سيارة الآر ٣٥٠ سيارة العبور يا دكتور كروس، كما أن هذه السيارة مطابقة للمواصفات العالمية للسيارات".

قلت لها وابتسامة الرضا تملأ وجهى: "إنها تجمع أفضل المزايا".

تلقيت رسالة عبر جهاز الاستدعاء الخاص بى، فأصدرت صيحة بصوت عالٍ جعلت الجميع يحدقون إلىّ.

ليس يوم السبت! وليس أثناء قيامى بالتسوق لشراء سيارة. وليس وأنا جالس فى هذه المرسيدس آر ٣٥٠ الجميلة.

قال آلى وقد اتسعت عيناه: "ياللحظ، جهاز الاستدعاء الخاص بأبى"، ثم نادى على ديمون وجانى بصوت عالٍ فى صالة العرض وهو يقول: "تلقى جهاز الاستدعاء رسالة".

قلت له: "لقد وشيت بى، يا لك من خائن قذر وحقير"، ثم قبلته أعلى رأسه، وهذا ما كنت أفعله ست مرات على الأقل فى اليوم، وفى كل يوم".

أخذ يقهقه وضرب ذراعى ثم عاد إلى قهقهته مرة أخرى. وكنت أمزح معه دائمًا. ولا عجب أن العلاقة بيننا كانت حميمة جدًا.

كان اليوم رائعاً إلا من هذه الرسالة التى لا تخلو من الأخبار المزعجة. تعرفت على الرقم فورًا، ولم أفكر البتة فى أنها تحمل أخبارًا جيدة.

نيد ماهونى من وحدة إنقاذ الرهائن؟ هل تراه يدعونى إلى حفل شواء راقص فى ملهى كونتيكو؟ لا بالطبع، ليس حفل شواء.

اتصلت بـ "نيد" فى وحدتى. "هذا أليكس كروس. تلقيت اتصالك يا نيد. ما سبب هذا الاتصال؟".

أجابنى نيد: "أليكس، هل تعرف حى "كنتاكى" بجوار شارع الخامس عشر فى الجنوبى الشرقى؟".

"أعرفه بالطبع، فهو ليس بعيدًا عن منزلى، ولكنى فى آرلينجتون الآن مع أبنائى، نشترى سيارة عائلية. هل تستطيع أن تقول كلمة "عائلة" يا نيد؟"

"قابلنى هناك، بين شارعى كنتاكى والخامس عشر. أحتاج إلى مساعدتك فأنا بحاجة إلى معرفتك بالمنطقة. لا أريد أن أقول المزيد". أطلعنى نيد على نقطتين إضافيتين من التفاصيل ولكنه لم يخبرنى بها كلها. لماذا كان ذلك؟ وما الذى يستبقيه لنفسه؟

آه أيها الرجل، هكذا خاطبت نفسى ثم قلت له: "لقد اخترت الوقت غير المناسب، أنا مع أطفالى يا نيد".

"آسف لذلك. سيكون فريقى هناك فى غضون عشرة إلى خمس عشرة دقيقة على الأكثر. أنا لا أمزح يا أليكس، فالأمر جد خطير".

بالطبع هو خطير، وإلا فلماذا يقحم فريق إنقاذ الرهائن التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالية نفسه داخل حدود مدينة

واشنطن؟ ولماذا يتصل بى نيد ماهونى بعد ظهر السبت؟

نظر إلىَ آلى وسألنى: "ما الخطب؟".

"علىّ الذهاب إلى حفل شواء". وأعتقد أنى سأكون الوجبة الرئيسية فى هذا الحفل أيها الرجل الصغير.

الفصل ٢٠

وعدت لورى برجر بالعودة قريبًا لشراء تلك السيارة، ثم أعدت الأولاد إلى البيت وهم فى ضيق شديد طوال الطريق، مثلى تمامًا. وكنت معظم الطريق أسير خلف سيارة كبيرة تعلق ملصقًا مكتوبًا عليه "**العراق أولاً، ثم فرنسا**"، وهذا ما قد رأيته كثيرًا فى واشنطن فى الآونة الأخيرة.

كان مشغل السى دى يصدر أصواتًا صاخبة جعلت كل شىء يميل إلى الفوضى نسبيًا. إنهم أولادى، وأنا أبوهم، وها أنا أتركهم لأذهب إلى العمل. لم يكن يعنيهم أنى كنت بحاجة إلى كسب العيش، أو أن واجبًا خطيرًا وجادًا يتعين علىَ القيام به. ما الذى يحدث فى كنتاكى والشارع الخامس عشر بحق الجحيم؟ ولماذا يحدث اليوم أيا كان هذا الذى حدث؟ لابد أنه أمر غير سار!

قالت جانى وهى تنزل من السيارة فى الشارع الخامس: "شكرًا على هذا السبت العظيم يا أبى. إنه رائع فعلاً لدرجة أنى لن لن أنساه". قالت ذلك بنبرة ساخرة منعتنى من الاعتذار لهم كما كنت أخطط طوال الطريق إلى البيت.

وبدلاً من ذلك قلت لهم: "أراكم لاحقًا يا شباب"، وأضفت: "أحبكم جميعًا"، وكنت أحبهم بالفعل بشدة.

عقبت جانى: "أجل يا أبى، لاحقًا، الأسبوع القادم، هذا إن كنا محظوظين"، ثم حيتنى بطريقة سريعة تنم عن الغضب. وكان وقع تحيتها علىَ كرمح يشق صدرى.

لم أجد إلا أن أقول أخيرًا: "آسف، آسف، آسف حقًا يا صغارى".

بعدها توجهت إلى حى كنتاكى؛ حيث من المفترض أن ألتقى نيد ماهونى وفريقه المزعج من وحدة إنقاذ الرهائن لأعرف المزيد عن الأحداث الطارئة التى تجرى هناك.

لم أستطع الاقتراب من شارعى كنتاكى والخامس عشر؛ حيث كانت شرطة واشنطن تغلق جميع الشوارع على بعد مسافة عشرة مجمعات سكنية، مما يؤكد خطورة الموقف.

ولذلك قررت أخيرًا أن أخرج من السيارة وأسير على قدمىَ.

سألت أحد المارة: "ما الذى يجرى؟ هل سمعت أى شىء؟"، وكنت قد تعرفت عليه فى مخبز بالجوار؛ حيث يعمل فيه محاسبًا، وحيث أشترى منه أحيانًا الكعك المحلى للأطفال، وليس لى أنا بالطبع.

قال لى: "يبدو أنه مهرجان للخنازير، فالشرطة فى كل مكان. انظر حولك يا أخى".

بدا لى أنه لا يعرف أننى كنت محققًا فى جرائم القتل قبل أن أنضم إلى مكتب التحقيقات الفيدرالى. أومأت برأسى ردًا على ما قاله، ولكن المرء لا يعتاد أبدًا على هذا القدر من

الغضب والاستياء الذى يكنه الناس لرجال المباحث الفيدرالية حتى ولو كان ذلك مبررًا فى بعض الأوقات. يطلقون علينا "خنازير"، أو "لحم الخنزير المقدد" وغيرها من الأسماء التى يصفنا بها بعض الناس، فإننا نعرض أرواحنا للخطر، ولكن الكثير من الجماهير لا يفهمون ما يعنيه ذلك. إننا لم نبلغ الكمال ولم نقترب منه، ولا ندعى أننا كذلك، ولكن عملنا ينطوى على خطورة كبيرة.

أردت أن أقول للرجل: "أجرب أن تتعرض لإطلاق نار أثناء أداء وظيفتك يا رجل المخبز"، ولكنى لم أفعل واكتفيت بالانصراف من أمامه وتغاضيت عن هذا التعليق، وكأنى ألعب دور المحارب السعيد مرة أخرى.

عانيت كثيرًا حتى رأيت نيد ماهونى أخيرًا. أظهرت بطاقة مكتب التحقيقات الفيدرالى حتى يسمح لى بالاقتراب. كنت لا أزال أجهل ما يجرى بالضبط، وكل ما كنت أعرفه أن هناك عددا من الرهائن الذين لم يتم تحديد هويتهم قد احتجزوا داخل معمل أحد تجار المخدرات الذى يستعمله لتصنيع المخدرات وتقطيعها. ولم يكن ما سمعته يتجاوز نصف خطورة الموقف فى الحقيقة. إذن، ماذا كان الأمر حقًا؟ لابد أن يكون هناك شيئًا أكبر من هذا.

وما إن رآنى ماهونى قادمًا إليه حتى ابتدرنى بالقول: "كم أنا مسرور لرؤيتك. لن تصدق يا أليكس هذا الهراء. صدقنى، لن تفعل".

قلت له: "أتراهننى على ذلك؟".

"أراهنك على عشرة دولارات أنك لم تر هذا من قبل. فلتظهر نقودك".

اتفقنا على ذلك، وحقيقة لم أكن أريد أن أخسر هذا الرهان.

الفصل ٢١

كان نيد يحك ذقنه التى لم يحلقها منذ يومين وهو يتحدث دون توقف بطريقته الحيوية المعتادة التى لا تسمح لأى أحد آخر بنطق كلمة واحدة. لم أستطع أن أمنع نفس من التحديق فى ذقنه. وكان نيد حسن المظهر، وأنا أعتقد أنه سعيد بنفسه جدًا لأنه يستطيع الآن أن يطلق لحيته خاصة بعد أن بلغ الأربعين من عمره. أحب نيد ماهونى كثيرًا، على الرغم من كونه بغيضًا فى بعض الأوقات. ولكنى أحب هذا الرجل حبًا جمًا.

قال لى نيد: "جاء بعض الشباب، ربما ستة وهم مدججون بالأسلحة إلى هنا لسرقة معمل التاجر، ولكنهم واجهوا بعض المشاكل وعلقوا بالداخل. ولكن هناك أيضًا بعض الأشخاص ممن يعملون فى هذا المعمل، وقد أحصينا منهم اثنى عشر أو

يزيد. إنهم محتجزون بالداخل. وهذه مشكلة أخرى علينا التعامل معها بعناية و ـــــــ"

وضعت يدى على فم نيد لأوقف سيل الكلمات المتدفق من لسانه.

"هل تقصد بكلامك الأشخاص الذين يعملون فى المعمل؟ أولئك الذين يعبئون المخدرات؟ إن معظمهم من النساء والأمهات والجدات؟ هل هذا هو الحال؟ إن تجار المخدرات يفضلون العمال الذين يحافظون على المنتج".

أجابنى ماهونى بعد أن علت وجهه ابتسامة عريضة جعلتنى على الأقل أرى أسنانه الأمامية: "أرأيت لماذا أردتك هنا؟". ذكرتنى نبرة صوته بعتاب جانى الأخير لى. كان نيد يتظاهر بالذكاء لكى يخفى شعوره بالدونية لكونه مساعدًا لأحد رجال المباحث ولا يتقلد منصبًا رفيعًا.

"إذن، فإن سارقى المخدرات وتجارها عالقون بالداخل؟ لماذا لا نتركهم يقضون على بعضهم البعض؟".

عقب ماهونى بوجه جامد: "لقد طُرِحَ هذا الاقتراح بالفعل. والآن، وصلنا إلى الجزء المهم يا أليكس. إليك سبب استدعائك إلى هنا: إن الرجال المسلحين جيدًا الذين أتوا للسطو على المعمل هم من فرقة العمليات الخاصة فى واشنطن؛ أى أن رفاق الأمس سيكونون أعداء اليوم فى حلقة اليوم من مسلسل "كل شيء يمكن أن يحدث"، وسوف يحدث! أنت مدين لى بعشرة دولارات".

تضايقت كثيرًا لهذه الأنباء وكنت أعرف الكثير من رجال هذه الفرقة قلت له: "هل أنت متأكد من هذا؟".

"أجل، فقد سمع اثنان من رجال الشرطة طلقًا ناريًا فى المبنى، فتوجها على الفور لاستقصاء الأمر، ولكن أحدهما أصيب فى بطنه. وقد علموا أن الرجال من فرقة العمليات الخاصة".

أخذت أحرك رأسى فى حركة دائرية وفجأة، شعرت بألم خفيف فى رقبتى، فتوقفت وسألته: "إذن، فرجال مكتب التحقيقات الفيدرالى هنا للاشتباك مع رجال فرقة العمليات الخاصة؟".

"شيء كهذا يا عزيزى. مرحبًا بالمتاعب، هل لديك أية أفكار لامعة؟".

فكرت قائلاً لنفسى: أجل أرحل من هنا الآن والعودة إلى الأطفال. اليوم السبت، ويوم إجازتى.

أعطيت نيد الدولارات العشرة قيمة الرهان.

الفصل ٢٢

لم أجد أى مخرج من هذا الفوضى العارمة، شأنى فى ذلك شأن الجميع. ولهذا السبب استدعانى ماهونى أملاً فى أن يكون لدىّ فكرة تنتشله من هذه المعضلة.

وبطبيعة الحال، فإن البؤس يحب الصحبة، لاسيما فى أثناء سطوع الشمس فى فترة الظهيرة؛ حين يريد كل شخص أن يكون فى أى مكان إلّا ذلك المكان الذى يحتمل تعرضه لإطلاق النار فيه، وهو المكان الذى تزداد فيه احتمالات موت الناس.

عقد أول اجتماع لمناقشة الموقف فى قاعة اجتماعات مدرسة ابتدائية قريبة. وكان الاجتماع مقتصرًا على أفراد شرطة واشنطن بالإضافة إلى عملاء مكتب التحقيق الفيدرالى وقادة فريق إنقاذ الرهائن. وكانت نخبة قوات مكتب التحقيقات

الفيدرالى على أهبة الاستعداد للانخراط فى هذه المهمة عندما يطلب منها ذلك، وبدا أن هذا قد يحدث قريبًا.

وقبل انتهاء الاجتماع بقليل، تحدث الكابتن تيم موران قائد القوات الخاصة بالمدينة عن رؤيته، وكان من المفترض أن يبدو تيم منفعلاً، ولكنه بدا هادئًا ومتماسكًا. عرفت موران خلال سنوات خدمتى فى هذه القوة وكنت أحترم شجاعته وأقدرها كثيرًا. بل أكثر من ذلك، كنت أحترم نزاهته واستقامته، الأمر الذى بلغ ذروته فى ظهيرة ذلك اليوم حيث كان محتملاً أن يشتبك مع رجاله.

"لكى ألخص الموقف، أقول إن هدفنا هو مبنى مكون من أربعة طوابق يستخدم لتحويل هيروين القار الأسود إلى بودرة، وإلى الكثير من الأموال. لدينا على الأقل اثنا عشر من عمال المعمل بالداخل، معظمهم من النساء. لدينا كذلك حراس المعمل وهم مسلحون وينتشرون فى ثلاثة طوابق على الأقل، وهؤلاء أيضًا واثنا عشر فردًا تقريبًا. هذا بالإضافة إلى ستة من عناصر القوات الخاصة الذين حاولوا سرقة المعمل وعلقوا بالداخل.

لا شك أن بحوزتهم كمية من الهيروين والمال، ولكنهم علقوا بين تجار المخدرات الذين حضروا أثناء السرقة. وهذا كل ما لدينا من معلومات عن تطورات الموقف هناك. أجرينا اتصالات أولية مع كلا الجانبين، ولكن لا أحد يريد الاستسلام. وأعتقد أنهم يسألون أنفسهم الآن، ماذا يمكن أن يخسروه أو يكسبوه؟ ولذلك قرروا البقاء داخل المبنى".

تابع تيم موران حديثه بصوت هادئ قائلاً: "ونظرًا لوجود عناصر من القوات الخاصة بالداخل، ومع الأخذ فى الاعتبار تعقيدات الموقف، فإن فريق إنقاذ الرهائن سيكون تحت إشراف مكتب التحقيقات الفيدرالى".

كانت كلمة الكابتن موران واضحة وموجزة، وتطلب الأمر منه قدرًا من الشجاعة حتى يسلم العملية إلى مكتب التحقيقات الفيدرالى. ولكن كان هذا هو القرار الصائب فى حال قيامهم باقتحام المبنى، وما قد يصاحب هذا الاقتحام من اشتباك محتمل مع رجال القوات الخاصة. حتى لو كانوا رجال شرطة فاسدين، فإنهم لا يزالون رجال شرطة. ولم يكن من السهل على أى منا أن يضطر إلى إطلاق النار على إخوانه.

مال علىّ نيد ماهونى ثم قال: "والآن ماذا نفعل يا آينشتين؟ لقد علق رجال القوات الخاصة بين فكى كماشة. أرأيت لماذا أردتك هنا؟".

"أجل، ولكن عذرًا إن عجزت عن إيفائك الشكر الذى تستحقه".

علق ماهونى بالقول: "أوه، مرحبًا بك على أية حال"، ثم لكمنى فى ذراعى بطريقة توحى بحميمية صداقتنا، وهو ما جعل كلاً منا يضحك بملء فيه.

الفصل ٢٣

كان الفضول يجرى فى دمه.

اعتاد الجزار على مراقبة تحركات شرطة المدينة كلما كان فى واشنطن، وكان من الصعب أن يفوته هذا الحدث. وقد استغرب كثيرًا لما يجرى على الأرض، وأخذ يحدث نفسه، القوات الخاصة فى مواجهة وحدة إنقاذ الرهائن؟ ولكن الأمر أعجبه كثيرًا.

وطوال السنوات القليلة الماضية، أخذ الجزار يقلل من نوعيات العمليات التى يقوم بها؛ فكان يسير على مبدأ "اعمل أقل، وخذ أكثر". وكان يكتفى بثلاث أو أربع ضربات فى العام، بالإضافة إلى بعض العمليات القليلة التى يقوم بها على سبيل المجاملة لزعماء العصابات. وكانت هذه العمليات توفر له ما يزيد عن حاجته لدفع الفواتير. علاوة على ذلك، لم يكن

الجزار يفضل العمل كثيرًا مع رب عمله الجديد السيد ماجيونى الابن. ولكن السبب الحقيقى الوحيد هو أنه فقد حماسته، قوة الأدرينالين التى كانت تحركه، قدرته على التصرف اللحظى، وهذا ما جعله يأتى إلى حفلة رجال الشرطة!

كان يضحك وهو يوقف سيارته الرينج روفر على مسافة اثنى عشر مجمعا سكنيا من مسرح الاشتباك المحتمل. وذلك للازدحام الشديد فى الجوار؛ حيث لم يستطع الاقتراب، ولو خطوة واحدة، لأكثر من عدة بنايات من شارع كنتاكى. وفى طريقه إلى مسرح الجريمة، استطاع الجزار أن يحصى أكثر من أربع وعشرين شاحنة تابعة لشرطة واشنطن متوقفة على جانبى الطريق، هذا بالإضافة إلى العشرات من سيارات الشرطة.

ثم لم يلبث أن رأى رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى ذوى السترات الخضراء ربما يكون فتيان وحدة إنقاذ الرهائن قد أتوا إلى هنا من كوانتيكو. اللعنة! من المفترض أنهم ذوو كفاءة عالية، لقد حضروا برفقة أفضل القوات فى العالم الذين لا يقلون عنه كفاءة. لم يرد الجزار أن يفوت هذه المناسبة الرائعة مهما كلفه ذلك، حتى لو كان وجوده هنا يشكل خطورة عليه. ثم رأى العديد من سيارات القادة التى يديرون منها العملية. وفى "المنطقة المتجمدة" أو مسرح العمليات، اعتقد الجزار أنه حدد "قائد العملية".

ثم رأى مايكل سوليفان شيئًا جعله يتوقف عن التقدم وجعل قلبه يخفق بعض الشىء؛ حيث رأى شخصًا يرتدى ملابس مدنية يتحدث إلى أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالى.

كان سوليفان يعرف هذا الرجل، ذا الملابس المدنية. كان اسمه أليكس كروس، وقد كان حدث بينه وبين سوليفان قصة فى الماضى. بعد ذلك تذكر شيئًا آخر ماريان، ماريان، إحدى أفضل عمليات القتل التى نفذها وأروع الصور التى التقطها.

وقد زاد ذلك من شعوره بالإثارة.

الفصل ٢٤

استطعت أن أدرك **تمامًا** لماذا أرادنى هنا نيد ماهونى.

مصنع هيروين يحوى قرابة المائة والخمسين كيلو جراما من السموم، تقدر قيمتها بسبعة ملايين دولار بعد توزيعها، ورجال شرطة فى مواجهة رجال شرطة أمثالهم. سمعت الكابتن موران يقول: "كنت سأقول لكم اذهبوا إلى الجحيم، ولكنى أعمل هناك ولا أريد أن أراكم كل يوم". وأخذ يردد كلاما من هذا القبيل.

لم يبد أى ممن بالداخل أية إشارة على الاستسلام لا تجار المخدرات ولا أفراد القوات الخاصة. ولم يسمحوا أيضًا للعاملين بالمعمل المحتجزين فى الطابق الرابع بمغادرة المكان. كانت لدينا أسماء بعض العاملين بالمعمل وأعمارهم التقريبية، وكان معظمهم تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والحادية

والثمانين، كانوا من سكان تلك المنطقة السكنية الذين لم يجدوا أعمالاً أخرى، عادة بسبب عوائق تتعلق باللغة والتعليم، ولكنهم كانوا أيضًا يحتاجون إلى العمل بشدة.

لم أكن أفضل من أى أحد آخر فى البحث عن حل ممكن أو خطة بديلة، ولعل هذا هو السبب فى اتخاذى قرارًا بالابتعاد عن مسرح العمليات لمسافة عشرة بنايات لأصفى ذهنى، فلربما جاءتنى فكرة إذا أبعدت نفسى عن مربع الأحداث.

كان هناك المئات من المتفرجين، بما فى ذلك عشرات الصحفيين ومصورى التليفزيون. اجتزت بعض الكتل السكنية فى شارع إم ستريت وأنا أضع كلتا يدىّ فى جيوبى.

أتيت على ركن مزدحم بالشارع، حيث يتهافت مذيعو التليفزيون على إجراء مقابلات مع من يسكنون بجوار المعمل. وقبل أن أجاوزهم، وأنا غارق فى أفكارى، سمعت إحدى السيدات تقول وكلماتها ممزوجة بعبراتها: " لحمى ودمى محتجزة بالداخل، ولا أحد يهتم أو يحرك ساكنًا!".

توقفت لأسمع المقابلة ولم تكن المرأة تتجاوز العشرين من العمر، وكانت حاملاً، وقد بدا عليها أنها ستلد فى أى يوم، وربما الليلة.

"جدتى تبلغ الخامسة والسبعين من العمر. إنها تعمل بالداخل لتوفر المال لأطفالى ليذهبوا إلى المدرسة. اسمها روزاريو، وهى سيدة لطيفة. إن جدتى لا تستحق أن تموت".

استمعت إلى عدة مقابلات أخرى، معظمها مع أفراد من أسر العاملين بالمعمل ولكن كانت هناك أيضًا مقابلتان مع زوجات وأطفال مهربى المخدرات العالقين بالداخل. وكان أحد هؤلاء المهربين لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر بعد.

وأخيرًا، عدت أدراجى إلى مسرح الأحداث، ودخلت الشريط الذى يحيط بمسرح العمليات، وأخذت أبحث عن نيد ماهونى. وجدته برفقة بعض القادة والكابتن موران خارج إحدى شاحنات القيادة. كانوا يناقشون فكرة فصل التيار الكهربائى عن المبنى.

قلت له: "لدىّ فكرة".

قال لى: "حسنًا، هات ما عندك".

الفصل ٢٥

كان الجزار لا يزال يحوم حول الشريط الحاجز الذى نصبته شرطة واشنطن، وكان يعلم أنه لا ينبغى له أن يكون هناك. بل كان من المفترض به أن يكون فى وطنه فى ميريلاند منذ ساعات. ولكن ما يجرى كان يستحق منه المجازفة. ولكن أحب شيء قام به هو أن أخذ يتجول بين جموع المتجمهرين، وكان يشعر كأنه طفل طليق فى فضاء شاسع، أو على الأقل ما اعتقد أن الطفل الطليق فى فضاء شاسع سيشعر به.

اللعنة، إن بينهم باعة المثلجات وشطائر السجق الساخن وقد برقت أعينهم وتوهجت بالإثارة. إنهم يريدون أن يشاهدوا أحداثًا حقيقية من واقع الحياة. حسنًا ، هو أيضًا يريد ذلك، أجل هو أيضًا.

لا شك أنه أدمن مثل هذه المشاهد واعتاد على رؤية مسارح الجريمة، وذكره ذلك بالأيام التى قضاها مع أبيه فى بروكلين؛ حيث كان والده يصطحبه وهو صغير إلى الأماكن الملتهبة ومسارح الجريمة التى يصادفها فى ذهابه أو إيابه. وكان ذلك هو الشيء الصحيح الوحيد الذى كان يقوم به مع والده على الإطلاق، وكان الجزار يفسر ذلك بأن أباه كان يعتقد أن اصطحاب طفله معه سيجعله يبدو شخصًا طبيعيًا فى أنظار الآخرين.

لكن أباه كان شخصًا غير طبيعى. فكان يحب أن يرى جثث الموتى، من أى نوع سواء كانت ملقاة على الرصيف، أم داخل سيارة متحطمة، أم حتى تلك التى يتم انتشالها من أحد المبانى المحترقة. وكان والده المجنون الجزار الأصلى فى سليجو بل كان والده أكثر سوءا من ذلك بكثير. وبالطبع، أصبح هو الجزار الآن، وأصبح واحدًا من أكثر القتلة المأجورين المطلوبين وأكثرهم إثارة للرعب فى قلوب الناس. إنه الرجل الأول الآن، أليس كذلك؟ إن بإمكانه أن يفعل ما يريد، وهذا ما يهم بفعله الآن.

أفاق مايكل سوليفان من أفكاره على صوت شخص يتحدث إلى مسرح الرهائن من خلال مكبر صوت ولم يكن ذلك الشخص إلا أليكس كروس. لقد بدا كروس كأنه قدره، مثل الأشباح التى تنادى الجزار من الماضى.

الفصل ٢٦

كنت أرى أن فكرتى غير صائبة تمامًا وتنطوى على قدر كبير من المجازفة، بل قد تكون خاطئة تمامًا، ولكنها كانت جديرة بالتجربة إذا ساعدتنا على إنقاذ حياة البعض. علاوة على ذلك، لم يتقدم أى شخص آخر بفكرة أفضل.

ولذلك، ما إن حل منتصف الليل حتى قمنا بتركيب مكبرات صوت خلف صف مصمت من سيارات الشرطة وشاحنات النقل المتوقفة فى نهاية الشارع الخامس عشر. بدا المنظر مثيرًا، وكانت كاميرات التليفزيون تحيطه من كل مكان، وهو أمر طبيعى ولا غرابة فيه.

وطوال الساعة التالية كنت أطلب من أفراد أسر من بالداخل أن يتحدثوا عبر مكبرات الصوت ويحكوا قصصهم، محاولاً بذلك أن أستثير عاطفة الرجال الذين بالداخل وأعيدهم إلى

رشدهم لعلهم يلقوا أسلحتهم ويخرجون من المبنى، أو على الأقل يسمحون لعمال المعمل بالخروج. شدد المتحدثون على أنه لا مفر من الاستسلام وأن الكثير ممن بالداخل سيموتون إذا لم يستسلموا. وكانت بعض القصص مؤثرة جدًا، ولقد رأيت الحضور وهم يبكون بحرقة حال سماعهم هذه القصص.

وقد حوت هذه القصص حكايات مؤثرة عمن بالداخل فهذا أب كان من المفترض أن يُحَكم مباراة فى كرة القدم يوم الأحد؛ وهذه فتاة سوف تزف بعد أسبوع؛ وأخرى حامل وكان من المفترض بها أن تستريح على فراشها ولكنها أتت لتؤازر زوجها مهرب المخدرات، ولم يكن أى منهما قد تجاوز الثامنة عشرة بعد.

ثم جاءنا رد من الداخل.

جاء هذا الرد بينما كانت فتاة فى الثانية عشرة تتحدث عن والدها، أحد تجار المخدرات؛ حيث سمعنا أصوات طلق نارى داخل المبنى!

استمر إطلاق النار قرابة الخمس دقائق، ثم توقف بعد ذلك. لم تكن لدينا أية معلومات عما يجرى بالداخل، ولكننا علمنا شيئًا واحدًا فقط أن كلمات أحبتهم والمقربين إليهم قد عجزت عن تحريك قلوب الرجال بالداخل.

لم يخرج أى أحد؛ ولم يستسلم أى أحد.

أخذنى نيد جانبًا وهو يقول: "لا بأس يا أليكس. ربما أكسبنا ذلك بعض الوقت". ولكن لم تكن تلك هى النتيجة التى يتطلع إليها أى منا، بل لم تقترب حتى مما كنا نأمله.

وفى الواحدة والنصف، قام الكابتن موران بإطفاء مكبرات الصوت خارج المبنى. وبدا أن لا أحد سيخرج إلينا؛ فقد اتخذوا قرارهم بمواصلة البقاء داخل المبنى.

وبعد الثانية بقليل، صدرت الأوامر لفريق إنقاذ الرهائن التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالى باقتحام المبنى أولاً، لتتبعهم

بعد ذلك موجة من شرطة واشنطن ولكن دون أن يشترك معهم أى من رجال القوات الخاصة. قد يكون القرار متهورًا، ولكن كانت هذه هى الطريقة المتبعة فى واشنطن هذه الأيام ربما نتيجة لزيادة الأنشطة الإرهابية على مدار السنوات القليلة الماضية. وبدا أن الناس لم يعودوا يرغبون فى محاولة التفاوض من أجل الخروج من الأزمات التى يتعرضون لها. لم أكن متأكدًا أى الموقفين أساند، ولكنى كنت أفهم كلا الموقفين.

كنت أنا ونيد ماهونى ضمن الفريق المكلف باقتحام المبنى أولاً. تجمعنا فى الشارع الرابع عشر خلف المبنى المحاصر مباشرة.

كان معظم رجالنا يتمتعون بكفاءة عالية ولكنهم كانوا قلقين، وكانوا يتحدثون مع بعضهم البعض فى محاولة منهم للحفاظ على تركيزهم.

قال نيد: "هذه خطة سيئة؛ فرجال القوات الخاصة يعرفون كيف نفكر، حتى على الرغم من قدومنا ليلاً".

سألته: "هل تعرف أيًا منهم؟".

فهز رأسه نافيًا وهو يقول: "لا ندعى إلى الحفلات نفسها عادة".

الفصل ٢٧

ارتدينا ستراتنا الواقية الداكنة، وكنت أنا ونيد نحمل سلاحًا من طراز إم بى ٥ مللم. فيجب أن يكون المرء حريصًا أثناء أداء المهمات الليلية، لا سيما هذه المهمة التى يشتبك فيها رجال القوات الخاصة العالقون بالداخل مع رفاقهم الذين أتوا لإخراجهم وإلقاء القبض عليهم.

التفت إلى نيد بعد أن تلقى رسالة على جهاز اللاسلكى الخاص به وقال: "لقد تلقينا إشارة البدء يا أليكس. لا ترفع رأسك يا عزيزى، فهؤلاء الرجال لا يقلون عنا كفاءة".

"لا ترفع رأسك أنت أيضًا".

ثم حدث ما لم يكن متوقعًا. ولكن ما حدث لم يكن أمرًا سيئًا هذه المرة.

فتح الباب الأمامى للمبنى، ولم تكن هناك أية حركة عند الباب لعدة ثوانٍ. ترى ماذا يحدث هناك؟

ثم خرجت سيدة عجوز ترتدى زى المعمل وسارت باتجاه الأضواء الموجهة إلى المبنى. رفعت السيدة يديها عاليًا وظلت تقول: "لا تطلقوا النار علىّ".

تبعتها المزيد من النساء وهن يرتدين المعاطف الخاصة بالمعمل، وكان من بينهن عجائز وشابات وبصحبتهن صبيًان لا يزيد عمر كل منهما على الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على أقصى تقدير.

وكان الواقفون خلف الشريط الحاجز ينادون عليهم بصوت مرتفع.

وكانوا يبكون من الفرحة ويصفقون بأيديهم.

ثم أغلق الباب الأمامى مرة أخرى.

وانتهى بذلك مسلسل الخروج.

الفصل ٢٨

أدى إطلاق سراح أحد عشر شخصًا من عمال المعمل إلى إيقاف الهجوم الشامل لفريق إنقاذ الرهائن واستئناف الاتصالات بين الجانبين مرة أخرى. وهنا ظهر على مسرح الأحداث مفوض الشرطة وكبير المحققين وتحدثا مع الكابتن موران، وهذا ما فعله أيضًا اثنان من كبار رجال المنطقة. وعلى الرغم من تأخر الوقت، كانت فرق التليفزيون والمراسلون لا يزالون يسجلون ما يجرى بكاميراتهم.

وعند الثالثة تقريبًا، صدرت لنا الأوامر باقتحام المبنى، ثم تأخر الاقتحام مرة أخرى. وهكذا استمر بنا الحال ما بين إسراع وانتظار، ثم إسراع وانتظار.

وفى الثالثة والنصف، تلقينا إشارة البدء، علمنا أنه قرار نهائى.

وما هى إلا دقائق معدودات بعد الثالثة والنصف حتى كنت أنا ونيد ماهونى نتسابق لاقتحام المبنى من خلال مدخل جانبى، وكان هذا أيضًا حال اثنى عشر رجلاً من أفراد القوات الخاصة. ويحسب للسترات الواقية أنها قد توقف رصاصة قاتلة أو على الأقل مؤذية؛ ولكن من عيوبها أنها تبطئ من حركتك وتعيقك عن الجرى بأقصى سرعة تحتاج إليها أو تريدها، هذا إلى جانب ما يصاحب ارتداءها من صعوبة فى التنفس.

اتخذ القناصة مواقعهم لمراقبة النوافذ فى محاولة منهم لخفض حدة المقاومة من الداخل بقدر الإمكان.

كان ماهونى يحب أن يسمى هذه المهمة "خمس دقائق من الذعر والإثارة"، ولكنى كنت أهاب هذا الموقف دائمًا. وبالنسبة لى، كانت هذه المهمة "خمس دقائق بينك وبين الجنة أو الجحيم" لم أكن أريد أن أكون هنا، ولكنى ونيد قمنا معًا بهجومين سابقين ولم أستطع البقاء بعيدًا عنه وتركه فى مثل هذا الموقف.

حطم انفجار مدو سقف الباب الخلفى.

وفجأة، علت المكان سحابة سوداء وتناثر الحطام فى كل مكان. بعد ذلك انطلق كل منا من خلاله وأخذنا نشق طريقنا إلى داخل المبنى، وكنت آمل ألا تصيبنى رصاصة فى رأسى أو فى أى مكان آخر مكشوف من جسدى فى الدقائق القليلة التالية. وحقيقة، كنت آمل ألا يموت أحد الليلة.

انهال على أنا ونيد وابل من الرصاصات. ولم نكن نعلم من الذى يطلق علينا النار. هل هم تجار المخدرات؟ أم أفراد القوات الخاصة، أم كلاهما؟

تعالت أصوات البنادق الآلية ثم تلتها القنابل اليدوية التى كادت أصواتها تصم الآذان بمجرد أن صعدنا درجة أو اثنتين على سلالم المبنى. ازدادت حدة إطلاق النار داخل المبنى الآن، ربما إلى الحد الذى يصعب معه أن نتماسك. ومن ناحية

أخرى، أصبح من الصعب أن نفكر بطريقة صائبة أو نحافظ على تركيزنا فى ظل هذه الضوضاء الصاخبة.

سمعت شخصًا يصيح من فوقنا: "مرحبًا أيها الحمقى!"، ثم أمطرنا بسيل من الطلقات. وكانت ومضات الطلق النارى تتوهج فى الظلام.

ثم أصيب نيد وسقط بشدة على السلم.

فى بداية الأمر، لم أعرف أين أصيب بالضبط؛ ثم رأيت جرحًا بالقرب من ترقوته. لم أكن أعرف ما إذا كان قد أصيب أم أنه ارتطم فقط بالحطام المتطاير. وكان جرحه ينزف بشدة.

بقيت إلى جانبه وأخذت أطلب المساعدة من خلال جهاز اللاسلكى. وفى غضون ذلك، سمعت المزيد من الانفجارات والصيحات، صيحات رجال ونساء تأتى من فوقنا. فوضى عارمة.

كانت يدا نيد ترتعش، ولم أكن قد رأيته خائفًا من أى شىء من قبل. وقد زاد إطلاق النار المتصاعد داخل المبنى من جو الذعر والارتباك الذى ساد المكان. شحب وجه نيد ولم يبد بحالة جيدة.

قلت له: "إنهم فى الطريق إليك. ابق معى يا نيد. هل تسمعنى؟".

أجابنى أخيرًا بصوت متقطع: "يا لك من أحمق، هذه إصابة بسيطة".

"كيف تشعر الآن؟"

أجابنى: "قد تسوء حالتى وقد تتحسن. بالمناسبة، لقد أصبت أنت أيضًا".

الفصل ٢٩

قلت لـ "نيد" وأنا أتهاوى بجواره على السلم: "سأعيش".

قال: "أجل، وأنا أيضًا. ربما أعيش على أية حال".

وبعد دقيقتين، وصل إلينا رجال الإسعاف ونحن فى المساحة الضيقة فى بئر السلم. وفى أثناء قيامهم بإخراج نيد من الموقع، بدا أن إطلاق النار قد توقف، تمامًا كما كان يقول دائمًا "خمس دقائق من الذعر والإثارة".

أخذت التقارير ترد إلينا، وسلمنى الكابتن تيم موران آخر تقرير بنفسه. وقد كان للهجوم على مصنع المخدرات نتائج مختلطة وكان معظمنا يرى أنه لم يكن ينبغى لنا أن نقتحم المبنى بهذه السرعة ولكنه لم يكن قرارنا. وقد أسفر الهجوم عن إصابة اثنين من رجال شرطة المدينة وآخرين من رجال القوات الخاصة. أما نيد، فقد خضع لعملية جراحية.

كما أسفر الهجوم عن ست إصابات بين صفوف المتحصنين داخل المبنى، من بينهم اثنان من أفراد القوات الخاصة. وكان من بين القتلى فتاة فى السابعة عشرة من العمر، وكانت أمًا لطفلين. ولسبب ما أو لآخر، قررت هذه الفتاة البقاء داخل المبنى حين فر بقية العاملين. كما لقى زوجها أيضًا مصرعه، وكان لا يزال فى السادسة عشرة.

وصلت أخيرًا إلى البيت بعد السادسة صباحًا بقليل، وكنت منهكًا وخائر القوى إلى حد كبير، ولم يكن يعنينى وقتها ما إذا كنت قد عدت متأخرًا جدًا أم مبكرًا.

وكان مما زاد الأمر سوءًا أن جدتى كانت مستيقظة تنتظرنى فى المطبخ.

الفصل ٣٠

كانت تتناول الخبز المحمص وكوبًا من الشاى، وقد بدا القلق واضحًا عليها، ولكنى كنت أعرف السبب جيدًا.

وكانت تغلى من داخلها مثل الشاى الساخن الذى أمامها.

ولم تكن جدتى قد أيقظت الأولاد بعد؛ وإنما ظلت تتابع تقارير الأخبار المحلية عن أحداث الشرطة ليلة أمس فى شارعى كنتاكى والشارع الخامس عشر على جهاز التلفاز الصغير الخاص بها. وكان الأمر يبدو غير واقعى بالنسبة لى عندما رأيت مسرح الأحداث على شاشة التلفاز داخل مطبخنا.

أخذت جدتى تحدق فى الخدش الموجود فى أحد جانبى جبهتى فى الضمادة التى تغطيه.

قلت لها: "إنه مجرد خدش بسيط، وليس جرحًا كبيرًا. لا بأس فأنا بخير".

"لا تعطنى هذه الإجابة السخيفة الحمقاء يا أليكس. هل تجرؤ على معاملتى كشخص غبى؟ إنى أنظر إلى آثار الرصاصة التى انحرفت بوصة واحدة حتى لا تهشم مخك وتترك أطفالك الثلاثة المساكين يتامى، دون أم أو أب. هل أنا مخطئة فى ذلك؟ لست مخطأة بالطبع!".

"أنا متعبة جدًا من هذا يا أليكس. لقد ظل هذا الخوف الرهيب يلازمنى كل ليلة منذ أكثر من عشر سنوات. وقد عاودنى ثانية هذه المرة. كفانى خوفًا وقلقًا، لقد عانيت منه بما يكفى، ولم أعد أحتمله بعد الآن. لن أستمر معكم على هذا الحال لقد سئمت ذلك! سأنسحب من حياتكم! أجل، لقد سمعتنى جيدًا. سأتركك وأترك الأولاد! أنا أنسحب!".

أخذت أدافع عن نفسى بكل قوتى وأقول لها: "كنت أصطحب الأولاد إلى الخارج عندما تلقيت هذه المكالمة الطارئة يا جدتى. لم تكن لدىَّ أية فكرة أننى سأتلقى هذه المكالمة. وكيف لى ذلك؟ لم يكن هناك ما أفعله لأوقف ما حدث".

قالت: "وافقت على ما جاء بالمكالمة يا أليكس، ثم قبلت التكليف. وهذا ما تفعله دائمًا. إنك تسمى هذا إخلاصًا وواجبًا، وأنا أسميه جنونًا تامًا".

"لم. يكن. لدىَّ. خيار".

"بل لديك خيار يا أليكس، وهذا ما أتحدث عنه. كان بإمكانك أن تقول لا، وتتعلل بأنك خارج مع أطفالك. ماذا تظنهم سيفعلون يا أليكس هل كانوا سيفصلونك من العمل لأن لديك حياتك الخاصة؟ أو لأنك أب؟ وحتى لو كنت سعيد الحظ وتم فصلك، فليكن ذلك".

"لا أدرى ماذا يمكنهم أن يفعلوا يا جدتى. وأعتقد أنهم سيفصلوننى من العمل فى نهاية الأمر".

قالت: "وهل ذلك أمر سيئ؟ هل هو كذلك؟ أوه، انس الأمر!"، ثم ضربت الكوب بشدة على المائدة وهى تقول:

"سأنصرف!".

"بالله عليك لا تفعلى ذلك، هذا سخف يا جدتى. أنا مرهق تمامًا. لقد أصبت، أصبت بشدة. سنتحدث عن ذلك لاحقًا. أنا بحاجة إلى النوم الآن".

وفجأة، وقفت جدتى وتحركت باتجاهى، وقد احمر وجهها غضبًا والشرر يتطاير من عينيها. ولم أكن قد رأيتها على هذه الحالة منذ عدة سنوات، ربما لم يحدث ذلك منذ أن بدأ عودى يشتد وأنا فى مرحلة المراهقة؛ حيث كنت مراهقًا صعب المراس.

"سخيف؟ أتسمى هذا سخفًا؟ كيف تجرؤ على قول ذلك لى؟".

أخذت جدتى تضربنى بكلتا يديها فى صدرى. لم تؤلمنى الضربات، ولكن ما آلمنى حقًا هو معنى هذه الضربات، وآلمتنى كثيرًا الحقيقة التى تنطوى عليها كلماتها. لم أجد حلاً إلا أن أقول لها: "أنا آسف. أنا متعب".

"أحضر لنفسك خادمة، أو مربية، أو أيًا كان ما تستطيع إحضاره. هل أنت مرهق؟ أنا مرهقة أيضًا. أنا مرهقة ومتعبة ومريضة حتى الموت من القلق عليك!".

قلت لها: "أنا آسف يا جدتى، ماذا تريدينى أن أقول؟".

"لا تقل أى شىء يا أليكس، فأنا متعبة من الاستماع إليك على أية حال".

توجهت جدتى إلى حجرتها دون أن تنطق بكلمة أخرى. حسنًا، انتهت المشكلة على الأقل، قلت ذلك لنفسى ثم جلست إلى مائدة المطبخ وأنا فى قمة الإعياء والاكتئاب والحزن.

ولكن المشكلة لم تنته.

فما هى إلا دقائق معدودات حتى عادت جدتى إلى المطبخ وفى إحدى يديها حقيبة جلدية قديمة وفى الأخرى حقيبة سفر صغيرة تسير على عجلات. مرت من أمامى واجتازت

حجرة الطعام، ثم خرجت من الباب الأمامى دون أن تنطق بكلمة واحدة.

ناديتها وأنا أنهض من فوق المقعد: "جدتى!"، ثم أخذت أجرى خلفها وأنا أتوسل إليها: "توقفى. أرجوك. توقفى وتحدثى إلىّ، فلنناقش الأمر معًا".

"لقد سئمت من الكلام!".

وعندما وصلت إلى الباب، رأيت سيارة أجرة لونها أزرق باهت وحالتها سيئة، رأيتها فى الشارع. وكان أحد أبناء عمومتها الكثيرين، ويدعى إبراهام، يقود إحدى سيارات الأجرة فى واشنطن. استطعت أن أرى مؤخرة شعره الأفريقى من الشرفة.

ركبت جدتى السيارة الزرقاء القبيحة التى ما لبثت أن اختفت بها بعيدًا عن المنزل.

بعد ذلك سمعت صوتًا صغيرًا يقول: "أين تذهب جدتى؟".

التفت إلى مصدر الصوت فوجدت آلى يقف على مقربة منى خلف الشرفة. أجبته: "لا أدرى يا رجلى الصغير. أعتقد أنها قد هجرتنا".

بدا مذعورًا وهو يسأل: "هل هجرت جدتى أسرتنا؟".

الفصل ٣١

استيقظ مايكل سوليفان فزعًا وأدرك أنه لن يتمكن من العودة للنوم مرة أخرى. كان يحلم بوالده، ذلك الوغد المخيف، ذلك الوحش الذى يهاجمه فى كل كوابيسه.

عندما كان صغيرًا، كان والده يأخذه للعمل فى محل الجزارة الخاص به مرتين أو ثلاثًا أسبوعيًا فى الصيف، واستمر على هذا الحال منذ أن كان فى السادسة من العمر وحتى بلغ الحادية عشرة، عندما انتهى الأمر. كان المحل يشغل الطابق الأرضى لمبنى حديث الطراز مكونًا من طابقين عند ملتقى طريق كونتين والشارع السادس والثلاثين الشرقى. وقد اشتهر الجزار كيفين سوليفان بأنه يبيع أفضل اللحوم فى فلاتلاندز فى بروكلين، واشتهر كذلك بمهارته فى إعداد الأطعمة الإيطالية والألمانية، وليست الأطعمة الأيرلندية

فقط.

كانت نشارة الخشب تملأ أرضية المحل دائمًا، وكانت تكنس كل يوم. أما زجاج النوافذ، فكان يتلألأ من فرط نظافته. وكانت لـ "كيفين سوليفان" عادة فقد كان يبتسم وينحنى لزبائنه بعد أن يقدم لهم اللحوم التى يطلبونها. وكانت إيماءته البسيطة هذه تعجب زبائنه دائمًا.

ولكن مايكل وأمه وإخوته الثلاثة كانوا يعرفون الوجه الآخر لوالدهم؛ حيث كان كيفين سوليفان يتمتع بذراعين هائلين وأقوى يدين يمكن تخيلهما، خاصة فى عينى ولد صغير. وقد حدث ذات مرة أن أمسك بفأر فى المطبخ وسحقه بيديه كالحشرة الصغيرة. أخبر أبناءه أنه قادر على فعل الشىء نفسه معهم، وأنه يستطيع أن يسحق عظامهم ويحولها إلى نشارة صغيرة. أما والدتهم، فلم يكن يمر عليها أسبوع كامل دون أن تصاب بكدمة أو جرح فى موضع أو آخر من جسدها الضئيل.

ولكن ذلك لم يكن أسوأ ما فى الأمر، ولم يكن ذلك هو ما أيقظ سوليفان فزعًا فى تلك الليلة، وفى مرات أخرى عديدة طوال حياته. فقصة الرعب الحقيقية قد بدأت عندما كان فى السادسة، وكانوا ينظفون المحل بعد انتهاء أوقات العمل ذات ليلة. فقد استدعاه أبوه إلى حجرة مكتبه الصغيرة بالمحل، وكانت تحتوى على مكتب وخزانة ملفات وسرير صغير. كان كيفين سوليفان جالسًا على السرير حين أمر مايكل أن يجلس إلى جواره. "اجلس هنا يا فتى. اجلس إلى جوارى".

قال له مايكل على الفور: "آسف يا أبى"، وكان يعرف أن أباه يدعوه ليوبخه على خطأ ما ارتكبه فى خلال قيامه بتأدية عمله البغيض، ثم أردف قائلاً: "سأعالج الخطأ، وأفعل الصواب".

فقال له والده: "اجلس فقط! هناك الكثير لتأسف عليه، ولكنى لا أريدك فى ذلك الآن. والآن اسمعنى، واسمعنى جيدًا".

وضع والده يده على ركبة مايكل وقال له: "تعلم جيدًا إلى أى مدى يمكننى إيذاؤك يا مايكل. تعلم ذلك، أليس صحيحًا؟".

"أجل يا سيدى، أعلم ذلك".

استطرد والده: "وسأفعل ذلك إذا أخبرت أى أحد".

أراد مايكل أن يسأله أخبرهم بماذا؟ ولكنه كان يعلم أنه من الأفضل له ألا ينطق بكلمة واحدة يقاطع بها والده وهو يتحدث.

تابع والده: "لا تخبر أى أحد"، ثم ضغط على ساقى مايكل بقسوة بالغة حتى بدت الدموع فى مقلتيه.

بعد ذلك انكب والده عليه وفعل أشياء أخرى لا ينبغى أبدًا أن يفعلها أب مع ابنه.

الفصل ٣٢

مات أبوه منذ زمن طويل الآن، ولكن هذا الوغد اللئيم لم يبتعد كثيرًا عن أفكار سوليفان، وفى الحقيقة، كان مايكل يبتكر طرقًا غير مألوفة كى "يهرب" من ذكريات طفولته البائسة.

وفى حوالى الرابعة من عصر اليوم التالى، ذهب للتسوق فى متجر يدعى تيسون جالريا فى ماكلين فيرجينيا. وكان يبحث عن شيء مميز جدًا: كان يبحث عن الفتاة المناسبة ليلعب معها لعبة كان يطلق عليها الضوء الأحمر، الضوء الأخضر.

وخلال نصف الساعة التالية له فى جالريا، ظل مايكل يقترب من بعض الفتيات اللاتى يحتمل أن يشاركنه لعبته، واللاتى كن يخرجن من متاجر مثل نيمان ماركوس، أو ليلى روبين.

وكانت طريقته واحدة لا تتغير فى كل مرة؛ حيث كان يرسم على وجهه ابتسامة عريضة يتبعها بالقول: "مرحبًا، اسمى جيف كارتر. هل يمكننى أن أطرح عليك سؤالين اثنين فقط؟ هل تمانعين؟ سأكون سريعًا، أعدك بذلك".

كانت المرأة الخامسة أو السادسة التى اقترب منها ذات وجه جميل جدًا، وبتسم بالبراءة وجه ملائكى. أخذت هذه السيدة تصغى إلى ما يقوله لها. وكانت أربع سيدات ممن قتلهن من قبل يتسمن بقدر كبير من الكياسة ولم تكن لديه أية مشكلة فى ذلك؛ فهو يحب الأذكياء، وهؤلاء السيدات كن يشعرن بالحذر فقط إزاء لعبة الالتقاط هذه. ماذا تقول الحكمة القديمة؟ "لا تلتقط شيئًا لا تعرفه، فأنت لا تدرى من أين جاء".

تابع حديثه مع فتاة الجالريا ذات الوجه الملائكى وقال: "حسنًا، ليسا سؤالين بالضبط. دعينى أقولها لك بطريقة أخرى. إذا قلت أى شىء يضايقك، فسأتوقف على الفور وأتركك لحالك. هل هذا يبدو عدلاً؟ تمامًا مثل الضوء الأحمر، والضوء الأخضر".

قالت له الفتاة ذات الشعر الأسود: "تلك لعبة غريبة بعض الشىء"، وكانت الفتاة تتمتع بوجه رائع الجمال وقوام جميل حسبما رأى، وكان صوتها مملاً ورتيبًا إلى حد ما ولكن ما من أحد كامل، فيما عداه هو.

قال لها: "ولكنها غير ضارة ولن تؤذيك. أحب حذاءك بالمناسبة".

"شكرًا لك. لا يضايقنى أن أسمع أنك تحبه، فأنا أيضًا أحبه".

"ابتسامتك جميلة كذلك. تعرفين ذلك، أليس صحيحًا؟ تعرفين ذلك بالتأكيد".

"احترس هنا. لا تتماد فى ذلك".

أخذا يضحكان معًا على ذلك، وكان الجزار يقول فى نفسه:

"لا بأس فى ذلك مادامت اللعبة مستمرة على أية حال". كان عليه فقط أن يتجنب الوصول إلى خط أحمر.

سألها: "هل هناك مشكلة إذا تماديت؟". اطلب الإذن منهن دائمًا، كانت تلك قاعدة يلتزم بها دائمًا كلما أراد أن يلعب. وكان مهذبًا دائمًا.

هزت كتفها ودارت بعينيها البنيتين. ارتكزت بجسدها على قدمها الأخرى قبل أن تقول:

"أعتقد ذلك. لقد ابتعدنا كثيرًا، أليس كذلك؟".

قال سوليفان: "ألف دولار"، وهنا عادة ما تكسب اللعبة أو تخسرها. ها هنا الآن.

اختفت ابتسامة مادونا ولكنها لم تتحرك بعيدًا عنه. وهنا أخذ قلب سوليفان يخفق بشدة. إنها على وشك الانصراف عنه، ولذا كان عليه أن يتم الصفقة الآن ويضرب ضربته.

بادرها سوليفان بالقول: "لن تكون هناك أية خدعة، أعدك بذلك"، قال ذلك وهو يحاول رسم ابتسامة على وجهه دون أن يوضح لها المزيد عما يقصد.

تجهم وجه مادونا وهى تقول: "هذا وعد، أليس كذلك؟".

أجابها سوليفان:"ساعة واحدة" وتكمن الخدعة هنا فى الطريقة التى تقولها بها؛ فلا ينبغى أن توحى بشىء جدى، أو تهديد من أى نوع، أو أى أمر غير عادي. مجرد ساعة واحدة. مجرد ألف دولار. ولم لا؟ ما الضرر فى ذلك؟

قالت: "ضوء أحمر"، ثم انصرفت بعيدًا عنه وهى غاضبة، ولم تنظر خلفها أبدًا.

جن جنون سوليفان، وظل قلبه يخفق بشدة، ولكن كان هناك أمر آخر يلح عليه بشدة أيضًا. كان يريد أن يمسك بمادونا ويشنقها فى منتصف المركز التجارى، ولكنها أفلتت منه بالفعل. ومع ذلك، كان يحب هذه اللعبة البسيطة التى ابتكرها. ضوء أحمر، ضوء أخضر.

وبعد مرور نصف ساعة، كان يجرب حظه فى مكان آخر أمام متجر فيكتورياز سيكريت بمركز تايسونز كورنر التجارى المجاور وهناك حاول أن يحصل على "ساعة واحدة" مع فتاة شقراء حالمة ترتدى تى شيرت رقيقا وبنطلونًا قصيرًا. ولكنه لم يكن محظوظًا هناك أيضًا، الأمر الذى جعله يشعر بغضب عارم الآن. كان بحاجة إلى الفوز، إلى الحماسة، إلى دفقة أدرينالين.

كانت الفتاة التالية التى اقترب منها ذات شعر أحمر متوهج وجميل. وكانت تتمتع بقوام رائع وساقين طويلتين. وعندما حانت لحظة عرض "الساعة الواحدة". عقدت ذراعيها النحيلين أمام صدرها. كم هى رائعة حقًا من الناحية الجسدية، ولكن مثلها من ذوات الشعر الأحمر ليست سهلة المنال. هل يشعر بصداع داخلى الآن؟ بالتأكيد نعم، ولكنه كان يحب ذلك فى المرأة.

"تبدين متزنة ومتماسكة طوال الوقت. هل تفضلين الفندق أم لديك مكانك الخاص. لك كل ما تريدينه، وكل ما ترينه صواب. الأمر كله إليك".

نظرت إليه للحظة وهى صامتة، فأدرك أنها تكون فكرة عنه وكانت عيناها تحدق إلى عينيه فى هذه اللحظة. أدرك أن هذه الفتاة تثق بغرائزها. "الأمر كله عائد إليك". هذا بالإضافة إلى أنها كانت بحاجة إلى الألف دولار، كما أنه كان يتسم أيضًا بالوسامة.

وأخيرًا قبلت الفتاة الصفقة وأخذت تحدثه بصوت خافت؛ لأنه كان من المفترض ألا يسمع أحد هذا، أليس كذلك؟، "هل المال معك؟".

أخرج لها لفة أوراق مالية فئة المائة دولار.

سألته: "هل كلها فئة المائة دولار؟".

أظهر لها أنها كلها كذلك، ثم سألها: "هل تمانعين إن سألتك عن اسمك؟".

"شيرى".

"هل هذا هو اسمك الحقيقى؟"

"مهما يكن، جيف. دعك من هذا، الوقت يجرى وساعتك قد بدأت بالفعل".

ثم خرجا معًا.

وبعد انقضاء ساعته مع شيرى، وبعد مرور ما يقرب من الساعة والنصف، لم يكن على مايكل سوليفان أن يعطيها أية نقود، لا ألف دولار ولا حتى بنس واحد. كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يظهر لها مجموعة الصور التى بحوزته والمشرط الذى لا يفارقه.

ضوء أحمر، ضوء أخضر.

يالها من لعبة!

الفصل ٣٣

بعد يومين من تركها لنا، عادت جدتى إلى المنزل مرة أخرى، ونشكر الله الذى شملنا برعايته. وقد استوعبت الأسرة كلها ـ وأنا على وجه الخصوص ـ الدرس وعلمنا جميعاً مدى حبنا لجدتى ومدى احتياجنا إليها؛ رأينا كيف كانت تقوم بالعديد من الأشياء الصغيرة من أجلنا دون أن نلاحظها أو حتى نشكرها عليها؛ وكيف أننا لا يمكننا الاستغناء عنها، ولا عن التضحيات التى تقدمها من أجلنا.

وليس ذلك، فقط لأنها تجعلنا ننسى إسهاماتها فى الظروف العادية؛ وإنما لأنها كانت أفضل حتى مما كانت تعتقد هى نفسها.

عندما دخلت المطبخ فى ذلك الصباح، ضبطت جانى وهى تأكل فطائر الكاكاو، فتركتها تأكلها بطريقتها الخاصة، ثم قالت لها ساخرة: "اسمى جانل كروس. وأنا آكل بطريقة غير لائقة".

رفعت جانى يديها فوق رأسها مستسلمة، ثم ذهبت لتفرغ بقايا الشوكولاتة فى سلة المهملات، ثم حدَّقت فى عينى جدتى وسألتها: "إذا كنت مسافرة فى حافلة تسير بسرعة الضوء، فماذا يحدث عندما تطفئين الأنوار الأمامية؟" ثم ارتمت فى أحضان جدتى قبل أن تحاول الإجابة عن السؤال الذى لا إجابة له.

توجهت إليهما وأخذت جدتى أيضًا بين أحضانى، وحرصت على أن أبقى فمى مغلقًا، ولكنى كنت متجهم الوجه.

وعندما عدت إلى البيت من العمل تلك الليلة، كانت جدتى تنتظرنى فى المطبخ. كنت أخشى من مواجهة جديدة، ولكنها ما إن رأتنى حتى فتحت إلىَّ ذراعيها لتأخذنى بين أحضانها، الأمر الذى أدهشنى كثيرًا. ثم قالت لى: "تعال إلىَّ".

وبينما أنا بين ذراعيها، تابعت: "أنا آسفة يا أليكس، لم يكن لدىَّ الحق أن أهرب وأترككم جميعًا بهذا الشكل. كنت مخطئة تمامًا. لقد افتقدتكم جميعًا بمجرد أن ركبت سيارة الأجرة مع إبراهام".

فقلت لها: "كان لديك كل الحق ــــــ"

فقاطعتنى جدتى بالقول: "لا تتجادل معى الآن يا أليكس. كف عن الكلام ولو لمرة واحدة عندما أتحدث معك".

فعلت ما قالته لى وأغلقت فمى.

الفصل ٣٤

مهمة صعبة ولكن يجب الانتهاء منها! فى صبيحة الجمعة من ذلك الأسبوع، وبعدما جاوزت الساعة التاسعة بدقائق قليلة، وجدت نفسى بمفردى تمامًا، خارج مكتب المدير رون بيرنز فى الطابق التاسع من مبنى "هوفر"، حيث مقر القيادة العليا لمكتب التحقيقات الفيدرالى.

كان مساعد المدير تونى وودز يسترق النظر خارج مكتب بيرنز الخارجى بوجهه المدور الملائكى الخادع.

"مرحبًا بك يا أليكس، لماذا تقف بعيدًا هناك؟ لماذا لا تدخل إلى هنا؟ لقد قمت بعمل رائع ذلك اليوم فى حى كنتاكى، خاصة فى ظل الظروف التى اكتنفت مهمتكم هناك. يريد المدير أن يتحدث إليك عن هذه المهمة وعن أمور أخرى يفكر بها. سمعت أن نيد ماهونى يتماثل للشفاء".

أخذت أقول لنفسى: "كانت مهمة رهيبة لقد كدت أن أُقتل فيها". وأنا أتبع وودز إلى المكتب الداخلى. أصيب نيد ماهونى فى رقبته. وكان من الممكن أن يلقى حتفه أيضًا.

كان المدير ينتظرنى هناك فى الجناح الخاص به الذى ينشد فيه راحته التامة. وثمة أمر طريف عن رون بيرنز: فعلى الرغم من الجدية الكبيرة التى يتسم بها فى عمله، فقد اعتاد على أن يجرى حواراً خفيفاً ويبتسم كثيراً مع متحدثيه قبل أن يشرع فى الحديث عن العمل والأمور المهمة. وكان ذلك ضروريًا جدًا فى واشنطن، لاسيما إذا كان عليك التعامل مع أناس متمرسين فى مجال الأعمال، ولكن بيرنز لم يكن بارعًا كثيرًا فى حواراته الخفيفة. تحدثنا معًا عن الرياضات المحلية ثم تطرقنا إلى أحوال الطقس لمدة تسعين ثانية قبل أن نتطرق إلى السبب الحقيقى لزيارتى.

سألنى بيرنز: "إذن، ماذا يدور بعقلك هذه الأيام؟ أخبرنى تونى أنك أردت مقابلتى، ولذا أرى أنك لم تأت إلى هنا لمناقشة أمور اجتماعية فحسب".

ثم أردف قائلاً: "لدىَّ أمور قليلة أود مناقشتها معك أيضًا. ثمة تكليف جديد لك: سلسلة من أحداث القتل فى جميع أنحاء ولايتى مين وفرمونت".

أطرقت برأسى وتركت بيرنز يواصل حديثه. ولكنى شعرت فجأة بالتوتر وعدم التأكد مما أريد. وأخيرًا، اضطررت إلى مقاطعته قائلاً: "لا أعلم طريقة أفضل لقول ذلك يا سيادة المدير، ولذلك سأقوله فقط: جئت لأخبرك أنى أعتزم ترك المكتب. هذا صعب جدًا علىَّ ومحرج لى أيضًا. أقدر كل ما فعلته من أجلى، ولكنى اتخذت هذا القرار من أجل أسرتى، إنه قرار نهائى لا رجعة فيه، ولن أغير رأيى أبدًا".

انفجر بيرنز: "اللعنة!" وضرب المكتب بكفه بقسوة، ثم استطرد قائلاً: "اللعنة على كل ذلك يا أليكس. لماذا تتركنا

الآن؟ لا يمكننى فهم ذلك. كنت تتقدم كثيرًا. تعلم ذلك يا أليكس، أليس كذلك؟ ولكن دعنى أخبرك بشىء، لن أدعك تفعل ذلك".

قلت له: "لا يمكنك فعل شىء لإثنائى عن ذلك. آسف حقًا. ولكنى متأكد أننى أفعل الشىء الصحيح. لقد فكرت فى هذا الأمر مئات المرات فى الأيام القليلة الماضية".

أخذ بيرنز يحدق فى عينَى، ولابد أنه رأى فيهما العزم والتصميم؛ لأنه نهض من مكتبه ثم تقدم نحوى باسطًا إلىَّ يديه.

قال لى وهو يصافحنى: "إنك بذلك ترتكب خطأ جسيمًا وتغير مهنتك بشكل سيئ للغاية، ولكنى لا أرى مجالاً لمجادلتك ومراجعتك فى قرارك. لقد سعدت كثيرًا بالعمل معك يا أليكس وتعلمت منك الكثير". بعد ذلك تحدثنا معًا لبضع دقائق، ولم أكن أرغب فى مواصلة الحديث، ثم نهضت لأغادر مكتبه.

وعندما وصلت إلى الباب، نادانى بيرنز قائلاً: "أليكس، آمل أن تسمح لى بالاتصال بك من وقت لآخر. ستسمح لى، أليس كذلك؟".

ضحكت على الرغم منى؛ لأن هذه الملحوظة تشير إلى موقف بيرنز الرافض تمامًا للوداع وقلت: "يمكنك الاتصال بى دائمًا. ولكن لماذا لا تؤجل ذلك بضعة شهور، اتفقنا؟".

أجابنى وهو يغمز بعينيه: "سأنتظر بضعة أيام على أية حال".

ضحكنا معًا، وفجأة غابت الضحكة وبدأت أتأمل حالى، لقد انتهى عملى الرائع مع مكتب التحقيقات الفيدرالى.

أيضًا، أصبحت بلا عمل الآن.

الفصل ٣٥

لم أكن أحبذ التفكير فيما مضى من حياتى والندم على أى شىء فيها، وعلى أية حال، كانت الفترة التى قضيتها فى مكتب التحقيقات الفيدرالى رائعة فى معظمها، وربما تكون ذات قيمة كبيرة على المدى البعيد. لقد تعلمت الكثير هناك، وأنجزت الكثير من المهام كإلقائى القبض على رجل المافيا الروسى المعتوه الملقب بالذئب. واستطعت فى هذه الفترة أن أكوّن صداقات مع أصدقاء رائعين مثل رئيس وحدة إنقاذ الرهائن، وربما حتى المدير نفسه؛ الأمر الذى لا يضرنى، بل قد ينفعنى يومًا ما.

مازلت غير مهيأ لهذا الشعور الرائع بالحرية وخلو البال الذى تملكنى وأنا أخرج من مبنى مكتب التحقيقات الفيدرالى ذلك الصباح، حاملاً معى صندوقًا من الكرتون يحوى جميع

متعلقاتى هناك. شعرت كأنى ألقى عن كاهلى عبئًا ثقيلاً يتجاوز المائتى رطل، وهو العبء الذى لم أكن أعرف حتى أنه موجود. لم أكن متأكدًا إذا كنت قد اتخذت القرار الصحيح، ولكنه بالتأكيد بدا كذلك.

"لا مزيد من الوحوش، سواء كانوا آدميين أم غير ذلك"، هكذا كنت أقول لنفسى.

لا مزيد من الوحوش للأبد.

انطلقت بسيارتى إلى البيت قبل الظهر بقليل وأنا أشعر بالحرية أخيرًا. تركت نوافذ السيارة مفتوحة وأخذت أسمع بوب مارلى وهو يغنى "No Woman, No Cry"، وكانت كلماته "كل شىء سيكون على ما يرام" تخرج من المذياع لتملأ أركان السيارة. أخذت أغنى طوال الطريق، ولم تكن لدىَّ خطة محددة لما أعتزم القيام به بعد ذلك، ولا حتى لما أعتزم القيام به بقية اليوم وهو ما بدا رائعًا إلى حد ما. وحقيقة ، كنت أحبذ فكرة عدم القيام بأى شىء لبعض الوقت وبدأت أعتقد أنى سأبرع فى ذلك أيضًا.

كنت بحاجة إلى القيام بأمر ما الآن وأنا فى هذه الحالة المزاجية الرائعة. توجهت إلى معرض سيارات المرسيدس ووجدت البائعة لورى برجر. قمت بجولة فى الجوار كى أجرب السيارة آر ٣٥٠، وكانت المساحة المتاحة للسائقين أكثر متعة فى الطريق السريع عنها فى المعرض. وأعجبنى فيها أيضًا سرعة اندفاعها وإمكانية ضبطها وفقًا لطبيعة المناخ، الأمر الذى سيسعد الجميع، حتى جدتى.

ولكن الأهم من كل ذلك هو أنه آن الأوان كى نترك سيارة ماريا القديمة، خاصة أنه كان لدىَّ مال وفير من دفاتر الادخار، لذا اشتريت السيارة الآر ٣٥٠، وتملكنى شعور رائع حيال ذلك.

وعندما عدت إلى البيت، وجدت ورقة من جدتى على مائدة المطبخ.

كانت موجهة لجانى وديمون، ولكنى قرأتها على أية حال.

"اخرجا وانعما بالهواء الطلق أنتما الاثنان. يوجد كعك فى الإناء. إنه لذيذ! أعدا المائدة من أجلى من فضلكما، وابدءا فى عمل فروضكما المنزلية قبل العشاء. ديمون لديه تجربة أداء غنائية الليلة. تذكر أن "تطيل نَفَسَك" "أيها الرجل الصغير". أخذت آلى أنا والعمة تيا إلى حديقة الحيوان، ونحن مستمتعون كثيرًا.

جدتكما ليست هنا، ولكنى أراقبكما على أية حال!."

لم يسعنى إلاَّ أن أبتسم؛ رعتنى هذه السيدة منذ وقت طويل، والآن ترعى أطفالى.

كنت أتمنى أن أقضى وقتًا طويلاً مع آلى، ولكن سيكون هناك وقت كاف لذلك فى المستقبل القريب. أعددت لنفسى شطيرة من اللحم وسلطة الكرنب، ولسبب ما غريب، قمت بإعداد قدر من الفيشار.

لماذا؟ ولم لا! أنا لا أحب الفيشار كثيرًا، ولكنى شعرت فجأة برغبة قوية فى تناول طعام ساخن مدهون بالزبد. أردت أن أشعر بالحرية لأكون كما أريد، لأكون غبيًا إذا أردت ذلك.

تناولت الفيشار الطازج وعزفت على البيانو لمدة ساعتين تلك الظهيرة عزفت مقطوعات لـ "ديوك إلينجتون" وجيلى رَول مورتون وآل جرين، ثم قرأت عدة فصول من كتاب "*The Shadow of The Wind*". بعد ذلك فعلت ما لم يكن متصورًا أخذتنى سِنَة من النوم فى منتصف اليوم. وقبل أن أغرق فى النوم، أخذت أفكر فى ماريا مرة أخرى، وتذكرت أفضل الأوقات التى قضيناها معًا، وشهر العسل الذى قضيناه فى "ساندى لين" بجزر باربادوس. كم كانت هذه الذكريات جميلة ورائعة، وكم أفتقدها كثيرًا حتى الآن وأتمنى أن تكون

هنا الآن لتسمع أخبارى.

لم يرن الهاتف مرة واحدة طوال الفترة الباقية من الظهيرة، ولم يعد لدىَ جهاز نداء لاسلكى وكما قالت جدتى كنت مستمتعاً بذلك.

عادت جدتى إلى البيت مع آلى، ثم تبعتهما جانى، وأخيرًا ديمون. منحنى وصولهم على مراحل الفرصة لأعرض سيارتنا الجديدة ثلاث مرات، وأحظى بإطرائهم وتصفيقهم ثلاث مرات أيضًا. يا له من يوم رائع حقًا ذلك اليوم!

وفى عشاء تلك الليلة انكببنا على الدجاجة اللذيذة التى أعدتها جدتى على الطريقة الفرنسية والتهمناها عن آخرها، واحتفظت بالأخبار الكبيرة فى نفسى إلى حين انتهاء الطعام ثم أنهينا وجبتنا بآيس كريم بنكهة اليقطين وقهوة باللبن.

كان كل من جانى وديمون يريدان أن يأكلا ويمضيا بسرعة، ولكنى طلبت من الجميع أن يبقوا على المائدة. كانت جانى تريد أن تعود إلى كتابها؛ حيث كانت تقرأ رواية "إراجوان"، وهو كتاب لا بأس به، على ما أعتقد، ولكنى لم أفهم لماذا تقرأ هذه الطفلة الكتاب نفسه ست مرات.

أدارت عينيها وهى تسألنى: "ما الخطب؟"، وكأنها تعرف الإجابة بالفعل.

قلت لها، وللجميع: "لدىَ بعض الأخبار".

نظر الأطفال إلى بعضهم البعض، وبدا العبوس على جانى وديمون وهز كل منهما رأسه للآخر. ظنوا جميعًا أنهم يعرفون ما سأقول؛ أنى أعتزم مغادرة المدينة للتحقيق فى جريمة قتل جديدة، أو ربما سلسلة من جرائم القتل وليست جريمة واحدة. وربما أغادر الليلة تمامًا كما كنت أفعل دائمًا.

علت وجهى ابتسامة عريضة وأنا أقول: "لن أذهب إلى أى مكان. بل على العكس من ذلك تمامًا، سأحضر تجربة أداء ديمون الليلة. أريد أن أسمع هذه الضوضاء الممتعة. أريد أن

أرى كيف يطيل نَفَسه هذه الأيام".

تعجب ديمون: "هل ستحضر تجربة أدائى الغنائية؟ لماذا؟ هل هناك قاتل بين مجموعة المغنيين؟".

كنت أركز بصرى نحوهم وأتنقل به من وجه لآخر. ويمكننى القول أن لا أحد منهم كان يعرف ما سيحدث بعد ذلك، ولا حتى جدتى أكثرنا براعة وذكاءً.

وأخيرًا نظرت جانى إلى آلى وقالت له: "اجعله يخبرنا بما يجرى يا آلى. اجعله يتكلم".

قال الرجل الصغير: "هيا يا أبى، أخبرنا. قبل أن تجن جانيل"، وكان مفاوضاً ماهرًا.

"حسنًا، حسنًا، حسنًا، إليكم الخبر. يؤسفنى أن أخبركم أنى بلا عمل الآن، وأننا معدمون من الناحية العملية. حسنًا، لسنا كذلك بالضبط. على أية حال، استقلت من مكتب التحقيقات الفيدرالى هذا الصباح، ولم أفعل أى شىء لبقية اليوم. والليلة، سأحضر تجربة أداء ديمون الغنائية".

أخذت جدتى تصفق بحرارة هى والأطفال الذين بدأوا يغنون: "معدمون! معدمون!".

ولكى أصدقكم القول، لقد راق لى هذا الأمر كثيرًا.

لا مزيد من الوحوش بعد الآن.

الفصل ٣٦

سار الفصل التالى من القصة على النحو التالى: كان جون سامبسون هو النجم فى قسم شرطة واشنطن هذه الأيام. فمنذ أن ترك أليكس القسم وانتقل إلى مكتب التحقيقات الفيدرالى وشهرة سامبسون فى ازدياد مستمر. ولا يعنى ذلك أن أداءه لم يكن مرتفعًا قبل ذلك، أو أن سامبسون لم يكن يحصل من قبل على قدر كبير من الاحترام لأى سبب من الأسباب؛ وإنما كل ما فى الأمر أن سامبسون لم يكن ليقوم بأية مهمة دون أليكس. ولذلك، لم يكن هذا الرجل العظيم يسعد برفقة أى أحد إلا إذا كان هذا الشخص هو أليكس نفسه، وإن كانا لا ينجحان دائمًا فى جميع عملياتهما المشتركة.

كانت قضيته الأخيرة بمثابة تحد كبير له؛ ربما لأنه كان يكره الشخص السيئ الذى كان يحاول إلقاء القبض عليه.

وكان المجرم المطلوب، ويدعى جينو جيامتى "كرة الشحم"، قد افتتح عدة ملاهى رقص ومراكز للتدليك بعيدًا فى الجنوب فى "فورت لاودرديل" و"ميامى"، بغرض استخدامها لتقديم ضروب التسلية للمنحرفين الذين يبغون المراهقات، وأحيانًا غير البالغات منهن. وكان جيامتى نفسه يعانى مما يعرف بعقدة حب المراهقات.

كان سامبسون يغمغم بصوت خافت ويردد كابو. وهو ينطلق بسيارته إلى الشارع الذى يقطنه جيامتى فى منطقة كالوراما الراقية فى واشنطن قاصدًا بهذا الاسم أحد كبار أفراد المافيا. وكان جينو جيامتى يجنى مالاً وفيرًا فى السنوات الماضية. وكان من أوائل المجرمين الذين أدركوا أن الأموال الطائلة يمكن أن تأتى من وراء استيراد الفتيات الصغيرات الجميلات من دول الاتحاد السوفيتى السابق، وخاصة روسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا. كان ذلك تخصصه، وهذا هو سبب تعقب سامبسون له الآن. وكان أسفه الوحيد أن أليكس ليس معه فى هذه المطاردة التى بدا أنها ستكون ممتعة بعض الشىء.

وبعد منتصف الليل بقليل، توقف أمام منزل جيامتى. ولم يكن هذا المجرم يعيش حياة رغدة جدًا، ولكن كل احتياجاته كانت متوفرة. وتلك هى الطريقة التى تعتنى بها المافيا بأفرادها.

أخذ سامبسون ينظر خلفه، فوقعت عيناه على سيارتين إضافيتين متوقفتين على قارعة الطريق خلفه مباشرة. بعد ذلك بدأ يتحدث فى ميكروفون مثبت فى ياقة قميصه قائلاً: "طاب مساؤكم يا سادة. أعتقد أنها ستكون ليلة رائعة، يمكننى الجزم بذلك. فلنذهب ونوقظ كرة الشحم".

الفصل ٣٧

كان رفيق سامبسون هذه الأيام محققًا فى الثامنة والعشرين من العمر يدعى ماريون هاندلر، وكان قوى البنية مثل سامبسون، ولكنه لم يكن أليكس كروس بالتأكيد كان ماريون متزوجًا فى ذلك الوقت من فتاة جميلة ولكن ضيقة التفكير وهى إحدى مشجعات فريق "واشنطن روسكينز"، وكان يتطلع إلى صنع شهرة له فى مجال التحقيق فى جرائم القتل. وقد دأب على إخبار سامبسون أنه "مقتف آثار سريع" دون أن يقصد بذلك أية دعابة، ودون أية إشارة إلى التواضع.

كان مجرد الوجود إلى جانب هذا المحقق المغرور يضايق سامبسون كثيرًا ويصيبه بالاكتئاب أيضًا. ولم يكن الرجل أحمق فقط؛ وإنما الأسوأ من ذلك أنه كان مزهوًا بذلك ويعتز بأخطائه الساذجة المتكررة.

وما إن وصلا إلى الرواق الأمامى لمنزل جيامتى حتى صاح هاندلر: " سأتولى القيادة هذه المرة". وكان هناك أربعة محققين آخرين ينتظرون بالفعل لدى الباب، بيد أحدهما مطرقة لكسر الباب. وكانوا ينظرون إلى سامبسون فى انتظار تعليماته.

توجه سامبسون إلى هاندلر بالقول: "تتولى القيادة؟ لا بأس يا ماريون. فليكن ما تريد"، ثم أضاف: "من يدخل أولاً، يموت أولاً".

بعد ذلك توجه إلى المحقق الذى يحمل المطرقة وقال له: "حطم الباب! سيدخل المحقق هاندلر أولاً".

سقط الباب الأمامى بضربتين قويتين من المطرقة، بعدها بدأ جهاز التنبيه فى إرسال أصوات التحذير ليندفع المحققون داخل المنزل.

تفقد سامبسون المطبخ المظلم بعينيه فوجده خاليًا إلا من بعض الأجهزة الجديدة المنتشرة فى كل مكان. كان هناك أيضًا مشغل موسيقى صغير وأقراص مدمجة ملقاة على أرضية المطبخ. إذن هناك أطفال فى المنزل.

قال سامبسون للباقين: "إنه بالأسفل. لم يعد جيامتى ينام مع زوجته".

أسرع المحققون بالهبوط عبر السلم الخشبى الهابط من الجانب الآخر من المطبخ. لم يمض الآن على وجودهم بالداخل أكثر من عشرين ثانية. وفى الطابق السفلى، اقتحموا أول باب قابلهم. صاح ماريون هاندلر: "شرطة المدينة! ارفع يديك عاليًا الآن يا جيامتى". نهض "كرة الشحم" بسرعة ووقف على حافة سريره الضخم. وكان رجلاً قصيرًا كبير البطن مجعد الشعر فى منتصف الأربعينيات من العمر. بدا مترنحًا وغير متزن، وربما كان مخمورًا. ومع ذلك، لم ينخدع جون سامبسون بمظهره وما بدا عليه فهذا الرجل قاتل متوحش:

ولا يتورع عن القيام بأى شىء.

كانت هناك فتاة جميلة عارية ذات شعر أشقر طويل وبشرة بيضاء لا تزال على السرير. حاولت الفتاة الصغيرة أن تستر نفسها. كان سامبسون يعرف أن اسمها بولينا سروكا، وأنها من أصول بولندية. وقد عرف سامبسون أنها ستكون هنا لما تردد من أن جيامتى واقع فى غرام فتاة شقراء استقدمها من أوروبا قبل ستة أشهر. وتقول المصادر إن كرة الشحم قد قتل أفضل صديقاتها لأنها رفضت إقامة علاقة معه.

طمأن سامبسون باولينا بالقول: "لا تخافى، فنحن من شرطة واشنطن، لست متورطة فى أية متاعب، ولكنه هو المتورط".

صرخ جيامتى فى وجه الفتاة التى بدت مرتبكة وخائفة: "أغلقى فمك فقط! لا تقولى لهم كلمة واحدة! ولا كلمة واحدة يا باولى! أحذرك!".

تحرك سامبسون بسرعة لا تتناسب مع حجمه وطرح جيامتى على الأرض وأحكم قيده مثل عجل فى سوق الماشية.

لم يكف جيامتى عن الصياح: "لا تنطقى بكلمة واحدة!"، على الرغم من أن وجهه كان ملتصقًا بالسجادة الخشنة على الأرض، ثم تابع: "لا تتحدثى إليهم يا باولى! أحذرك من ذلك! هل تسمعيننى؟".

بدت الفتاة خائفة ويائسة وهى جالسة بين أغطية السرير المبعثرة تحاول ستر نفسها بقميص رجالى أعطاه لها المحققون.

وأخيرًا تحدثت بصوت خافت أقرب إلى الهمس: "يجبرنى على فعل أى شىء يقوله. إنه يؤذينى بكل السبل. تدركون ما أقول كل ما يمكنكم تخيله. بالكاد أستطيع السير .... أنا فى الرابعة عشر من العمر".

التفت سامبسون إلى هاندلر وهو يقول: "يمكنك تولى

الأمر من هنا يا ماريون. أخرجه من هنا بحق الجحيم. لا أريد أن ألوث يدىَ بهذه القذارة".

الفصل ٣٨

بعد ساعة، كان جينو جيامتى يتعرض للضرب بقوة قبل أن يخضع للتحقيق ويتم استجوابه تحت الأضواء الساطعة فى حجرة التحقيقات رقم واحد داخل قسم شرطة المنطقة الأولى. لم يرفع سامبسون عينيه عن المجرم الأثيم، الذى دأب على عادة سيئة بحك فروة رأسه باستمرار، وبعنف شديد تكاد معه رأسه أن تدمى. ولم يبد أن جيامتى نفسه كان يلاحظ ذلك.

وكان ماريون هاندلر قد تولى زمام الأمور حتى الآن؛ حيث قام بتوجيه معظم الأسئلة التمهيدية، ولكن جيامتى لم يكن لديه الكثير ليقوله له. جلس سامبسون فى الخلف وأخذ يلاحظ الموقف وهو يثبت عينيه على كلا الرجلين.

حتى الآن، كانت الأمور تسير فى صالح جيامتى الذى كان أكثر ذكاءً مما بدا عليه. "استيقظت وكانت باولى نائمة فى

فراشى. نائمة تمامًا كما وجدتموها عندما اقتحمتم الحجرة. بأى شىء أخبركم؟ لديها حجرة النوم الخاصة بها فى الطابق الأعلى، ولكنها فتاة صغيرة كثيرة الخوف، ومجنونة أيضًا فى بعض الأحيان. تقوم باولى بالأعمال المنزلية. وخدمة زوجتى. أردنا أن ندخلها المدارس المحلية، أفضل المدارس. وكنا نجعلها تدرس اللغة الإنجليزية أولاً. لقد كنا نحاول فعل الشىء الصحيح مع تلك الفتاة، فلماذا تصعبون علىَّ الأمور؟".

وأخيرًا نهض سامبسون من مقعده بعدما سمع ما يكفى من الهراء الليلة، ثم سأل جيامتى: "هل أخبرك أحد من قبل أن بإمكانك القيام بدور كوميدى؟"، وتابع فى نفسه قائلاً: "ويمكنك أن تكون مساعده وموضع سخريته يا ماريون".

فأجابه جيامتى وهو يرسم ابتسامة متكلفة على وجهه: "فى الحقيقة نعم. قال لى شخصان الشىء نفسه. أتعلم؟ أعتقد أنهما كانا شرطيين أيضًا".

"لقد أخبرتنا باولينا بالفعل أنها رأتك وأنت تقتل صديقتها أليكس، التى كانت فى السادسة عشر من العمر عندما ماتت، أقصد عندما خنقت!".

ضرب جيامتى المائدة التى أمامه بقبضة يده وهو يقول: "هذه العاهرة الصغيرة المجنونة". إن باولى تكذب فى كل كلمة قالتها. ماذا ستفعلون؟ تهددون بإعادتها؟ ترحلونها إلى بولندا؟ هذا أكثر شىء تخاف منه".

هز سامبسون رأسه قائلاً: "لا، قلت إننا سنساعدها على البقاء فى أمريكا إذا استطعنا ذلك، وندخلها المدرسة، أفضل مدرسة. وسنفعل الشىء الصحيح معها".

"إنها تكذب، كما أنها مجنونة. أخبركم أن تلك الصغيرة الجميلة مجنونة تمامًا".

هز سامبسون رأسه ببطء ثم قال: "تكذب ؟ حسنًا، وماذا عن روبرتو جالو؟ هل يكذب أيضًا؟ لقد رآك وأنت تقتل أليكس

وتضع جثتها فى صندوق سيارتك اللينكولن. هل اخترع هذه القصة؟".

"بالطبع اخترعها. هذا كله هراء وكلام لا معنى له. وكلنا يعلم ذلك؛ أنت وأنا وبوبى جالو. أليكس؟ ومن تكون أليكس بحق الجحيم؟ صديقة باولى الخيالية؟".

هز سامبسون كتفيه العريضين قبل أن يقول: "وكيف أعرف أن قصة جالو ملفقة لا أصل لها؟".

"لأنها لم تحدث أبدًا، هكذا تعرف! لأنه ربما عقد صفقة معك".

"تقصد أنها لم تحدث بهذه الطريقة؟ وأن جالو لم يكن شاهد عيان؟ ولكن باولينا كانت شاهدة على ما حدث. هل هذا ما تقوله؟".

تجهم جيامتى وهز رأسه وهو يقول: "هل تعتقد أنى غبى أيها المحقق سامبسون؟ لست غبيًا".

بسط سامبسون كلتا يديه مشيرًا إلى حجرة التحقيقات الصغيرة شديدة الإضاءة ثم قال: "ولكنك هنا".

فكر جيامتى فيما قال لثوان قليلة، أشار بعدها إلى هاندلر وهو يقول: "أخبر هذا الصغير أن يخرج من هنا ويستمتع بالمشى بعيدًا، أريد أن أتحدث معك. أنا وأنت فقط أيها الرجل الضخم".

نظر سامبسون إلى ماريون هاندلر وأخذ يفكر ويدور بعينيه قبل أن يقول: "لماذا لا تستريح قليلاً يا ماريون؟".

لم يرق ذلك لـ "هاندلر"، ولكنه قام وغادر حجرة التحقيقات.

غمغم بكلمات غير مفهومة وهو خارج، وكأنه طالب وقح فى المدرسة الثانوية تلقى عقابًا لتوه.

لم يقل سامبسون أى شىء بمجرد وجوده مع جيامتى بمفرده، وإنما ظل يلاحظ المجرم محاولاً التعرف على ما يضمره فى نفسه. كان الرجل قاتلاً؛ ذلك كل ما يعرفه. وكان

على جيامتى أيضًا أن يدرك أنه فى مأزق الآن. وذلك لأن باولينا سروكا فى الرابعة عشر من العمر.

عاد جيامتى إلى ابتسامته المتكلفة قبل أن يسأل: "ما هذا الصمت الشديد؟ هل هذا هو أسلوبك أيها الرجل الضخم؟".

لم ينطق سامبسون بكلمة واحدة. واستمر على هذا الحال لعدة دقائق.

مال عليه جيامتى أخيرًا وتحدث إليه بصوت هادئ وجاد قائلاً: "اسمع، تعرف أن هذا هراء، أليس كذلك؟ ليس هناك أداة جريمة ولا جثة. لم أقتل أية فتاة بولندية صغيرة تدعى أليكس. كما أن باولا مجنونة. صدقنى فى ذلك. إنها صغيرة فى السن، ولكنها ليست مجرد فتاة صغيرة. لقد كانت عاهرة فى بلدها القديمة. هل تعرف عن ذلك شيئًا؟".

تكلم سامبسون أخيرًا: "إليك ما أعرفه، وما أستطيع إثباته، لقد كنت تضاجع فتاة فى الرابعة عشر فى منزلك".

هز جيامتى رأسه وهو يقول: "إنها ليست فى الرابعة عشر، إنها عاهرة صغيرة. على أية حال، لدى شىء ما لك، ولنعتبرها صفقة. إنه بخصوص أحد أصدقائك؛ أليكس كروس. هل تسمعنى أيها المحقق؟ فلتسمع هذا. أعرف من قتل زوجته، وأعرف أين هو الآن أيضًا".

الفصل ٣٩

خرج جون سامبسون من سيارته ببطء وسار عبر الممشى القصير المألوف، ومنه إلى السلالم الأمامية لمنزل أسرة كروس فى الشارع الخامس.

تردد قبل أن يطرق الباب، وحاول جمع أفكاره لتهدئة نفسه قدر المستطاع. لن يكون الأمر هينًا، ولا أحد يعرف ذلك أكثر منه. وكان سامبسون يعرف أمورًا عن مقتل ماريا كروس لا يعرفها كروس نفسه.

وأخيرًا، وصل إلى الباب وضغط على الجرس. وعلى الرغم من أنه فعل هذا آلاف المرات فى حياته من قبل، ولكنه لم يشعر أبدًا بما يشعر به الآن.

لن تسفر هذه الزيارة عن أية فائدة على الإطلاق. بل قد تنهى صداقة طويلة.

وبعد لحظة، أدهش سامبسون كثيرًا أن الجدة هى التى أتت لتفتح الباب. وكانت العجوز ترتدى رداءً أزرق أنيقًا وبدت أكثر نحافة من المعتاد، مثل طائر قديم مقدس. فى هذا البيت، كانت مقدسة بالتأكيد، حتى هو كان يقدسها ويبجلها كثيرًا.

"ما الخطب الآن يا جون؟ ما الأمر؟ أنا خائفة من مجرد سؤالك. حسنًا، ادخل، ادخل حتى لا تخيف الجيران".

علق سامبسون وهو يحاول الابتسام: "إنهم خائفون بالفعل يا جدتى. إنه الجنوب الشرقى، أتذكرين؟".

"لا تحاول السخرية من ذلك يا جون. هل تجرؤ على ذلك؟ ما الذى أتى بك إلى هنا؟".

شعر سامبسون فجأة كأنه مراهق مرة أخرى، وهو يرى إحدى نظرات الجدة الغاضبة. وكان هناك شىء بغيض مألوف فى هذا المشهد؛ حيث ذكره بالمرة التى ضبط فيها هو و أليكس وهما يسرقان المسجلات من متجر "جريدى" وهما فى المرحلة الإعدادية. أو ربما بالمرة التى ضبطهما فيها وكيل مدرسة جون كارول الثانوية وهما يدخنان السجائر خلف المدرسة، ثم اضطرت الجدة إلى المجىء لإطلاق سراحهما.

قال سامبسون: "علىَّ التحدث مع أليكس، الأمر مهم يا جدتى نحتاج إلى إيقاظه".

ضربت الأرض بإحدى قدميها وهى تسأله: "ولماذا ذلك؟ إنها الثالثة والربع صباحًا، لم يعد أليكس يعمل لدى قسم شرطة واشنطن. لماذا لا يتركه الجميع وشأنه؟ وخاصة أنت من بين جميع الناس يا جون سامبسون. تعلم جيدًا أنه لا يفترض أن تأتى إلى هنا الآن، فى منتصف الليل، لتطلب مساعدته مرة أخرى".

لم يسبق لـ "سامبسون" أن تجادل مع الجدة ولكنه فعل ذلك هذه المرة.

"أخشى أن الأمر لا يحتمل الانتظار يا جدتى. كما أننى لا أحتاج إلى مساعدة أليكس هذه المرة، بل هو الذى يحتاج إلى مساعدتى".

بعد ذلك تجاوز سامبسون الجدة ودخل منزل كروس دون أن يؤذن له.

الفصل ٤٠

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا تقريبًا عندما انطلقت مع سامبسون فى سيارته إلى مخفر الشرطة بالمنطقة الأولى. كنت مستيقظًا تمامًا ومتحفزًا أيضًا. شعرت وكأن جهازى العصبى يضطرب بشدة.

قاتل ماريا؟ بعد كل هذه السنوات؟ هل هناك ثمة احتمال ولو ضعيف أنه قد يلقى القبض على قاتل ماريا بعد عشر سنوات من مقتلها؟ بدا الأمر برمته غير حقيقى بالنسبة لى. فوقتها كنت قد أوليت هذه القضية كل اهتمامى لعام كامل، ولكنى لم أيأس أبدًا من المطاردة بشكل كامل، والآن قد نجد القاتل فجأة؟ هل هذا ممكن؟

وصلنا إلى مخفر الشرطة. فى الشارع الرابع وأسرعنا إلى الداخل، دون أن يتحدث أى منا. وكان المخفر يبدو فى أثناء

دوام الليل كأنه حجرة طوارئ؛ لا تعلم أبدًا ماذا تتوقع عندما تخطو داخله. هذه المرة، لم يكن لدىَ دليل، ولكنى لم أستطع الانتظار لأتحدث إلى جيامتى.

بدا كل شىء هادئا على غير العادة عندما دخلنا من الباب الأمامى ولكن ذلك تغير فى غمضة عين. كان واضحًا لى ولـ "سامبسون" أن خطباً ما حدث عندما هبطنا إلى زنازين الاحتجاز. وكان هناك ستة أشخاص ما بين محققين ورجال شرطة يحيطون المكان، وبدا عليهم الحذر والقلق الشديدين هذا الصباح، مما يؤكد وقوع أمر ما.

وما إن رآنا رفيق سامبسون، ماريون هاندلر، حتى أسرع باتجاه جون متجاهلاً إياى تمامًا، وحسنًا فعلت عندما لم أعره اهتمامى أيضًا. لقد سبق أن تحدثت معه مرتين من قبل، وعلمت من خلا لهما أن هذا المحقق كان مغرورًا. تعجبت كثيرًا من تحمل جون له واستمراره معه بهذا الشكل.

ربما رأى فى هاندلر شيئًا ما لم أره فيه، أو ربما أصبح سامبسون أكثر مرونة ولطفاً.

قال لـ "سامبسون": "لن تصدق هذا الهراء. لقد حدث ما لم يكن متوقعًا، وصل أحدهم إلى جيامتى. لقد نصحتك ألا تفعل يا سامبسون. ها هو ميت هناك فى زنزانته. لقد وصل إليه أحدهم هنا".

كنت أشعر أننى فاقد الحس ومخدر طوال الوقت بينما هاندلر يقودنا إلى آخر زنزانة احتجاز فى هذا الصف . لم أستطع أن أصدق ما سمعته لتوى. فى البداية، أمسكنا خيطًا يقودنا إلى مكان قاتل ماريا، ثم يُقتَل الرجل الذى أعطانا هذا الخيط؟ وهنا؟

قال هاندلر لسامبسون: "لقد وضعناه فى حجرة خاصة. كيف تمكنوا من الوصول إليه هنا؟ تحت مرأى ومسمع منا؟".

تجاهلت أنا وسامبسون السؤال بينما كنا ندخل آخر زنزانة عن اليمين كان هناك اثنان من المحققين يرفعان الأدلة من حول الجثة، ولكنى تمكنت من رؤية كل ما أحتاج إليه. رأيت معول ثلج مغروس فى أنف جينو جيامتى. وبدا أن معول الثلج نفسه كان قد استخدم لفقء عينيه أولاً.

قال لى سامبسون بصوت خافت وعميق: "لا عجب فى ذلك. لابد أنها المافيا".

الفصل ٤١

عندما وصلت إلى البيت فى وقت متأخر من ذلك الصباح، علمت أنى لن أتمكن من النوم جيدًا. إذن ما الجديد فى ذلك؟ ذهب الأطفال إلى المدرسة، وجدتى خارج البيت؛ أى أن المنزل كان هادئًا كالقبر.

كانت جدتى قد علقت خبرًا آخر من "الأخطاء" الصحفية الساذجة التى تعجبها على الثلاجة يقول: "محكمة أحداث لمحاكمة ضحية قتل بالرصاص". صحيح أن الخبر طريف، ولكنى لم أكن فى حالة تسمح لى بالابتسام، حتى لو كان ذلك على حساب الصحفيين. أخذت أعزف على البيانو فى الحجرة الشمسية وشربت كوبًا من العصير، ولكن لم يتغير شىء.

كنت أرى وجه ماريا وأسمع صوتها داخل رأسى. تساءلت، لماذا عندما نبدأ فى النسيان، نبدأ أحيانًا فى تذكر الناس الذين

افتقدناهم بكل هذا الوضوح؟ عاد كل شىء عن ماريا، وعن وقتنا معًا يستيقظ بداخلى مرة أخرى.

وفجأة، وفى حوالى العاشرة وعشر دقائق، صعدت إلى حجرتى بالطابق العلوى، ولطالما مرت علىَّ أيام وليال عديدة أفعل فيها الشىء نفسه؛ أتوجه إلى فراشى بالطابق العلوى وأنام وحيدًا هناك. لماذا كان كل ذلك؟

رقدت على السرير وأغمضت عينىَ، ولكنى لم أكن أتوقع أن يأتينى النوم، وإنما كنت أريد أن أحصل على قسط من الراحة فقط. ظللت أفكر فى ماريا منذ أن غادرت مخفر الشرطة فى الشارع الرابع، وكانت بعض الصور التى رأيتها تصورنى أنا وماريا حينما كان الأطفال لا يزالون صغارًا الذكريات السعيدة والحزينة أيضًا، وليس فقط ذكريات انتقائية عن أوقاتنا الحميمية.

توترت أعصابى كثيرًا وأنا راقد فى فراشى أفكر فيها، وأخيرًا أدركت شيئًا مفيدًا عن الحاضر وهو أنى كنت أريد أن أكسب حياتى معنى مرة أخرى. وأن تعود إلى بساطتها، أليس ذلك صحيحًا؟ ولكن هل لا يزال ذلك ممكنًا؟ وهل يمكننى فعل ذلك حقًا؟

حسنًا، ربما. كان هناك شخص ما. شخص أهتم به بدرجة كافية لإحداث بعض التغييرات. أم ترانى أخدع نفسى مرة أخرى؟ وأخيرًا غفوت فى نوم متقطع غير مريح، نوم بلا أحلام، وهو ما كان جيدًا قياسًا بهذه الأيام.

الفصل ٤٢

كل ما كان علىّ فعله هو أن أواصل الحياة، أليس كذلك؟ وأن أحدث بعض التغييرات الذكية فى حياتى. لقد قمت بالفعل بالتخلص من سيارة ماريا القديمة واستبدالها بسيارة آل كروس الكبيرة. ما الصعوبة إذن فى إجراء بعض التغيرات الأخرى؟ ولماذا لا أزال أفشل فى هذا؟

"أليكس لديه موعد مهم"، أخذت أردد ذلك فى نفسى مرات عديدة خلال الجمعة التالية. ولهذا السبب اخترت مطعم نيوهايتس فى شارع كالفرت هناك فى وودلى بارك. وكان نيوهايتس مكانًا مناسبًا ورائعًا لموعد مهم. كانت الدكتورة كايلا كولز تقابلنى هناك بعد انتهاء عملها مبكرًا، حسب رأيها على أية حال فى التاسعة.

أبقيت مقعدًا إضافيًا عند المائدة المخصصة لنا خشية أن يأخذوه بعيدًا فى حال تأخرت كايلا وهو ما فعلته؛ حيث أتت بعد ربع ساعة تقريبًا.

لم يهمنى أنها تأخرت، كنت سعيدًا فقط لرؤيتها. وكانت كايلا امرأة جميلة ذات ابتسامة مشرقة، ولكن الأهم من ذلك أنى كنت أحب قضاء الوقت معها. وبدا أن كلينا لديه دائمًا ما يتحدث عنه مع الآخر. وذلك على العكس تمامًا من كثير من الأزواج الذين أعرفهم.

قلت لها: " يا إلهى"، ثم غمزت لها بعينى عندما رأيتها تمر عبر حجرة الطعام. كانت ترتدى حذاءً لا كعب له، ربما لأن طولها خمسة أقدام دون الحذاء، أو ربما فقط لأنها عاقلة ولا تستطيع تحمل متاعب الحذاء ذى الكعب المرتفع.

"بل أنت من يستحق الإشادة! فأنت تبدو أنيقًا ووسيما أيضًا يا أليكس. المنظر بديع، أحب هذا المكان".

طلبت الجلوس بجوار صف النوافذ المطلة على روك كريك بارك، وكان ذلك بغرض إثارة إعجابها، يجب الاعتراف بذلك. والأمر نفسه ينطبق على كايلا، التى كانت ترتدى سترة بيضاء من الحرير، ومن تحتها كانت ترتدى قميصاً باللون البيج، وبنطلونًا أسود طويلاً، ووشاحًا ذهبيًا جميلاً مربوطًا حول خصرها، ويتدلى بأناقة من الجانب.

طلبنا كوبين من العصير، ثم أتبعناهما بوجبة دسمة، تتكون من فطيرة جبن الماعز والفول تقاسمناها معًا، بالإضافة إلى اللحم المتبل وحلوى الشوكولاته. كان كل شيء فى مطعم نيوهايتس رائعًا بالنسبة لنا؛ أشجار الكرز خارج المطعم، وأزهارها المتناثرة فى الخريف؛ والرسوم المحلية الجميلة على الجدران؛ وروائح الأكلات الشهية. الشمر والثوم المشوى التى تملأ حجرة الطعام؛ وأضواء الشموع التى تزين كل أرجاء المطعم. ومع ذلك، كانت عيناى مثبتتين على كايلا معظم

الوقت، وبالتحديد على عينيها البنيتين العميقتين اللتين تتسمان بالجمال والذكاء معًا.

بعد العشاء، تحدثنا معًا ونحن نسير عبر جسر دوق إلنتجتون المؤدى إلى تقاطع طريقى أدامز مورجان وكولومبيا. توقفنا عند أحد المتاجر المفضلة لدىّ فى واشنطن، وهو متجر كروكد بين ريكوردز، واشتريت لها بضع اسطوانات لـ "أليكس شيلتون" وكولترين من نيل بكتون، أحد مالكى المتجر وصديق قديم كان يكتب فى صحيفة البوست. أنهينا جولتنا بالذهاب إلى كابانى فيلدج، على بعد خطوات فقط من الشارع. وهناك تناولنا مشروبًا وشاهدنا ورشة عمل مسرحية طيلة الساعة التالية.

أمسك كل منا يد الآخر وتجاذبنا أطراف الحديث فى طريق عودتنا إلى سيارتى . ثم قبلتنى كايلا على خدى.

لم أعرف كيف أتصرف حيال ذلك. قالت لى: "شكرًا لك على هذه الليلة. كانت رائعة يا أليكس، مثلك تمامًا".

فقلت: "كانت جميلة، أليس كذلك؟"، وأنا لا أزال مضطربًا من قبلتها الأخوية.

ابتسمت وهى تقول: "لم أرك مرتاحاً بهذا الشكل من قبل".

وأعتقد أن هذا كان أفضل شىء يمكنها قوله، وأنسب شىء يخرجنى نوعًا ما من تأثير القبلة على الخد نوعًا ما.

بعد ذلك قبلتنى كايلا فى فمى، ورددت لها القبلة بقبلة أخرى. وكان ذلك أفضل بكثير، وكذلك كانت بقية الليلة فى شقتها فى كابيتول هيل. ولساعات قليلة، شعرت أن حياتى بدأت تكتسب معنى مرة أخرى.

الفصل ٤٣

كان الجزار يرى دائمًا أن الناس يبالغون فى تقديرهم لمدينة البندقية الإيطالية.

ولكن الآن، وفى ظل التدافع الرهيب للسياح، وبصفة خاصة الأمريكان السذج المتعجرفين، يمكن لأى شخص ذى عقل ولو بسيطًا أن يوافقه الرأى. أو قد لا يوافقونه، نظرًا لأن معظم الناس الذين عرفهم كانوا فى حقيقة الأمر بلهاء ومعتوهين تمامًا. لقد عرف ذلك وهو فى الخامسة عشر من العمر عندما خرج إلى شوارع بروكلين، وبعد ما هرب من البيت للمرة الثالثة أو الرابعة وهو فى سن المراهقة، وعرفه أيضًا وهو شاب بائس، ضحية للظروف، أو ربما مختل عقلياً وعدوانى بطبيعته.

وصل الجزار إلى مشارف البندقية بسيارته التى أوقفها فى بياتزالى روما قبل أن يسرع ليلحق بقارب أجرة ليبلغه وجهته.

كان يرى الإثارة، أو ربما الوقار الخاص البندقية، فى جميع الوجوه التى مرت به تقريبًا. يا لهم من حمقى وبلهاء. لا أحد منهم يستمتع بفكرة مبتكرة أبدًا أو يخْلُص إلى نتيجة ما دون الاستعانة بكتيب إرشادى عقيم. ومع ذلك، كان عليه الإقرار بأن مجموعة الفيلات القديمة التى تغوص ببطء فى المياه يمكن أن تأخذ الأنظار إلى الإضاءة المناسبة، لا سيما إذا نظر إليها من مسافة بعيدة.

وما إن اعتلى متن القارب الأجرة حتى توقف عن التفكير فى أى شىء إلاَّ فى المهمة التى جاء من أجلها مارتين ومارسيا هاريس.

هكذا اعتقد جيرانهم وأصدقاؤهم فى "ماديسون" ويسكونسين الذين لم يشكوا فى أى شىء. لم يكن الجزار يكترث بحقيقة هوية الزوجين رغم أنه كان يعرفها بالفعل، ولكن الأهم بالنسبة له كان المائة ألف دولار التى أودعت بالفعل فى رصيده فى سويسرا، بالإضافة إلى نفقاته ليومين فقط من العمل. وكان سوليفان يعتبر أحد أكثر القتلة المأجورين نجاحًا فى العالم. كان يحصل على كل ما يدفع من أجله عدا ما يدفعه فى مطاعم لوس أنجلوس، وقد تفاجأ قليلاً عندما استأجره جون ماجيونى، ولكن كان من الجيد ألاَّ يتوقف عن العمل.

توقف القارب الأجرة فى مرفأ ريو دى سان مويزى، خارج القناة الكبيرة، ليشق سوليفان طريقه عبر المحلات الضيقة والمتاحف متوجهًا إلى ميدان سانت مارك. وفى أثناء ذلك، كان على اتصال لاسلكى مع أحد الأشخاص يراقب تحركات الهدف، وقد علم منه أن آل هاريس يتجولان حول الميدان وهما يستمتعان بالمناظر الجميلة. كان ذلك فى حوالى الحادية عشر مساءً، وكان يتساءل عن خطوتهم التالية. هل سيذهبان إلى أحد النوادى ليقضيا فيه بعض الوقت؟ أم سيتناولان العشاء فى وقت متأخر من الليل فى معطم سيبريانى؟ أم سيتوجهان

إلى مقهى هارى لتناول بعض المشروبات؟

ثم رأى الزوج يرتدى سترة من الصوف؛ والزوجة ترتدى معطفا كشميريا وتحمل معها رواية جون برندت الشهيرة "*City of Falling Angels*".

أخذ يتبعهما وهو يختبئ وسط زحام الحشود التى تحتفل بأصوات صاخبة. وكان سوليفان قد رأى أنه من الأفضل له أن يرتدى ملابس عادية سروالاً قصيرًا باللون الكحلى وقميصًا قطنيًا فضفاضًا وقبعة مطر ذات طرف عريض. ولم يكن خلع البنطلون والقميص والقبعة ليستغرق أكثر من ثوان معدودة. وكان يرتدى تحت هذه الملابس بذلة بنية من الصوف الخشن وقميصًا ورابطة عنق بالإضافة إلى قلنسوة. وبهذا، يتقمص شخصية الأستاذ الجامعى؛ إحدى الشخصيات التى يفضل التنكر بها عند سفره إلى أوروبا لتنفيذ مهمة ما.

لم يبتعد آل هاريس عن ميدان سانت مارك، وإنما عادا أدراجهما إلى شارع كالى ١٣ مارتيرى. وكان سوليفان يعرف مسبقًا أنهما ينزلان فى فندق بوير، ولذلك أيقن أنهما فى طريقهما للفندق الآن. غمغم فى نفسه: "أنتما بذلك تسهلان الأمر علىَ كثيرًا".

ثم قال لنفسه، هذا خطأ.

الفصل ٤٤

أخذ يتبع مارتين ومارسيا هاريس وهما يسيران متشابكى الذراعين فى زقاق معتم وضيق كسائر أزقة البندقية. دخلا بالفعل إلى فندق بوير. تساءل سوليفان لماذا أراد جون ماجيونى لهذين الزوجين أن يموتا، ولكنه لم يهتم كثيرًا بهذا الأمر.

وبعد لحظات، كان جالسًا فى ردهة الفندق مواجهاً للمشرب حيث يجلسان. وكان الموقع جميلاً جدًا؛ حيث كان يطل على قناة تشيستاديلا سالوت. طلب الجزار شرابًا ولكنه لم يشرب منه أكثر من رشفة أو رشفتين، ما يكفى فقط لمتابعة تطور الأحداث. وكان يتحسس المشرط الذى يحتفظ به فى جيبه وهو يراقب آل هاريس.

كانا مثل طائرين متيمين، فلم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير وهما يتبادلان قبلة طويلة عند المشرب. وأخذ

يقول لنفسه: "احصلا لنفسيكما على حجرة، لماذا لا تفعلان ذلك؟".

وكما لو كان يقرأ أفكار الجزار، سارع مارتين هاريس بدفع فاتورة الشراب، ليغادر الزوجان الردهة المزدحمة، ثم تبعهما سوليفان. وكان فندق البوير، كغيره من فنادق البندقية، يشبه المنزل الخاص أكثر منه فندقًا؛ حيث كان يعج بمظاهر البذخ والرفاهية فى كل أنحائه. وكانت زوجته كايتلين ستحبه كثيرًا، ولكنه لم يكن ليصطحبها إلى هنا أبدًا، أو يعود هو نفسه إلى هنا مرة أخرى.

لم يكن ليعود بعد الليلة التى ستشهد مأساة رهيبة فى غضون دقائق. لأن ذلك كان تخصص الجزار المآسى، وخاصة الرهيبة منها.

كان يعلم جيدًا أن البوير يحتوى على سبع وتسعين حجرة ضيوف وثمانية عشر جناحًا، وأن آل هاريس كانا ينزلان فى أحد الأجنحة بالطابق الثالث. تبعهما على السلالم المفروشة بالسجاد وهو يعتقد أن هناك خطأ ما.

ولكن خطأ من - خطئى أم خطؤهما؟ سؤال مهم يجب أخذه فى الاعتبار وإعداد إجابة له.

وما إن انتهى من صعود السلم حتى وجد الأمر برمته قد تحول إلى خطأ كبير فى غمضة عين!

كان الزوجان هاريس ينتظرانه وكلاهما شاهر سلاحه، وقد علت وجه مارتين ابتسامة متكلفة. وأغلب الظن إنهما كانا يعتزمان أخذه إلى حجرتهما وقتله هناك. بدا واضحًا أنه سقط فريسة سهلة... على يد اثنين من المحترفين.

إذن لم تكن مهمة سهلة. بات هذا شبه مؤكد.

ولكن من فعل هذا به؟ من هذا الذى أرسله ليموت فى البندقية؟ والأهم من ذلك لماذا يتم استهدافه؟ ولماذا هو؟ ولماذا الآن؟

لم يكن يفكر فى أى من هذه الأسئلة الآن وهو فى الرواق المعتم لفندق البوير، وهناك بندقيتان مصوبتان نحوه.

ولحسن حظه، وقع الزوجان هاريس فى عدة أخطاء طوال مراقبته لهما: فقد سهلا اتباعه لهما؛ وبديا غير مباليين أو منتبهين؛ وكان يبالغان فى رومانسيتهما، على الأقل فى رأيه المتواضع، التى لا تتناسب مع زوجين يبلغ عمر زواجهما عشرين عاماً، حتى لو كانا فى إجازة فى البندقية.

لذا، صعد الجزار السلم شاهرًا مسدسه وأطلق النار فى اللحظة نفسها التى رأى فيها بندقيتهما.

دون أى تردد، ولو لنصف ثانية.

يا له من داهية هذا الخنزير الحقير، أصاب الرجل أولاً، العدو الأخطر فى تقديره. أصاب مارتين هاريس فى وجهه ليطيح بأذنه وشفته العليا. إصابة قاتلة بالتأكيد. تهشمت رأس الرجل وتناثر معها شعره الأشقر المستعار.

ثم مال سوليفان بجسمه وهو يستدير ناحية اليسار لتخطئه طلقة مارسيا هاريس بقدم أو أكثر.

ثم عاود إطلاق النار ليصيب مارسيا فى جانب حلقها؛ ثم أتبعها بطلقة ثانية اخترقت صدرها الممتلئ، وثالثة إلى قلبها مباشرة.

أيقن الجزار أن الزوجين هاريس قد ماتا فى الرواق، وها هما يرقدان هناك جثتين هامدتين، ولكنه مع ذلك لم يبادر إلى مغادرة الفندق.

وبدلاً من ذلك، مسح مشرطه وراح يُعمله فى وجهيهما وحلقيهما. ولو كان لديه الوقت الكافى لكان قد اقتلع أعينهما وقطع فميهما أيضًا ليبعث برسالة إلى من أرسلهما. بعد ذلك، أخذ بعض الصور للضحيتين، الذين كانا من المفترض أن يقوما باغتياله، ليضيفهما إلى مجموعة صوره المميزة.

وقريبًا سيأتى اليوم الذى يظهر فيه الجزار هذه الصور ويعرضها للشخص الذى دفع لهما ليقتلاه وفشل فى ذلك، والذى أصبح من الآن فى عداد الأموات.

ولم يكن ذلك الرجل إلاً جون ماجيونى، الرجل الكبير نفسه.

الفصل ٤٥

كان من عادة مايكل سوليفان أن يفكر فى الأشياء مرات عديدة، فى كل الأشياء وليس فقط فى عمليات القتل التى يقوم بها. وكانت هذه العادة المستمرة معه طوال حياته تشمل أشياءً خاصة بأسرته، بما فى ذلك التفاصيل الدقيقة مثل كيف وأين كانوا يعيشون، ومن يعرف هذا. كما شملت أيضًا صورًا من جزارة أبيه فى الماضى: ظلة ذات خطوط عريضة مطلية بألوان البرتقالى والأبيض والأخضر التى تمثل العلم الأيرلندى؛ البياض الناصع للمحل من الداخل؛ مفرمة اللحم الكهربائية ذات الصوت المرتفع التى بدا أنها تهز المبنى بأكمله كلما تم تشغيلها.

لقد اختار لهذه الحياة الجديدة التى يعيشها الآن، بعيدًا ن بروكلين، أن تكون رغدة وهينة، ولذا انتقل للعيش فى مونتجومرى كاونتى فى ميريلاند.

وتحديدًا، وقع اختياره على مدينة بوتوماك.

وفى حوالى الثالثة من ظهر اليوم الذى عاد فيه من أوروبا، انطلق بسيارته بسرعة خمسة وعشرين ميلاً كاملاً فى الساعة عبر قرية بوتوماك، وهو يحرص، فى أثناء ذلك، على التوقف مثل أى مواطن صالح آخر عند إشارات المرور الطويلة المزعجة عند التقاء طريقى ريفر وفولز.

وكان ذلك يتيح له المزيد من الوقت ليفكر ويستغرق فى أفكاره، الأمر الذى كان يستمتع به عادة.

إذن، من الذى يسعى إلى قتله والتخلص منه؟ أتراه ماجيونى؟ وماذا يعنى هذا له ولأسرته؟ هل أصبح آمنًا بعودته إلى وطنه الآن؟

ومن بين الأساليب العامة للظهور" أو "التنكر" التى اختارها الجزار بعناية فائقة من أجل أسرته أنه حرص على أن يجمع فى نمط حياته بين البرجوازية والبوهيمية. ومنحته هذه التناقضات فى اختياره لنمط الحياة الكثير من وسائل المتعة الدائمة: الزبد منزوع الدسم، على سبيل المثال، وتشغيل محطة الإذاعة القومية العامة بصفة دائمة على مذياع زوجته الحديث؛ الأطعمة الغريبة مثل فطائر عشب القمح بالزيتون. وكان ذلك بمثابة ضرب من المرح السخيف بالنسبة للجزار: متع وملذات الحياة التى لا تنتهى.

التحق أولاده الثلاثة بمدرسة "لاندور" الخاصة، لينشأوا مع أطفال مهذبين فى معظمهم، ولكنهم فى الغالب مراوغون ومخادعون أيضًا، مثل أطفال الطبقة متوسطة الثراء. وكان هناك الكثير من الأطباء الأثرياء، فى مونتجومرى كاونتى، الذين يعملون فى معاهد الصحة القومية، وإدارة الأغذية

والأدوية، والإدارة الطبية للقوات البحرية فى مدينة بتزدا. ولذلك، انطلق الآن إلى هانت كاونتى، تلك المقاطعة الراقية التى يعيش فيها، وظل يردد بصوت عالٍ: "هانت كونتى، حيث تعيش أسرة الصياد".

وأخيرًا وصل إلى بيته الجميل الذى اشتراه عام ٢٠٠٢ بمليون ونصف المليون من الدولارات. وكان المنزل يتكون من ست حجرات نوم كبيرة، وأربعة حمامات، وحمام سباحة بمياه ساخنة، وساونا، بالإضافة إلى دور سفلى يحتوى على حجرة مخصصة لوسائل الإعلام. وكان جهاز اللاسلكى المتصل بالقمر الصناعى هو آخر الأشياء التى شغفت بها كايتلين وأولاده. كايتلين الجميلة، حب حياته المستقيمة، التى تستعين الآن بمدرب حياة ومعالج بالحدس وكلاهما يتقاضى أجره من أنشطته المريبة التى تتضمن القتل فى معظمها.

واصل سوليفان طريقه إلى منزله، وهناك استقبلته أسرته وحيته عند الحديقة الأمامية وهم يلوحون بايديهم ابتهاجًا بقدومه ظنًا منهم أنهم أسرة سعيدة. لم تكن لديهم أية فكرة، ولا أى دليل على أنهم جزء من تخَفِّيه، وأنهم مجرد غطاء وستار يخفى وراءه حقيقته. كان ذلك كل ما تمثله له أسرته، أليس كذلك؟

قفز من سيارته الكاديلاك، وهو يبتسم كأنه رجل الوجبات السريعة، وغنى لهم أغنيته المفضلة، أغنية فريق شيب آند ذا لايم لايتس "لقد عاد أبى للمنزل". "لقد عاد أبوكم للمنزل ليبقى". وأخذت كايتلين والأطفال يرددون فى صوت واحد: "هو ليس بعيدًا عنا الآن".

كانت حياته فى أفضل حالاتها، أليس كذلك؟ إلا أن شخصًا ما يحاول قتله الآن. وبطبيعة الحال، كان ماضيه ينغص عليه حياته دائمًا؛ الطريقة التى نشأ بها فى بروكلين، أبوه المجنون، الحجرة المخيفة فى آخر المحل. ولكن الجزار حاول ألا يفكر فى

أى من ذلك الآن.

لقد عاد إلى بيته مجددًا؛ لقد فعلها ونجا بنفسه. انحنى انحناءة لطيفة وكبيرة أمام أسرته، التى ابتهجت، بالطبع، ببطلها العائد.

أجل، هكذا كان، بطلاً.

الجزء الثالث

العلاج

الفصل ٤٦

"أليكس! مرحبًا، أنت! كيف حالك؟ لم أرك منذ وقت طويل أيها الرجل الكبير. تبدو بخير حال!".

لوحت بيدى باتجاه امرأة صغيرة الجسم أنيقة وجميلة تدعى مالينا فريمان ثم واصلت الجرى. وكانت مالينا معروفة فى الحى لكثرة بقائها فيه، مثلى نوعًا ما. وكانت فى مثل عمرى تقريبًا وكانت تملك منفذ بيع الجرائد حيث اعتدنا على إنفاق أموالنا على الحلوى والصودا عندما كنا صغارًا، وقد شاع فى الحى أنها كانت معجبة بى. وما المشكلة، لقد كنت معجباً بها أنا أيضًا، كنت معجباً بها دائمًا.

أخذتنى قدماى المسرعتان شمالاً فى الشارع الخامس كأنهما تعرفان الطريق. واصلت الجرى حتى نهاية الحى باتجاه ميدان "سيوراد"، ثم عرجت يمينًا وأخذت الطريق

الطويل. لم أفعل ذلك لأسباب منطقية. ولكنى فعلته على أية حال.

كانت الأنباء عن قاتل ماريا هى الشىء الوحيد الذى يقيدنى هذه الأيام. فكنت أتجنب الاقتراب من المبنى الذى قتلت عنده، وكنت فى الوقت نفسه أسعى جاهدًا إلى تذكر ماريا كما عرفتها، وليس كما فقدتها. وكنت أيضًا أقضى بعض الوقت كل يوم فى محاولة تعقب قاتلها الذى بت أعتقد الآن أنه لا يزال حرًا طليقًا فى مكان ما.

عرجت يمينًا إلى شارع السابع، ثم توجهت إلى المركز التجارى الوطنى، وأنا أزيد من سرعتى قليلاً. وعندما وصلت إلى المبنى الذى يضم مكتبى الجديد. استجمعت ما تبقى لدىّ من طاقة لأصعد الأربعة طوابق بسرعة كبيرة؛ مرتقيًا درجتين فى المرة الواحدة.

كان مكتبى الجديد فى شقة صغيرة تتكون من حجرة كبيرة بحمام صغير ومطبخ صغير فى الجانب. وكانت الشقة تنعم بقدر كبير من الإضاءة الطبيعية التى تدخلها عبر شبه دائرة من النوافذ فى الزاوية البرجية.

وهناك وضعت مقعدين مريحين وأريكة صغيرة لجلسات العلاج.

لقد كان مجرد وجودى هنا يشعرنى بقدر كبير من الإثارة. شمرت عن ساعدى وكنت مستعدًا لأرى الحالة الأولى.

كانت هناك ثلاث كومات من الملفات تنتظرنى على مكتبى؛ اثنتان من مكتب التحقيقات والثالثة أرسلت إلى من قسم شرطة واشنطن، وكانت معظم الملفات خاصة باستشارات الوظائف الممكنة. بعض الجرائم المطلوب حلها؟ جثة عرضية؟ أعتقد أن ذلك كان واقعيًا.

كان الملف الأول الذى فحصته عن قضية قتل متسلسل فى جورجيا، نفذها شخص أطلقت عليه وسائل الإعلام "هاتف

منتصف الليل". قتل ثلاثة رجال سود بالفعل، بفاصل زمنى قصير بين كل حادث قتل. بدت قضية مقبولة بالنسبة لى، فيما عدا الستمائة ميل التى تفصل بين واشنطن وأتلانتا.

وضعت الملف جانبًا.

كانت القضية التالية أقرب إلى مكان إقامتى: اثنان من أساتذة التاريخ فى جامعة ميريلاند وجدا مقتولين فى إحدى قاعات الدراسة. كانت الجثتان متدليتين من السقف. وكانت ثمة شكوك لدى الشرطة المحلية ولكنها أرادت التحقق من الأمر قبل الإعلان عن أى شىء.

أعدت ذلك الملف إلى مكتبى ووضعت عليه ملصقًا أصفر.

الملصق الأصفر يعنى ربما أقرأه.

وهنا سمعت طرقًا على الباب.

قلت بصوت مرتفع: "إنه مفتوح"، وكنت نزاعًا إلى الشك والارتياب معظم الوقت.

ماذا قالت جدتى عندما غادرت المنزل مبكرًا؟ حاول ألا تتعرض لطلق نارى.

الفصل ٤٧

العادات القديمة نتخلص منها بصعوبة. ولكن لم تكن كايل كريج أو أية حالة أخرى تعانى من الاضطراب وعدم التوازن هى التى جاءت لزيارتى.

بل كانت مريضتى الأولى.

سدت الزائرة بجسدها معظم الباب عندما توقفت، وبدت خائفة ومرعوبة من الدخول. أخذت تلهث بشدة وارتكزت بيدها على أحد جانبى الباب وهى تحاول التقاط أنفاسها والمحافظة على بعض وقارها.

سألتنى وهى لا تزال تلهث: "ألن تضعوا مصعدًا فى البناية؟".

أجبتها: "آسف لصعودك كل هذه السلالم. لابد أنك كيم ستافورد. أنا أليكس كروس. تفضلى، توجد قهوة، أم أحضر لك ماء؟".

وأخيرًا دخلت حالتى الأولى إلى مكتبى، وكانت سيدة ممتلئة الجسم فى أواخر العشرينات من العمر، حسب تقديرى، على الرغم من أن مظهرها يوحى بأنها تجاوزت الأربعين. كانت ترتدى ملابس رسمية جدًا؛ جونلة داكنة وبلوزة بيضاء بدت قديمة ولكن أنيقة، ووشاحًا أرجوانيًا من الحرير مربوطًا بعناية أسفل ذقنها.

سألتها: "ذكرت فى مكالمتك الهاتفية أن روبرت هاتفيلد أحالك إلى، أليس كذلك؟ عملت مع روبرت كثيرًا فى قوة الشرطة. هل هو أحد أصدقائك؟".

"ليس بالفعل".

حسنًا، ليست صديقة لـ "هاتفيلد". انتظرت منها أن تقول المزيد ولكنها لم تنطق بكلمة أخرى؛ وإنما اكتفت بالوقوف فى منتصف المكتب وكأنها تُقيِّم كل شىء فى الحجرة.

بادرتها بالقول:" يمكننا الجلوس هنا". انتظَرَت حتى أجلس أولاً، وهذا ما فعلته بالفعل.

وأخيرًا جلست كيم، ولكنها بدت مترددة وهى تجلس على طرف المقعد. كانت إحدى يديها ترتعش بعصبية وهى تمسك بعقدة الوشاح، بينما كانت اليد الأخرى مقبوضة.

ثم أخذت تقول: "أحتاج فقط إلى بعض المساعدة لفهم شخص ما. شخص يغضب أحيانًا".

"هل هذا الشخص قريب لك؟".

ردت بغلظة: "لن أذكر لك اسمه".

فقلت لها: "لا أريده، فالاسم ليس مهمًا بالنسبة لى، ولكنى أسأل هل هو من أفراد أسرتك؟".

"خطيبى".

أومأت برأسى، ثم سألتها: "كم مضى على خطبتكما؟ هل هناك مانع من هذا السؤال؟".

أجابت: "أربع سنوات. إنه يريدنى أن أفقد بعضًا من وزنى قبل الزواج".

ربما كان هذا بحكم عادتى، ولكنى كنت قد بدأت بالفعل فى دراسة خطيبها. كانت كل الأخطاء فى علاقتهما تقع عليها وحدها؛ ولم يكن مسئولاً عن أى من تصرفاته؛ وبدا أنه يتخذ من وزنها مبررًا للتهرب منها.

"كيم، عندما تقولين إنه يغضب كثيرًا هل يمكنك إخبارى المزيد عن ذلك؟".

"حسنًا، فى الواقع إنه فقط ... "، ثم توقفت لتفكر فى الأمر، ولكنى كنت متأكدًا أن الأمر كان محرجًا لها، وأن عدم الوضوح ليس هو الذى دفعها إلى التراجع. ثم بدأت الدموع تتلألأ فى جانب عينيها.

سألتها: "هل يستخدم العنف البدنى معك؟".

فأسرعت بالإجابة: "لا، هو ليس عنيفًا. إنه فقط ... حسنًا، أجل، أظن ذلك".

بدت أنفاسها المتقطعة دليلاً على فقدانها الأمل فى جدوى الكلمات. وبدلاً من أن تواصل حديثها، فكت الوشاح حول رقبتها وتركته يتهاوى إلى جونلتها.

كرهت ما رأيت. كانت آثار الضرب واضحة جدًا، وكانت تشكل خطوطًا غير واضحة حول رقبتها.

لقد رأيت هذه العلامات المحززة من قبل. وعادة ما كنت أراها على جثث القتلى.

الفصل ٤٨

كان علىَّ أن أذكر نفسى ـ أنت بعيد عن جرائم القتل الآن؛ هذه مجرد جلسة علاج.

سألتها: "كيم، كيف تكونت هذه العلامات على رقبتك؟ أخبرينى بكل شىء".

ارتعدت وهى تعيد ربط الوشاح، ثم قالت: "إذا رن هاتفى الخلوى، فعلىَّ أن أرد على الفور. إنه يعتقد أنى فى منزل والدتى".

رأيت نظرة رعب فى وجهها، وأدركت أنه من المبكر جدًا أن أسالها عن أحداث بعينها من سوء المعاملة التى تتعرض لها.

ودون أن تنظر إلىَّ، رفعت كم البلوزة. لم أكن متأكدًا مما تفعله حتى رأيت الجرح الأحمر أعلى ساعدها. وكان الجرح قد بدا يلتئم.

سألتها: "هل هذا من أثر حرق ما؟".

أجابت: "إنه يدخن السجائر".

أخذت نفسًا عميقًا؛ فقد أجابتنى وكأنه أمر طبيعى، ثم سألتها: "هل طلبت الشرطة؟".

ضحكت بمرارة وهى تجيب: "لا، لم أفعل".

صمتت عن الكلام ونظرت بعيدًا مجددًا. من الواضح أن هذا الرجل يخيفها جدًا ليحمى نفسه، مهما كلف ذلك.

بدأ هاتفها الخلوى يرن داخل حقيبتها.

ودون أن تكلمنى بكلمة واحدة، أخرجت الهاتف ونظرت إلى الرقم ثم أجابت.

أجابت بصوت رقيق وهادئ ومقنع تمامًا: "مرحبًا يا عزيزى. ما الأمر؟"، ثم تابعت: "لا، خرجت والدتى لتحضر بعض اللبن. بالطبع متأكدة. سأبلغها سلامك".

كان مثيرًا أن أرى وجه كيم وهى تتحدث. لم تكن تمثل عليه فقط؛ وإنما كانت تمثل على نفسها. هكذا كانت تتعايش مع الأمر؟

عند أنهت المكالمة أخيرًا، نظرت إلىّ بابتسامة متناقضة تمامًا، وكأن المكالمة لم تكن. لم يدم ذلك إلا ثوانى قليلة، ليتغير حالها فى غمضة عين؛ فغابت الابتسامة وحل مكانها البكاء الذى تحول إلى عويل مرير هز جسدها؛ ثم مالت للأمام، وأمسكت بخصرها.

ثم قالت بصوت مختنق: "هذا صعب جدًا، أنا آسفة. لا يمكننى فعل هذا. لا يمكننى ... أن أكون هنا".

وعندما رن الهاتف للمرة الثانية، انتفضت من مقعدها. وكانت مكالمات المراقبة هذه هى ما يجعل وجودها هنا أمرًا صعبًا حيث كانت تحاول خداعه بالتظاهر بالوعى والإنكار فى الوقت نفسه.

مسحت على وجهها كما لو كان مظهرها مهمًا، ثم أجابت بالصوت الرقيق نفسه كما فعلت من قبل.

"مرحبًا يا عزيزى. لا، كنت أغسل يدى. آسفة على التأخير يا عزيزى. تطلب وصولى إلى الهاتف بعض الوقت".

أمكننى سماعه وهو يصيح غاضبًا على شىء ما وكيم تومئ برأسها فى حلم وتنصت بعناية.

وأخيرًا، أشارت إلىّ بإصبعها وخرجت إلى الردهة.

قضيت هذا الوقت فى تصفح الأدلة التى تحوى أسماء وعناوين دور الحماية من أجل تهدئة غضبى. وعندما عادت كيم، حاولت أن أعطيها أسماء بعض دور الحماية فى المنطقة، ولكنها رفضت أن تأخذها.

ثم قالت فجأة: "علىّ الذهاب الآن"، وكانت المكالمة الثانية قد أزعجتها كثيرًا. ثم قالت وهى تهم بالانصراف: "بكم أنا مدينة لك؟".

قلت لها: "فلنعتبر هذه الجلسة استشارة أولية، وادفعى لى فى الجلسة الثانية".

"لا أريد إحسانًا. لا أعتقد أنى سأتمكن من المجىء ثانية على أية حال. كم تريد؟".

أجبتها على مضض: "مائة دولار فى الساعة، ولكن فى حالتك سآخذ خمسين فقط".

أخذت تعد المبلغ، وكان فى معظمه فئة الخمسة دولارات والدولار الواحد التى ربما تكون قد ادخرتها على مدار الوقت. ثم غادرت المكتب، وبهذا انتهت جلستى الأولى.

الفصل ٤٩

خطأ. خطأ فادح.

كان الرجل المافيا فى لوس أنجلوس الذى كان قاتلاً مأجورًا فى السابق، ويدعى بينى "جودمان" فونتانا يصفر اللحن المرح لأغنية سيناترا وهو يدور حول سيارته الليتكولن الزرقاء الداكنة ويتجه ناحية الباب الأمامى المجاور لمقعد من يجلس بجانب السائق؛ ثم فتح الباب بابتسامة عريضة مشرقة من تلك التى تعجب الحسناوات ذوات العيون الزرقاء.

خرجت امرأة شقراء من السيارة، ومدت ساقيها الطويلتين كأنها فى اختبار أداء لفرقة "الروكتيس". وكانت فى السابق إحدى المرشحات فى مسابقة ملكة جمال الكون، وكانت فى السادسة والعشرين من العمر، هذا بالإضافة إلى تمتعها بأفضل جسد يمكن أن يشتريه المال. وكانت أيضًا

أنيقة ومثيرة جدًا، الأمر الذى جعل من الصعب على عضو المافيا هذا أن يتركها ترحل دون أن يدفع لها بعض المال. وكان بينى مرواغًا بارعًا بعض الشىء، ولكنه مع ذلك لم يكن نجمًا سينمائيًا، إلا إذا كنت ستعتبر الرجل الذى لعب دور تونى سوبرانو نجمًا.

كان الجزار يراقب الموقف من سيارته المتوقفة على مقربة من الشارع، وهو يستمتع بما تراه عيناه. ظن أن الشقراء سوف تأخذ من بينى خمسمائة دولار أو أكثر فى الساعة، أو ربما ألفى دولار فى الليلة إذا كانت زوجته خارج المدينة فى زيارة لابنتها التى تقيم فى مدرسة داخلية فى "ماريماونت" مانهاتن.

نظر مايكل سوليفان إلى ساعته.

الساعة الآن السابعة واثنتان وخمسون دقيقة. وقد حانت لحظة الانتقام لما حدث له فى البندقية، بداية الانتقام على أية حال، الرسالة الأولى من بين رسائل عدة كان يخطط لإرسالها.

وفى الثامنة وخمسة عشرة دقيقة، أخذ حقيبته الجلدية الصغيرة من المقعد الخلفى وخرج من سيارته، ثم عبر الشارع تحت ظلال أشجار القيقب والدردار.

لم ينتظر طويلاً لتظهر امرأة زرقاء الشعر ترتدى معطفًا من الفرو خارجة من المبنى. فتح لها سوليفان الباب بابتسامة رقيقة ثم دخل هو نفسه.

كان كل شىء كما يتذكره تقريبًا. فقد كانت العائلة الإجرامية تستخدم الشقة ٤ج منذ سنوات، منذ أن أتيحت الفرص لبدء أعمال المافيا فى واشنطن.

وكان المكان مناسبًا لأى شخص فى المدينة يحتاج إلى المزيد من الخصوصية، لأى سبب من الأسباب. وقد استخدمها الجزار نفسه مرة أو مرتين عندما كان يقوم ببعض الأعمال

www.rewity.com dodyadodo

لصالح بينى فونتانا. كان هذا قبل أن يتولى جون ماجيونى زمام الأمور من أبيه ويستغنى عن خدمات الجزار.

حتى المزلاج الكورى الرخيص على الباب الأمامى كان هو نفسه، أو تغير قليلاً. خطأ آخر. اقتلعه سوليفان بمثقاب لا يساوى ثلاثة دولارات أحضره من ورشة منزله. أعاد المثقاب إلى الحقيبة الجلدية ثم أخرج مسدسه وشفرة جراحه، شفرة خاصة جدًا.

كانت حجرة المعيشة مظلمة فى معظمها إلاّ من بعض أشعة الضوء مخروطية الشكل التى تأتى من اتجاهين ـ المطبخ عن يساره، وحجرة نوم عن يمينه.

أدرك سوليفان من صوت بينى المتواصل وهو بصحبة ملكة جمال العالم أنه فى مكان ما بالداخل. مشى بخطى خافتة سريعة على سجادة حجرة النوم واقترب من باب الحجرة ثم نظر داخله.

وضع سوليفان كاتم الصوت على مسدسه وأطلق منه رصاصة واحدة فقط. أصاب متسابقة ملكة جمال الكون سابقًا فى مؤخرة رأسها، ليتطاير شعرها ومخها على صدر فونتانا ووجهه. صرخ عضو المافيا وكأنه هو الذى أصيب.

تمكن بينى من دحرجة نفسه والخروج من أسفل الفتاة الميتة ثم الخروج من السرير بعد ذلك، ليبتعد عن المنضدة الصغيرة بجوار السرير، ويبتعد بذلك أيضًا عن مسدسه. أخذ الجزار يضحك، دون أن يقصد بذلك أية إهانة لزعيم المافيا، أو للقتيلة، ولكن فونتانا قد أخطأ فى كل تصرفاته الليلة. وكان بينى قد بدأ فى فقد مهارته، وهذا ما جعل سوليفان يتعقبه أولاً.

قال له الجزار وهو يشعل الضوء الذى فوق رأسهم: "مرحبًا يا بينى. كيف حالك؟ أريد التحدث معك عن البندقية".

أخرج مشرطًا ذا شفرة خاصة لقطع العضلات. "فى الحقيقة أريدك أن ترسل رسالة إلى السيد ماجيونى من أجلى هل يمكنك فعل ذلك يا بينى؟ وتكون ساعى بريد ؟ بالمناسبة، هل سمعت من قبل عن عملية الدكتور سايم؟ إنها عملية بتر للقدم".

الفصل ٥٠

لم يستطع مايكل سوليفان أن يعود مباشرة إلى بيته وإلى أسرته فى ميريلاند، ليس بعد ما قد فعله لتوه "ببينى" فونتانا وصديقته. كان ثائرًا جدًا ويحترق من داخله. وكان دمه يغلى من شدة الغضب. وكان قد استرجع بعض المشاهد المؤلمة مرة أخرى من محل والده فى بروكلين ـ نشارة الخشب المخزنة فى برميل كبير من الورق المقوى، أرضية المحل المكونة من قرميد اليتراكوتا (الطين النضيج) وملاط الحقين الأبيض، المناشير اليدوية، سكاكين العظام، خطاطيف اللحم فى حجرة التجميد.

ولذلك، أخذ يتجول فى جورج تاون لبرهة، باحثًا عن المتاعب ولكن من النوع الذى يحبه. وهذا ما كان يتوافر فى السيدات اللاتى يتمتعن بقدر من الوقار، وبشكل خاص

المحاميات منهن والحاصلات على ماجستير فى إدارة الأعمال وأستاذات الجامعات وأمينات المكتبات كان يحب نظاراتهن، وملابسهن المحتشمة وتصفيفات شعرهن المتحفظة، وذلك لأنهن يتمتعن دائمًا بالقدرة على التحكم فى أنفسهن.

كان يحب مساعدتهن على فقد جزء من ذلك التحكم، بينما ينفس هو عن بعض رغباته ويتخلص من الضغط الجاثم على صدره، ويكسر جميع قواعد هذا المجتمع الأحمق.

وكانت جورج تاون مكانًا مناسبًا لالتقاط ضحاياه. لم تكن أى ممن رآهن فى الشارع تطابق المواصفات التى يطلبها. ولا يعنى ذلك أنه كان أمامه الكثيرات ليختار منهن، ليس فى هذا الوقت من الليل. ولكنه لم يكن بحاجة إلى كل هذه الاختيارات المتعددة؛ وإنما كان يريد واحدة فقط مناسبة. وربما يكون قد وجدها بالفعل، أو هكذا ظن على أية حال.

بدا من مظهرها أنها محامية، وأنها تريد إبهار الناظرين إليها من خلال ردائها المصنوع من قماش التويد الذى يبرز مفاتنها. كان كعب حذائها يعزف نغمًا منتظمًا وهى تسير على رصيف المشاة هنا وهناك، هنا وهناك.

وعلى النقيض من ذلك، كان حذاء سوليفان الرياضى من نوع نايكى لا يصدر أى صوت على الإطلاق، وبدا بقميصه الرياضى كأنه مجرد شخص خرج لممارسة العدو ليلاً فى الحى، وهذا ما كان سيعتقده أى أحد يراه من نافذة منزله.

ولكن لم يكن هناك أى أحد ينظر إليه، ولا حتى الآنسة "تويدى". أخذ يقول فى نفسه: "هذه التويدية الوديعة مثل الطائر. هذا خطأ من جانبها".

واصلت سيرها بخطى مسرعة وهى تطوى حقيبتها الجلدية تحت ذراعها وكأنها مفتاح رموز شفرة دا فينشى، وظلت فى سيرها ملتزمة الحد الخارجى للرصيف وهى كلها أمور ذكية بالنسبة لامرأة تسير وحدها فى الشارع فى وقت متأخر من

الليل. وكان خطأها الوحيد أنها لم تكن تلتفت حولها بما يكفى لتتعرف على ما حولها. لم تر ذلك الرياضى الذى كان يسير خلفها مباشرة.

وقد تودى الأخطاء بحياتك، أليس كذلك؟

تراجع سوليفان فى الظلام عندما مرت الفتاة التويدية أسفل عمود إنارة بالشارع، وعندها تمكن من رؤيتها بوضوح. ولم يكن هناك خاتم فى يدها اليسرى.

واصل كعبها العالى عزف نغمته المنتظمة على الرصيف لنصف شارع آخر؛ ثم أبطأت سيرها أمام منزل مبنى بالقرميد الأحمر. مكان رائع من القرن التاسع عشر. ويبدو من منظره، على الرغم من ذلك، أنه أحد تلك المبانى التى تخضع للملكية المشتركة من الداخل.

أخرجت مجموعة مفاتيح من حقيبتها قبل أن تصل حتى إلى الباب الأمامى، وهنا بدأ سوليفان يتحين لحظة اقترابه. أدخل يده فى جيبه ليخرج قصاصة ورق. أتراها تذكرة تنظيف ملابس؟ لم يكن ذلك بالأمر المهم.

وما إن وضعت المفتاح فى الباب، وقبل أن تفتحه، ناداها بصوت رقيق: "معذرة يا سيدتى! معذرة! هل أسقطت هذه؟".

الفصل ٥١

لم تكن حمقاء تلك التى تشبه الطائر التويدى فوالدتها لم تنجب بنات يتسمن بالغباء. أدركت على الفور أنها فى مشكلة، ولكن لم يكن بإمكانها أن تفعل المزيد حيال ذلك فى الثوانى القليلة التالية.

ضرب شرفة الباب أولاً، قبل أن تتمكن من إغلاق الباب الزجاجى بينهما وتغلقه دونها لتصبح آمنة فى الداخل.

أظهر ضوء المصباح الغازى على حائط الردهة مدى الرعب والذعر فى عينيها الزرقاوين الجميلتين.

كما أظهر بريق شفرة المشرط فى يده وهو يمتد إلى وجهها.

أراد الجزار أن يريها شفرته الحادة حتى تنشغل بها، أكثر من انشغالها به. وهذا ما كان يحدث بالفعل، وكان الجزار يعرف

ذلك؛ فأكثر من تسعين بالمائة من الأشخاص الذين يتعرضون لاعتداءات يتذكرون تفاصيل السلاح أكثر مما يتذكرون حامل السلاح نفسه.

لم تستطع الفتاة التويدية فعل الكثير لمنعه من دخول باب الردهة ليصبح معها. أعطى مايكل سوليفان ظهره إلى الشارع حتى يحجبها عن الرؤية إذا تصادف مرور أى أحد بالخارج. أبقى المشرط ظاهرًا فى إحدى يديه وانتزع مفاتيحها بالأخرى.

قال لها وهو يضع المشرط قريبًا من شفتيها: "لا تتفوهى بأى كلمة، وحاولى أن تتذكرى أنى لا أستخدم مخدرًا مع هذا. بل لا أستخدم حتى مطهرًا موضعيًا؛ وإنما أذبح فقط".

وقفت على أطراف أصابعها وهى تستند إلى قائم الدرابزين ثم ألقت إليه حقيبتها الصغيرة وهى ترجوه: "خذ هذه أرجوك! إنها لك. دعنى الآن".

"لن يحدث هذا، فأنا لا أريد مالك. والآن. اسمعينى جيدًا؛ هل تصغين؟".

"أجل".

سألها: "هل تعيشين بمفردك؟"، وكان لسؤاله التأثير الذى أراده؛ حيث دله صمتها على إجابتها.

ثم حاولت أن تحمى نفسها فقالت: "لا"، ولكنها تأخرت كثيرًا.

كانت هناك ثلاثة صناديق بريد مثبتة على الحائط مكتوب على الصندوق الثانى فقط اسما واحدًا: إل.براندت.

"فلنصعد إلى أعلى يا آنسة براندت".

"أنا لست ــــ".

"بل أنت هى. لا داعى للكذب. والآن تحركى قبل أن تفقدى حياتك".

وفى أقل من عشرين ثانية، كانا داخل الجزء الخاص بها من المنزل وكانت حجرة المعيشة، مثل إل. براندت نفسها، نظيفة ومنظمة. وكانت هناك صور مشاهد رومانسية بالأبيض والأسود مثبتة على جدران الحجرة، بالإضافة إلى ملصقات بعض الأفلام "*Sleepless in Seattle*"، و "*An Officer and a Gentleman*".

كانت الفتاة رومانسية من داخلها. ولكن بطريقة ما، كان سوليفان رومانسيًا أيضًا ـ أو هكذا ظن هو.

تيبس جسدها حينما حملها، وكانت ضئيلة جدًا، بحيث لم يكن بحاجة إلى أكثر من ذراع واحد ليحملها إلى حجرة النوم، ثم يلقيها على فراشها حيث رقدت دون أن تحرك ساكنًا.

قال لها مغازلاً: "يالك من فتاة فائقة الجمال. إنك رائعة حقًا، مثل الدمية الفاتنة. والآن، إن لم يكن لديك مانع، أحب أن أرى باقى البضاعة".

استخدم المشرط ليقطع أزرار سترتها التويدية غالية الثمن. حافظت إل. براندت على هدوئها وهو ينتزع عنها ملابسها؛ وكان حالها كمن خُيِّرَ بين الشلل والعرج، ولكنه على الأقل لم يكن بحاجة إلى تذكيرها بالمحافظة على هدوئها والتزام الصمت.

أخذ يجردها تمامًا من ملابسها وهو يقول فى نفسه: "كل هذه الإثارة فى يوم العمل أيضًا". كانت ساقاها جميلتين ونحيفتين وسمراوين بعض الشىء، وكانت أظافر قدميها مطلية بالأحمر الفاقع. وعندما حاولت أن تغلق عينيها، صفعها بشدة حتى تحافظ على كامل تركيزها معه.

"ابقى منتبهة معى يا إل. براندت".

لفت انتباهه شىء ما على تسريحتها، أحمر شفاه. قال لها: " أريدك أن تضعى بعضًا من هذا على شفتيك، ولا مانع من بعض العطر الجميل أيضًا". نفذت إل. براندت ما طلب

منها، وكانت تعلم أنه لم يكن لديها خيار.

أشهر المشرط فى وجهها، المنظر الذى لن تنساه أبدًا، وأخذ يمارس فعلته وهو يقول لها: "أنا متأكد أنك فعلت ذلك من قبل". وكانت براندت فى أثناء ذلك تتحاشى مضايقته وتبعد ناظريها عنه.

قال لها بلهجة حادة: "والآن، انظرى إلىّ، انظرى إلىّ. انظرى إلىّ انظرى إلىّ. انظرى إلى. هذا أفضل". ثم انتهى الأمر بالنسبة له، أو بالنسبة لكليهما.

ثم قال: "بقيت كلمة قصيرة قبل أن أرحل، وصدقى أو لا تصدقى، أعتزم الرحيل. ولن أؤذيك أكثر مما آذيتك به بالفعل".

وجد حقيبتها على الأرض، وبداخلها ما كان يبحث عنه ـ رخصة قيادة ومفكرة سوداء. وضع الرخصة أسفل المصباح الذى بجانب السرير ليراها بوضوح.

"إذن، اسمك ليزا، صورة جميلة جدًا لا تتناسب مع ورقة حكومية. ولكنك بالطبع أجمل فى الحقيقة. والآن، دعينى أريك بعضَ الصور الخاصة بى".

لم يحضر الكثير من الصور، هذه المرة أربعة فقط، ولكنها كانت المفضلة لديه. بسط الصور فى راحة يده كالمروحة، فتجمدت ليزا فى مكانها مرة أخرى وكم كان هذا غريبًا منها، كأنها تظن أن سكونها سيخفيها عن ناظريه.

قرب الصور منها لتراها جيدًا واحدة واحدة." هؤلاء هم كل الأشخاص الذين قابلتهم مرتين. وبالطبع تقابلت أنا وأنت مرة واحدة فقط. وسواء تقابلنا ثانية أم لا، فهذا أمر يتوقف تمامًا عليك. هل تفهمين ما أقول؟ هل كلامى واضح لك؟".

"أجل".

قام وأخذ يسير حول السرير من ناحيتها، ليمنحها بذلك ثوانى قليلة لتفكر فيما قاله. غطت نفسها بملاءة، قبل أن

يسألها: "هل تفهميننى يا ليزا؟ حقًا أعلم أنه قد يكون صعبًا أن تركزى الآن، وأتصور أن الأمر كذلك".

ردت بصوت خافت: "لن أقول أى شىء. أعدك بذلك".

فقال: "حسنًا، أصدقك، ولكن بشرط، سآخذ هذه أيضًا".

أمسك بالمفكرة وفتح حرف الباء. "فلنقرأ هذا. توم ولوبس براندت. هل هما والداك؟ شاطئ "فيرو" فلوريدا. يفترض أنه مكان رائع، ساحل الكنوز".

توسلت إليه: "أوه، يا إلهى، أرجوك ألا تفعل".

فقال لها: "هذا يتوقف عليك تمامًا يا ليزا. وبالطبع، إذا أردت رأيى، فسأقول لك إنه من المؤسف بعد كل هذا أن تنتهى حياتك مثل هؤلاء الذين فى الصور. تعرفين ـ أسعد بتقطيعهم إلى أشلاء صغيرة، طالما أننى فى حالة مزاجية ونفسية تسمح لى بذلك".

نزع عنها الملاءة لينظر إليها مرة أخرى، ثم قال: "ستكون الأشلاء جميلة فى حالتك، ولكنها ستبقى أشلاءً على أية حال".

وما إن فرغ من هذه الكلمات الأخيرة حتى ترك ليزا براندت وحيدة تسترجع ذكرياتها معه.

الفصل ٥٢

"لهذا السبب لا أرتدى رابطة العنق".

أخذ جون سامبسون يشد عقدة رابطة العنق حول عنقه قبل أن يمزقها. بعد ذلك ألقى بها وبما تبقى من القهوة فى القمامة. ثم لم يلبث أن ندم على إلقاء القهوة. وكان هو وبيلى قد أمضيا نصف الليلة الماضية بجوار دجاكاتا الصغيرة المصابة بالأنفلونزا. ولذلك، كان وعاء القهوة هو كل ما يحتاج إليه الآن.

وعندما رن هاتف مكتبه، لم يكن بحالة تسمح له بالتحدث مع أى شخص عن أى شىء. قال: "نعم، ماذا؟".

كان هناك صوت امرأة على الجانب الآخر من الهاتف: "هل هذا هاتف المحقق سامبسون؟".

"أنا سامبسون، ما الأمر؟".

"هذه المحققة أنجيلا سوزان آنتون من وحدة جرائم الاعتداءات الجنسية التابعة للمنطقة الثانية".

قال : "حسنًا". ثم انتظر أن توضح له بعض النقاط.

"كنت آمل أن أطلعك على قضية مزعجة أيها المحقق. ثمة الكثير من الغموض يكتنف هذه القضية والأمور معقدة هنا كثيرًا".

أخذ سامبسون يقلب سلة المهملات بحثًا عن وعاء القهوة. حسنًا! ها هو عن يمين السلة.

قال: "ما هى القضية؟".

"اغتصاب. وقع فى جورج تاون ليلة أمس. خضعت المرأة الآن للعلاج فى مستشفى جورج واشنطن، ولكنها لا تقول أكثر من أنها تعرضت للاعتداء. إنها لا تريد الكشف عن هوية الفاعل. بل إنها لا تريد حتى أن تصفه على الإطلاق. مكثت معها طوال الصباح. ولم أخرج منها بشىء. لم أر قط شيئًا كهذا أيها المحقق، أقصد مستوى الخوف الذى تبديه المرأة".

أسند سامبسون الهاتف على أذنه وأخذ يدون بعض الملاحظات على لوحة مكتوب عليها من أعلى "مفكرة أبى"، كانت بيلى قد أهدتها له فى عيد الأب. قال: "لا بأس حتى الآن، ولكنى أتساءل عن اتصالك بى أيتها المحققة".

أخذ رشفة ثانية من القهوة السيئة، ولكنها بدت فجأة غير سيئة جدًا.

سكتت آنتون برهة قبل أن تجيب: "أعلم أن أليكس كروس أحد أصدقائك".

وضع سامبسون قلمه وأراح ظهره على كرسى مكتبه ثم قال: "فهمت الآن".

ثم قالت: "كنت آمل أن تتمكن من ــــ"

"أسمعك جيدًا وأفهم ما تريدين قوله أيتها المحققة آنتون. أتريديننى أن أتمم هذه الصفقة لك؟".

سارعت بالقول: "لا، ولكن راكيم بول أخبرنى أنكما بارعان جدًا عندما تعملان معًا. ولهذا أريد إشراككما معًا فى هذه القضية، هذا كل ما أقصده".

لم يتكلم سامبسون وآثر الانتظار ليرى ما إذا كانت انتهت من حديثها أم أنه لا يزال لديها المزيد لتقوله.

" تركنا عدة رسائل للدكتور كروس البارحة وصباح اليوم، ولكن علىَ أن أتخيل أن الجميع يريدون جزءًا من وقته، خاصة وأنه يعمل لحسابه الخاص الآن".

قال لها: "حسنًا، أنت محقة فى ذلك، فالجميع يريدون قطعة منه. ولكن أليكس رجل ناضج، ويمكنه الاعتناء بنفسه واتخاذ قراراته. لماذا لا تستمرين فى محاولة الاتصال به؟".

"محقق سامبسون، المعتدى وغد لئيم، ولا أريد أن أضيع وقت أى أحد فى هذه القضية، ولا حتى أنا. ولذلك، إذا كنت قد ضايقتك بأى شكل ، فربما يمكنك نسيان الأمر برمته، دعك من هذا الهراء وأخبرنى عما إذا كنت ستساعدنى أم لا".

عرف سامبسون نبرة الصوت وما تحمله من معان، وهذا ما جعله يبتسم قبل أن يخبرها: "حسنًا، بما أنك وضحت الأمر بهذه الطريقة. حسنًا. لا يمكننى التعهد بأى شىء بالنسبة لـ "أليكس"، ولكنى سأرى ما يمكننى فعله".

"عظيم. شكرًا لك سأرسل الملفات إليك الآن. إلاَّ إذا كنت تريد أن تدرسهم هنا".

" على رسلك. أتقولين ملفات؟".

"هل إيقاع كلماتى سريع عليك أيها المحقق سامبسون؟ إننى ما اتصلت بك إلاَّ للاستفادة من خبرتك وخبرة الدكتور كروس فى قضايا الجرائم المتسلسلة".

حك سامبسون سماعة الهاتف فى صدغه ثم أجابها: "نعم، أظن أنك تتكلمين معى بسرعة كبيرة. هل تتحدثين عن جريمة قتل أيضًا فى هذه القضية؟".

أجابت آنتون بحزم: "لا أقصد قتلاً متسلسلاً؛ وإنما اغتصاب متسلسل".

الفصل ٥٣

قلت لسامبسون: "هذه ليست جلسة استشارة؛ وإنما معروف أسديه لك بصفة شخصية يا جون".

رفع سامبسون حاجبيه عمدًا وهو يقول: " بعبارة أخرى، وعدت الجدة والأطفال ألا تعود للعمل الميدانى مرة أخرى".

فقلت له: " لا، لم أعد أى أحد بأى شىء. قُد السيارة وحاول ألا تصدم أى أحد على الطريق، على الأقل لا تصدم أحدًا نحبه".

كنا فى الطريق إلى فيرجينيا لملاقاة ليزا براندت التى كانت قد تركت شقتها فى جورج تاون لتقيم مع صديقتها فى الريف. أخذت أدرس ملف قضيتها، بالإضافة إلى ثلاثة ملفات أخرى، كلها لنساء تعرضن للاغتصاب ولكنهن يحجمن عن قول أى شىء لمساعدة التحقيقات، وربما لإيقاف المغتصب،

المغتصب المتسلسل.

كانت هذه فرصتى الأولى للاطلاع على الملفات، ولكن لم يتطلب الأمر وقتًا كثيرًا لأوافق على النتيجة التى توصل إليها المحقق الأول الذى تولى القضية؛ وهى أن منفذ كل هذه الاعتداءات شخص واحد، وأنه شخص مختل نفسيًا بلا شك. وكانت الفتيات اللاتى نجين من القتل يتمتعن بالصفات نفسها: فتيات شقراوات فى العشرين من العمر أو فى بداية الثلاثينات، غير متزوجات، ويعشن بمفردهن فى محيط جورج تاون. وكانت كل منهن ناجحة فى عملها بشكل أو بآخر ـ محامية، أو محاسبة تنفيذية، أما ليزا، فكانت مهندسة معمارية. أى أن ما يشتركن فيه هو أنهن جميعًا نساء على قدر من الذكاء والطموح.

ولم تكن أى منهن على استعداد لقول كلمة واحدة عن الرجل الذى اعتدى عليهن.

إذن كان هدفنا هذه المرة حيوانًا ذكيًا ويتمتع بقدرة كبيرة على ضبط النفس، عرف كيف يبث الخوف الرهيب فى نفوس ضحاياه ويعمقه فيهم، ليس مرة واحدة؛ وإنما أربع مرات، أو ربما أكثر من أربع. ونظرًا لأن الظروف كانت مواتية له بشكل كبير، فقد تمكن من إيقاع ضحايا جدد من النساء اللاتى يتملكهن الخوف من مجرد الإبلاغ عن تعرضهن للاعتداء.

قال سامبسون: "ها نحن قد وصلنا إلى حيث تختبئ ليزا براندت".

الفصل ٥٤

رفعت نظرى من فوق ملفات التحقيق التى بين يدىَ ونحن نمر عبر سياج كبير من الأشجار على جانبى طريق خاص هلالى الشكل مفروش بمحار البحر المكسور. غلب على المنزل الطابع اليونانى؛ حيث كان مكونًا من طابقين ويحتوى على عمودين أبيضين فى مقدمته؛ وبدا كأنه حصن عصرى. أدركت لماذا أتت ليزا براندت إلى هنا، ربما بحثًا عن الملاذ والأمان.

ردت علينا صديقتها نانسى جودز ثم خرجت لتتحدث معنا على انفراد. وكانت نانسى شقراء ونحيلة وبدت فى مثل عمر الآنسة براندت، التى يشير ملفها إلى أنها فى التاسعة والعشرين من العمر.

قالت بصوت خافت لم يكن له داع ونحن هنا فى الرواق: "لست مضطرة إلى إخباركم أن ليزا تمر بظروف صعبة هذه

الأيام. فهل يمكنكم جعل هذه المقابلة مختصرة قدر الإمكان؟ أتمنى أن تغادروا فحسب. لا أفهم لماذا عليها أن تتحدث إلى المزيد من رجال الشرطة. هل يمكن لأى منكم أن يشرح لى ذلك؟".

عقدت صديقة ليزا ذراعيها أمام صدرها، وبدت غير مرتاحة ولكنها كانت تسعى جاهدة كى تكون مدافعة جيدة، الأمر الذى احترمته كثيرًا أنا وسامبسون، ولكن كانت هناك اعتبارات أخرى.

قال سامبسون: " سنختصر كلامنا قدر الإمكان، ولكن المغتصب لا يزال حرًا طليقًا".

"أتجرؤ على إلقاء اللوم عليها؟ أتجرؤ على ذلك؟".

تبعنا الآنسة جودز إلى الداخل عبر الردهة المكسوة بالرخام، ومنها إلى السلم الدائرى الذى يعكس الثريا المتدلية من السقف. عندما سمعت ثرثرة أصوات الأطفال بعيدًا عن اليسار رأيت أنها لا تتناسب مع الطابع الرسمى للمنزل. بدأت أتساءل عن المكان الذى يحتفظ فيه هؤلاء الناس بأشيائهم القديمة غير المستخدمة.

تنهدت الآنسة جودز قبل أن تشير إلى ردهة جانبية حيث تجلس ليزا براندت بمفردها. كانت ضئيلة ولكن جميلة، مازالت تحتفظ بجمالها حتى الآن وهى تمر بهذه الظروف المأساوية. أحسست أن ملابسها كانت عادية لا تنم عن شىء، حيث كانت ترتدى سروالاً من الجينز وقميصًا مقلمًا، ولكن حالتها النفسية المنكسرة ـ وعينيها ـ هى ما أخبرتنى بالمزيد عن قصتها. لم تكن تعرف ما إذا كان الألم الذى تشعر به الآن سينتهى أم سيظل يعتصرها للأبد.

قدمت أنا وسامبسون لها نفسينا قبل أن تأذن لنا بالجلوس. تكلفت ليزا فى رسم ابتسامة مهذبة على وجهها قبل أن تشيح بوجهها عنا وتنظر بعيدًا مرة أخرى.

قلت لها، وأنا أشير إلى باقة من الورود النضرة على طاولة القهوة التى بيننا: " إنها جميلة حقًا". لم أجد صعوبة تذكر فى قول ذلك؛ لأن ما قلته كان صحيحًا، وبصراحة لم أعرف طريقة أخرى لبدء الحديث معها.

نظرت إلى الورود دون تركيز، ثم قالت: "أوه، إن نانسى رائعة فى هذه الأمور. لقد أصبحت فتاة ريفية حقًا الآن، بل وأمًا أيضًا. كانت تريد دائمًا أن تكون أمًا".

بدأ سامبسون الحديث معها بطريقة لطيفة على النحو التالى: " ليزا، أريدك أن تعرفى كم نحن آسفون على ما حدث لك. أعلم أنك تحدثت مع الكثير من الأشخاص بالفعل. سنحاول ألا نأتى كثيرًا على ذكر التفاصيل الخلفية. حسنًا حتى الآن؟".

أبقت ليزا عينيها مثبتتين على زاوية الحجرة وهى تقول: "أجل، شكرًا لك".

"والآن، نفهم أنك تلقيت العلاج الوقائى اللازم ولكنك آثرت عدم تقديم أى دليل مادى فى الاختبار الذى أجرى لك فى المستشفى. وأعلم أيضًا أنك ترفضين فى الوقت الحالى إعطاء أى وصف للرجل الذى اعتدى عليك. هل هذا صحيح؟".

أجابت وهى تهز رأسها للأمام والخلف برفق، وكأنها تكرر كلمة "لا" مرارًا وتكرارًا: "لا الآن ولا فى أى وقت آخر".

طمأنتها قائلاً: "لست مجبرة على الكلام. ولسنا هنا للحصول على أية معلومة لا تريدين إعطاءها لنا".

تابع سامبسون حديثه: "مع وضع كل ذلك فى الاعتبار، لدينا بعض الافتراضات التى نعمل وفقًا لها. أولاً، أن المعتدى عليك كان شخصًا ما لا تعرفينه. وثانيًا، أنه هددك بطريقة أو بأخرى ليمنعك من الكشف عن هويته أو التحدث عنه. ليزا، هلا أخبرتنا عما إذا كان ذلك دقيقًا أم لا؟".

لم تحرك ساكنًا. حاولت أن أقرأ ملامح وجهها ولغة جسدها دون جدوى. لم تجب عن سؤال سامبسون، لذا حاولت طرحه بطريقة أخرى.

"هل فكرت فى أى شىء منذ أن تحدثت مع المحققين السابقين؟ أى شىء تريدين إضافته؟".

عقب سامبسون: "أى تفاصيل ولو صغيرة قد تفيد التحقيق وتساعدنا على إلقاء القبض على المعتدى".

بادرت بالقول: "لا أريد أى تحقيق فيما حدث لى، أليس هذا من حقى؟".

أجابها سامبسون بأرق صوت سمعته منه: "أخشى ألاَّ يكون كذلك".

"ولم لا؟"، قالتها ليزا، كالتماس يائس أكثر منه من كونه مجرد سؤال.

حاولت أن أختار كلماتى بعناية وأنا أقول لها: "نحن على يقين من أن ما حدث لك لم يكن حادثًا فرديًا يا ليزا. فهناك نساء أخريات ـــــ"

وهنا، لم تتمالك ليزا نفسها، حيث غلبها بكاء مختنق، كاشفًا بذلك كل ما كانت تحاول إخفاءه. بعدها انزوت ليزا فى نفسها وطأطأت رأسها وأخذت تبكى بحرقة ويداها مطبقتان على فمها.

قالت بأسى: "أنا آسفة، لا يمكننى فعل هذا. لا أستطيع. آسفة، آسفة حقًا".

عادت الآنسة جودز إلى الحجرة مرة أخرى، وكان واضحًا أنها كانت تستمع من خلف الباب. جثت على ركبتيها أمام ليزا وأحاطتها بذراعيها وأخذت تهمس إليها بكلمات لتهدئ من روعها.

كررت ليزا قولها: "أنا آسفة".

فقالت نانسى جودز: "ما من شىء لتأسفى عليه يا حبيبتى. لا شىء على الإطلاق. انسى الأمر فقط، هذا كل شىء".

وضع سامبسون بطاقته على طاولة القهوة ثم قال وهو يهم بالانصراف: "حسنًا، سننصرف حالاً".

ردت الآنسة جودز دون أن تتحول عن صديقتها المنتحبة: "اذهبا فحسب. ورجاءً، لا تعودا إلى هنا ثانية واتركا ليزا فى حالها. اذهبا".

الفصل ٥٥

كان الجزار فى مهمة ـ مهمة قتل، سيتقاضى من ورائها مليون دولار. وفى خضم انشغاله بالأمور الأخرى، كان الجزار يحاول كف نفسه عن التفكير فى جون ماجيونى والألم الذى أراد أن يسببه له. كان يراقب رجلاً عجوزًا مهندم الثياب وفى ذراعه فتاة شابة. "طيور"، كما أطلقوا عليهم هنا فى لندن ذات مرة.

كان عمر الرجل يناهز الستين من العمر، فيما كان عمر الفتاة يقارب الخامسة والعشرين على الأكثر، الأمر الذى جعلهما زوجين مثيرين للفضول، يلفتان انتباه كل من رآهما، وهو ما قد يسبب مشكلة له.

ظل الجزار يراقبهما وهما يقفان أمام فندق تونى كلاريدجز فى انتظار وصول سيارة الرجل الخاصة لتنقلهما إلى وجهتهما. وهذا ما فعلته بالفعل، تمامًا كما فعلته من قبل الليلة الماضية ثم فى حوالى العاشرة من ذلك الصباح.

لم يرتكب الزوجان أى خطأ كبير حتى الآن، الأمر الذى لم يدع له فرصة لينقض عليهما.

كان سائق السيارة الخاصة حارسًا شخصيًا فى الوقت نفسه، وكان يحمل مسدسه. وكان يتمتع بقدر من المهارة فيما يقوم به.

كانت هناك مشكلة واحدة فقط أمام هذا الحارس الشخصى ـ وهى أن الفتاة لم تكن تريده إلى جانبهما. وقد حاولت بالفعل كثيرًا أن تجعل الرجل العجوز يطرده الليلة الماضية، عندما كانا يقضيان بعض شئونها الخاصة فى ساتشى جاليرى، ولكنها لم تفلح فى ذلك.

حسنًا، سيكون عليه الآن أن يرى ما سيستجد اليوم. استقل الجزار سيارته التى تفصلها بضع سيارات عن السيارة المرسيدس السوداء المبهرة سى. إل. ٦٥. وكانت السيارة المرسيدس فائقة السرعة، ولكن كانت شوارع لندن المزدحمة نقطة إيجابية فى صالحهما.

كان الجزار مصممًا على مواصلة المحاولة، ولسبب وجيه، ثم واتته الفرصة لإنجاز مهمته فى محيط بوسطن عن طريق أحد معارفه. وكان يثق فى هذا الشخص، على الأقل على قدرته على التخلص منه. كما أنه كان بحاجة إلى المليون دولار التى سيكسبها فى يوم واحد.

وأخيرًا حدثت ثغرة فى منطقة "لونج آكر" بالقرب من محطة أنفاق كوفنت جاردن؛ حيث قفزت الفتاة خارج السيارة فى إحدى إشارات المرور، ثم بدأت تسير على قدميها ـ ليتبعها الرجل العجوز أيضًا.

وعلى الفور، أوقف مايكل سوليفان سيارته إلى جانب الطريق عند حاجز الرصيف مباشرة، ثم غادر سيارته هكذا ببساطة. ولم يكن ممكنًا أبدًا أن يطالبه أحد بسداد إيجار السيارة على أية حال. كانت هذه الحركة ممتازة وغريبة من حيث إحجام معظم الناس عن مجرد التفكير فى إتيانها، ولكن لم يكن يعنيه أن يترك السيارة فى منتصف لندن. وذلك لأن السيارة لم تكن تمثل أية أهمية بالنسبة له.

اطمأن الجزار إلى أن السائق الخاص ـ الذى يعمل حارسًا شخصيًا أيضًا ـ لن يفعل الشىء نفسه بسيارته المرسيدس التى لا يقل ثمنها عن المائتى ألف دولار بأى حال من الأحوال، وأن أمامه عدة دقائق قبل أن يلحق به السائق مرة أخرى.

كانت الشوارع حول ميدان كوفنت جاردن مكتظة بالمشاة، وتمكن مع ذلك من رؤية الزوجين، وهما يهزان رأسيهما ويضحكان، ربما لتمكنهما من "الهرب" من الحارس الشخصى. تبعهما إلى شارع جيمس، وهما لا يزالان يضحكان ويتحدثان دون أدنى اهتمام لما قد يحيق بهما.

خطأ فادح، فادح جدًا.

استطاع أن يرى سوقًا يسد الشارع أمامه، ثم رأى حشدًا كبيرًا من الناس يتجمعون حول بعض ممثلى الشوارع الذين تنكروا فى هيئة تماثيل من الرخام يتحركون فقط عندما يلقى إليهم شخص ما بعملة معدنية.

ثم فجأة، داهم الزوجين وأصبح أمامهما مباشرة، وكانت الفرصة مواتية، لذا أطلق النار من مسدسه البريتا المزود بكاتم الصوت ـ أطلق رصاصتين أصابتا القلب مباشرة.

سقطت الفتاة كأنما سحبت سجادة من تحت قدميها.

لم تكن لديه أية فكرة عن هوية الفتاة، أو عن من يريد قتلها أو لماذا، ولم يكن يهتم لذلك بطريقة أو بأخرى.

أخذ يصيح وهو يسقط المسدس من بين أنامله: "أزمة قلبية! ثمة شخص أصيب بأزمة قلبية!" ثم اختفى وسط الزحام. توجه مباشرة إلى شارع نيل، مارًا بحانتين يغلب عليهما الطابع الفيكتورى ليجد سيارته كما تركها فى المكان نفسه. يا لها من مفاجأة جميلة!

كان من الأكثر أمانًا له أن يقضى ليلته فى لندن، ليطير صباحًا عائدًا إلى واشنطن.

مال سهل ـ كعادته دائمًا، أو على الأقل كان كذلك بالنسبة له قبل ما حدث فى البندقية، الأمر الذى لا يزال يوليه جل اهتمامه.

الفصل ٥٦

تقابلت أنا وجون تلك الليلة لنتدرب قليلاً فى صالة "روكسى جيم" للياقة البدنية بعدما انتهيت من آخر جلساتى العلاجية. وكان العمل يسير بشكل طيب، وكانت أيامى هناك قد جعلتنى سعيدًا وراضيًا للمرة الأولى فى السنوات القليلة الماضية.

كانت فكرة الحياة الطبيعية الغربية مختمرة فى عقلى فى ذلك الوقت، على الرغم من أنى لم أكن متأكدًا من المعنى الحقيقى لهذه الكلمة.

قال سامبسون: "أدخل مرفقيك قبل أن أهزمك".

أدخلتهما بالفعل، ولكن ذلك لم يغير كثيرًا فى الأمر.

ابتدرنى الرجل الضخم بلكمة متقنة بيده اليمنى آلمتنى كأشد ما تؤلم اللكمة القوية. ملت بجسمى لأنقض بقوة عليه،

وهو ما آلمنى أكثر مما آلمه.

سارت المباراة على هذا النحو لفترة من الوقت، ولكن عقلى لم يكن أبدًا داخل الحلبة، وبعد أقل من عشرين دقيقة، خلعت القفازين وأنا أشعر بألم فى كلا كتفىّ.

قلت بملء فمى: "يكفى هذا، فلنذهب ونتناول شرابًا".

تناولنا شرابنا على رصيف روكسى، ولم يكن نوع المشروب الذى أردته، ولكنه كان لا بأس به.

قال سامبسون: "إذن، إما أن يكون أدائى جيدًا، وإما أنك كنت على غير ما يرام الليلة، أترى أى من الاحتمالين صحيح؟".

أجبته بوجه جامد خال من أى تعبير: "لم يكن أداؤك جيدًا".

"أمازلت تفكر فى الأمس؟ ماذا بك؟ تكلم معى".

كنا نشعر بضيق كبير إزاء المقابلة الجافة مع ليزا براندت. فالأمر مختلف بين أن تجد شاهدة كهذه وتحصل منها على شىء، وبين أن تجرى تحقيقًا جادًا ولا تخرج منه بشىء.

أومأت برأسى: " أجل، أمس".

أسند سامبسون يده إلى السور ليجلس إلى جوارى على الرصيف ثم قال: " أليكس، عليك أن تنزل من قطار القلق".

فقلت له: " هذه كذبة كبيرة".

فقال: " كنت أظن أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لك، فى الآونة الأخيرة على الأقل".

فقلت: "هى كذلك بالفعل؛ فالعمل يسير بشكل طيب، بل أفضل مما كنت أتوقع".

"ما المشكلة إذن؟ هل المشكلة أن كل شىء على ما يرام؟ ما الذى يتعبك يا رجل؟".

كانت كل من الإجابة الطويلة والإجابة القصيرة تدور فى رأسى، ولكنى آثرت الإجابة القصيرة، فقلت: "ماريا".

أدرك ما كنت أقصده، وأدرك السبب أيضًا ثم قال: "هل ذكَّرك ما حدث بالأمس بها؟".

أجبته: " أجل، ذكرنى بها كثيرًا. أتذكُر الوقت الذى قتلت فيه؟ كانت هذه الفترة تشهد سلسلة من حوادث الاغتصاب المتسلسل آنذاك أيضًا، أتذكُر ذلك؟".

دار سامبسون بعينيه فى الفضاء قبل أن يجيب: "هذا صحيح، تذكرت ذلك عندما ذكرته الآن".

حككت مفاصل أصابعى التى تؤلمنى، ثم قلت: "على أية حال، هذا ما أقصده. أعانى من حالة انفصال كبير هذه الأيام، فكل شىء أفكر فيه يذكرنى بـ "ماريا"، وكل شىء أفعله يعيدنى إلى قضية قتلها. أشعر كأننى أمر بمرحلة تطهير، ولا أعرف ما يفترض بى فعله حيال ذلك".

انتظر سامبسون حتى أفرغ من كلامى، فهو يعرف دائمًا متى يتحدث ومتى يصمت. لم يكن لديه شىء آخر ليقوله فى هذه الآونة. وأخيرًا، أخذت نفسًا عميقًا، ثم نهضنا معًا وأخذنا نستأنف سيرنا على الرصيف.

سألته: "ماذا سمعت عن قاتل ماريا؟ هل لديك أى جديد؟ أم كان جيامتى يلعب بنا فقط؟".

"أليكس، لماذا لا تمضى قدمًا فحسب".

"جون، لو استطعت أن أمضى قدمًا لفعلت، حسنًا؟ وربما هذا ما أفعله الآن".

أخذ ينظر إلى حذائه لمسافة نصف شارع، قبل أن يجيبنى أخيرًا على مضض: "إذا علمت أى شىء عن قاتلها فستكون أول من يعلم".

الفصل ٥٧

توقف مايكل سوليفان عن تقبل أية إهانة من أى شخص عندما كان فى الرابعة عشر أو الخامسة عشر من العمر. وكان كل فرد فى عائلته يعلم أنه كان لدى جده جيمس مسدسًا، وأنه كان يحتفظ به فى الدرج الأسفل من منضدة الزينة التى فى حجرة نومه. وفى ظهيرة أحد أيام شهر يوليو، فى الأسبوع نفسه الذى طرد فيه من المدرسة، تسلل سوليفان إلى الحجرة وسرق المسدس من شقة جده.

أمضى بقية اليوم فى التسكع فى الأحياء المجاورة وهو يدس المسدس فى سرواله، مخبئًا إياه تحت قميصه الفضفاض. لم يكن يشعر بأية حاجة إلى الاستعراض بسلاحه أمام أى أحد، ولكنه وجد أن امتلاكه يروق له كثيرًا. غيَّر المسدس كل شىء بالنسبة له، فتحول من طفل وديع إلى فتى يافع لا يقهر.

ظل يتسكع حتى الثامنة مساءً تقريبًا، بعدها عاد إلى كونتين رود حيث محل والده. عاد إلى هناك عندما علم أن والده سيغلق المحل.

سمع إحدى أكثر الأغانى التى يكرهها، وهى أغنية إلتون جون" صخرة التمساح" "Crocodile Rock"، من مذياع سيارة أحد الأشخاص فى آخر الشارع، فأحس برغبة قوية فى إطلاق النار عليه، أيًا كان من يشغل هذا الهراء.

كان الباب الأمامى لمحل الجزارة مفتوحًا وعندما دخل سوليفان، لم ينظر إليه أبوه ولكن من المؤكد أنه قد رأى ابنه وهو يجتاز النافذة خارج المحل.

كانت كومة جريدة إيريش إيكو فى مكانها المعتاد بجوار الباب، وكان كل شىء دائمًا كما هو فى مكانه البغيض، كل شىء منظم ومرتب وكريه للغاية.

بادره والده بصوت غليظ: " ماذا تريد؟"، وكانت المكنسة التى يستخدمها ذات مكشطة حادة لإزالة الدهون الساقطة على أرضية المحل. وكان سوليفان يكره هذا العمل كثيرًا.

قال لوالده: " أريد التحدث إليك قليلاً".

"تبًا. أنا مشغول فى كسب العيش".

"أوه، هل هذا صحيح؟ مشغول فى تنظيف الأرضيات؟"، ثم أخرج ذراعه بحركة سريعة.

وكانت تلك المرة الأولى التى يضرب فيها سوليفان والده بالمسدس أعلى عينه اليمنى. ثم ضربه مرة أخرى على أنفه، ليسقط الرجل الضخم وسط النشارة وبقايا اللحم. أخذ يتأوه ويتلوى ألمًا وسط النشارة.

انحنى مايكل سوليفان على أرضية المحل وقال لوالده: "هل تعلم كم يمكننى إيذاؤك؟ هل تتذكر هذه الجملة يا كيفين؟ أنا أتذكرها جيدًا، ولن أنساها ما حييت".

"لا تنادنى بكيفين أيها الحقير".

ضرب والده مرة ثالثة بمقبض المسدس، ثم ركله بين فخذيه، ووالده يصرخ ألمًا.

أخذ سوليفان ينظر حول المحل بازدراء كبير، ثم ركل صندوقًا من صودا الخبز من نوع" ماكنامارا"، فقط لرغبته فى ركل شيء ما. بعد ذلك، وضع المسدس فى رأس أبيه وجذب زناده.

قال والده وهو يلهث وعيناه مملوءتان بالصدمة والخوف بعد أن أدرك الحقيقة المرة لما أصبح عليه ابنه:" أرجوك ألا تفعل. لا تفعل هذا يا مايكل".

جذب زناد مسدسه ثم حدثت جلبة صاخبة لارتطام الرصاصة بجسم ولكن لم يحدث أى انفجار مدو، ولم يتطاير مخ أبيه على أثر الطلقة، ثم ساد صمت رهيب، وكأنهما فى إحدى دور العبادة.

قال لوالده:" سأقتلك يومًا ما، ليس اليوم، ولكن عندما لا تكون متوقعًا الموت. سأقتلك يومًا ما عندما لا تريد أن تموت. ستموت ميتة شنعاء يا كيفين، وليس بمسدس كهذا".

ثم خرج من محل الجزارة، ليصبح هو جزار سليجو. وقبل ثلاثة أيام من إتمامه لعامه الثامن عشر عاد سوليفان وقتل والده. لم يقتله بمسدس، تمامًا كما وعده. ولكنه استخدم هذه المرة أحد سكاكين والده لتقطيع العظام، ثم التقط بعض الصور التذكارية.

الفصل ٥٨

بعيدًا فى ميريلاند؛ حيث كان يعيش هذه الأيام، احتفظ مايكل سوليفان بمضرب بيسبول. لم يحتفظ بأى مضرب؛ وإنما كان يحمل مضربًا من نوع "لويزفيل سلاجر" الممتاز، الخاص بمباراة فريق يانكز النهائية لعام ١٩٨٦، على وجه التحديد. وعلى الرغم من ولعه باقتناء الأشياء، فإنه كان يعتزم استخدام هذا المضرب لغرض ما فى نفسه.

قال سوليفان وهو يستعد لرمى الكرة من فوق رابية الرامى "هل أنت مستعد؟" دعنا نر ما يمكنك فعله أيها الرجل البدين. أنا أرتعد خوفًا وقلقًا من ضربتك. فلنر ما لديك".

كان من الصعب تصديق أن مايك الابن قد نضج يما يكفى ليلتقط الكرة بهذه المهارة، ولكنه فعل ذلك. وكانت انطلاقته رائعة بالفعل ـ لدرجة أن سوليفان لم يكن ليعرف أنها ستنجح

لولا أنه هو من علم الرمية للولد بنفسه.

ولكن لم يكن الجزار ليجامل أكبر أبنائه، وهذا ما كان سيعتبره الولد إهانة له. أرجح المضرب بقوة أكثر هذه المرة، ثم مال بجسمه بدرجة كبيرة قبل أن يضرب الكرة بمضربه ضربة مرضية، وكان يتخيل الكرة وكأنها رأس جون ماجيونى.

صاح سوليفان: "لقد ذهبت بعيدًا عن هنا!"، وأخذ يجرى مستعرضًا، بينما انطلق سيموس، ابنه الأصغر، بمحاذاة السور ليعيد الكرة إلى أرض اللعب. صاح سيموس وهو يلتقط الكرة حيث سقطت: "رمية موفقة يا أبى".

وهنا قال ابنه الأوسط جيمى بعدما خلع بالفعل قفازه وقناع الوجه: "ينبغى أن نذهب يا أبى. لابد أن نغادر المنزل قبل السادسة والنصف. أتذكر ذلك يا أبى؟".

وكان جيمى الأكثر رغبة فى الخروج الليلة، بعد سوليفان نفسه. وكان سوليفان قد اشترى لهم تذاكر لمشاهدة حفل فريق يو تو الغنائى فى مسرح فرست مارينر فى بالتيمور. ستكون ليلة رائعة، مليئة بالأنشطة الأسرية التى يفضلها سوليفان.

وفى طريقهم إلى الحفلة، ظل سوليفان يغنى مع مسجل السيارة حتى بدأ أولاده يتذمرون ويسخرون منه فى المقعد الخلفى.

قالت كايتلين: "أترون يا أولاد؟ يظن أبوكم أنه بونو آخر. ولكنه أشبه ما يكون ... بـ "رينجو ستار"؟".

عقب سوليفان وهو يضحك:" أمكم تغار فقط، فالدم الأيرلندى يجرى فى عروقى وعروقكم يا أطفالى، بينما هى لا يجرى فى عروقها إلا الدم الصقلى".

قالت: "أوه، صحيح، ولكن إليكم سؤالا: أيهما تفضلون الطعام الإيطالى أم الأيرلندى؟ أغلقت القضية".

صاح الأولاد ووقفوا إلى جانب أمهم.

سأل سيموس: "ما هذا يا أمى؟".

نظرت كايتلين، ثم أخرجت هاتفًا خلويًا صغيرًا من أسفل المقعد الأمامى. وما إن رآه سوليفان، حتى تقلصت معدته.

لم يكن هذا الهاتف إلا هاتف بينى فونتانا الذى أخذه سوليفان معه الليلة التى زار فيها بينى وظل يبحث عنه من حينها. ها هى الأخطاء تتوالى.

والأخطاء ستقتلك.

حافظ على رباطة جأشه ولم يتغير وجهه، ثم كذب عليهم قائلاً: " أراهن أن هذا هاتف ستيف باون".

سألته كايتلين: "من؟".

"ستيف باون، عميلى. كنت قد أوصلته إلى المطار عندما كان فى المدينة".

سألته كايتلين وملامح الحيرة تملأ وجهها:" لماذا لم يحاول استعادته؟".

لأنه ليس هناك شخص بهذا الاسم أصلاً.

واصل سوليفان ارتجاله: "ربما لأنه فى لندن. ضعيه فقط فى علبة السيارة".

الآن. وبعد حصوله على الهاتف الخلوى لـ "فونتانا"، أدرك ما يريد فعله به. وفى الحقيقة، لم يكن يطيق الانتظار حتى يشرع فى تنفيذ مخططه. أوصل الأسرة إلى أقرب نقطة من وجهتهم، ثم أوقف سيارته بجوار الرصيف.

" ها نحن قد وصلنا خدمة التوصيل من الباب للباب. لا أطيق الانتظار. سأوقف هذه السيارة الصغيرة وأقابلكم فى الداخل".

لم يستغرق وقتًا طويلاً ليجد مكانًا شاغرًا يوقف فيه سيارته. بحث لنفسه عن مكان يتمتع بالخصوصية وبتغطية شبكة قوية للهاتف الخلوى أيضًا. كان الرقم الذى يريده محفوظًا فى سجل المكالمات على الهاتف. اتصل بالرقم وهو يحدث نفسه: ينبغى أن يكون هذا جيدًا. والآن، أتمنى أن يجيب

الوغد الزنيم.

وأتمنى أن يتعرف على الرقم.

أجاب جون ماجيونى بنفسه. سأل: " من هذا؟"، وبدت عليه الرهبة بالفعل.

يا إلهى! الرجل بنفسه. لطالما كره كل منهما الآخر منذ أن كلف والد ماجيونى سوليفان للقيام ببعض المهام له.

"خمن يا صغير".

"ليست لدىَ أية فكرة. كيف حصلت على هذا الرقم؟ أيًا من كنت، فأنت فى عداد الأموات".

"إذن أظن أننا أصبحنا نشترك فى شىء ما".

بدأ الأدرينالين يتدفع فى دماء سوليفان، وأحس أنه لا يمكن لأحد أن يوقفه الآن. وكان الأفضل فى هذا الأمر: تحديد الهدف والتلاعب به حتى الوصول إليه.

"هذا صحيح يا صغير؛ فالصياد أصبح هو الفريسة. هذا مايكل سوليفان هل تتذكرنى؟ أتعلم؟ أنا فى الطريق إليك".

"الجزار؟ هل هذا أنت أيها الوغد؟ كنت سأقتلك على أية حال، ولكنى الآن سأجعلك تدفع الثمن غاليا لما فعلته مع بينى. أيها الوغد الزنيم، سأجعلك تتألم كثيرًا".

"ما فعلته مع بينى لا يمثل شيئا مقارنة بما سأفعله معك. سأقطعك نصفين بمنشار جزار، ثم أرسل نصفًا إلى والدتك، والنصف الآخر إلى زوجتك. سأجعل كونى تنظر إليه قبل أن أغتصبها أمام أطفالك. ما رأيك فى ذلك؟".

انفجر ماجيونى: "أنت ميت! أنت ميت! أنت ميت! وكل ما تهتم لأمره... ميت. سأصل إليك يا سوليفان".

"أجل، حسنًا، فلتنضم للقائمة".

أغلق الهاتف، ثم نظر فى ساعته. يبدو ذلك جيدًا التحدث مع ماجيونى بهذا الشكل. الساعة الآن السابعة وخمسون دقيقة. لن تفوته الفقرة الافتتاحية لعرض فريق يو تو.

الفصل ٥٩

انتهيت لتوى من آخر جلسات اليوم وأخذت أتصفح الملفات القديمة لقضية ماريا مرة أخرى، عندما سمعت طرقًا حادًا وغير متوقع على باب المكتب. ماذا الآن؟

فتحت الباب لأجد سامبسون واقفًا فى الردهة حاملاً تحت ذراعه كرتونة بها اثنتى عشرة زجاجة من المياه الغازية، وكان الصندوق يبدو صغيرًا قياسًا بحجمه. لابد أن شيئًا ما قد حدث.

قلت له: "آسف، لا أسمح بتناول المشروبات فى أثناء الجلسات".

"وهو كذلك. أسمعك. سأنصرف أنا وأصدقائى حالاً".

بادرته بالقول: "ولكن نظرًا لحاجتك الماسة إلى العلاج، سأسمح باستثناء هذه المرة".

ناولنى زجاجة من المياه الغازية عندما سمحت له بالدخول. لا شك أن شيئًا ما قد حدث؛ حيث إن سامبسون لم يأت إلى مكتبى من قبل.

قال:" المنظر هنا يبدو جميلاً بالفعل، مازلت مدينًا لك بنبات معلق أو ما شابه".

" لا تحضر إلىّ أيًا من مختاراتك الفنية، وفر علىّ ذلك".

وبعد ثلاثين ثانية، كانت تنبعث أنغام أغنية فريق كومودورز ـ من اختيار سامبسون ـ وكان سامبسون مستلقيًا على أريكتى. وبدا كأنه جالس على كرسى وليس أريكة نظرًا لضخامة حجمه.

ولكن قبل أن أسترخى، بادرنى بالسؤال:" هل تعرف كيم ستافورد؟".

تناولت رشفة من المشروب لأدارى ردة فعلى. وكانت كيم آخر مريضة جلست معها فى ذلك اليوم. يبدو أن سامبسون قد رآها وهى تغادر، ولكن كيف عرفها، ليست لدىّ أية فكرة.

"لماذا تسأل عن ذلك؟".

"أوه، أنا محقق شرطة... رأيتها بالخارج فقط. هذه السيدة من النوع الذى يصعب نسيانه. إنها صديقة جيسون ستمبل".

"جيسون ستمبل؟"، قالها سامبسون كأن من المفترض بى أننى أعرفه. والغريب أنى كنت أعرفه بالفعل، لكنى لا أعرف اسمه فقط.

كنت سعيدًا لأن كيم قد عادت لمزيد من الجلسات، ولكنها كانت لا تزال مصرة على عدم الكشف عن هوية خطيبها، على الرغم من أن سوء معاملته لها فى البيت كانت لا تزال مستمرة، بل وتزداد".

قال سامبسون: "إنه يعمل فى المنطقة السادسة. أعتقد أنه التحق بالقوة بعد تركك إياها".

"المنطقة السادسة؟ هل تقصد أنه شرطى؟".

"أجل، لا أحسده على ذلك، فالوضع متأزم هناك هذه الأيام".

بدأت أشعر بدوار فى رأسى وألم خفيف فى معدتى. أكان جيسون ستمبل شرطيًا؟.

سألت سامبسون: "ما أخبار قضية جورج تاون؟"، ربما لأمنعه من التمادى فى هذا الموضوع.

أجابنى:" لا جديد"، لينتقل بذلك إلى الموضوع الجديد قائلاً: "استجوبت ثلاثة من الضحايا الأربع المعروفات لدينا، ولكنى لم أخرج بشىء بعد".

"إذن لا أحد يتكلم على الإطلاق؟ بعد كل ما حدث لهن؟ يصعب تصديق ذلك، ألا تعتقد ذلك يا جون؟".

"نعم أظن ذلك. تحدثت مع إحداهن اليوم، تعمل نقيبة فى الشرطة، واعترفت لى بأن المغتصب هددها بإيذاء عائلتها. وحتى ذلك كان أكثر مما تريد قوله".

أكملنا شرب المياه الغازية فى صمت، وكان عقلى يدور بين قضية سامبسون وكيم ستافورد وخطيبها الشرطى.

فرغ سامبسون من تناول آخر زجاجة معه، ثم وقف وناولنى أخرى قبل أن يقول:" اسمعنى إذن، لدىّ مقابلة أخرى مع محامية تعرضت للاغتصاب. فرصة أخرى، لعلى أخرج منها بشىء هذه المرة".

قلت فى نفسى: أوه أوه، ها هى المتاعب تعود من جديد.

قال: "ظهيرة الاثنين؟".

أدرت الكرسى لأنظر فى مفكرة المواعيد على مكتبى. كانت مفتوحة بالفعل". اللعنة، أنا منشغل تمامًا طوال اليوم".

فتحت زجاجتى الثانية. تسلسل شعاع ضوء طويل من بين مصارع النوافذ الخشبية، تتبعت الشعاع ثم عدت بعينى إلى حيث يجلس سامبسون وهو يحدق فىّ. الرجل الجبل، كان ذلك أحد الأسماء التى أطلقها عليه ، وكان اسمه الثانى "تو جون".

سألته أخيرًا: "فى أى وقت ستقابلها يوم الاثنين؟".

نهض وضرب كوبه فى كوبى وهو يقول: "فى الثالثة. سأقلك إلى هناك. أتعلم! لقد كلفتنى للتو سبعة دولارات".

"كيف ذلك؟".

قال: "صندوق المياه الغازية، كنت سأشترى ست زجاجات فقط لو كنت أعلم أنك ستكون سهل المراس بهذا الشكل".

الفصل ٦٠

الاثنين، فى الثالثة عصرًا. لا ينبغى أن أكون هنا، ولكنى هنا على اية حال.

على ما أذكر، كانت شركة سميث، وكيرتيس آند برنان للشئون القانونية من الشركات الكبرى؛ حيث كانت أرضية الاستقبال المكسوة بالخشب الغالى وإصدارات المجلات الشهيرة من أمثال "جولف ديجست"، و"تاون آند كانترى"، و"فوربس" الموجودة على الطاولات الجانبية تتحدث عن نفسها: لابد أن عملاء هذه الشركات ليسوا أناسًا عاديين مثلنا.

كانت مينا ساندرلاند شريكة صغيرة فى الشركة، وكانت أيضًا ضحية الاغتصاب الثالثة التى نعرفها، الثالثة من حيث الترتيب الزمنى. بدت كأنها تندمج مع طبيعة المكتب، بحُلة العمل الرمادية التى ترتديها وتحفظها المهذب الذى

يأتى أحيانًا من طريقة التربية الجنوبية. أخذتنا إلى حجرة مؤتمرات صغيرة وأغلقت المصارع العمودية على الحائط الزجاجى قبل أن تأذن ببدء المحادثة.

استهلت حديثها معنا بالقول: "يؤسفنى أنكما تضيعان وقتكما هنا. ليس لدىَّ جديد لأقوله لكما، قلت ذلك للمحققين الآخرين مرات عديدة".

ناولها سامبسون ورقة، ثم قال: " كنا نتساءل عما إذا كانت هذه قد تجعلك تتكلمين".

"ما هذه؟".

"هذه مسودة تصريح صحفى. إذا أذيعت أية معلومات، فسيكون هذا التصريح".

أخذت تلقى نظرة عامة على البيان وهو يستمر فى الشرح: "سنذكر فيه أن التحقيقات تمضى قدمًا وأنه لا أحد من المجنى عليهن تريد أن تكشف عن هوية المعتدى أو تشهد ضده".

سألته وهى تنظر من خلف الورقة: "هل هذا صحيح بالفعل؟".

هم سامبسون بالإجابة، ولكن واتتنى فجأة فكرة فقاطعته. أخذت أتظاهر بالسعال. بدت حركة سخيفة وغير متقنة، ولكنها حققت هدفها.

سألت مينا ساندرلاند: "آسف للإزعاج، ولكن هل يمكننى أن أزعجك وأطلب منك كوبًا من الماء؟".

وما إن غادرت الحجرة، حتى التفت إلى سامبسون وقلت له: " لا أعتقد أنها ينبغى أن تعرف أن الأمر يعود إليها".

أومأ سامبسون برأسه قائلاً: "حسنًا، أعتقد أنى أوافقك الرأى، ولكن إذا سألت ــــ"

قاطعته: "دعنى أتول هذا، لدىَّ حدس ما نحوها". وكان "حدسى" الشهير جزءًا من سمعتى، ولكن ذلك لا يعنى أنه كان على سامبسون أن يجارينى. فلو كان هناك المزيد من الوقت

للمناقشة لساورنى القلق حيال هذا، ولكن مينا ساندرلاند عادت بعد لحظة. أحضرت معها زجاجتين من ماء فيجى وكوبين، وهى ترسم ابتسامة شجاعة على وجهها.

وبينما كنت أشرب الماء الذى ناولتنى إياه، لاحظت أن سامبسون يجلس فى مقعده، وكانت تلك هى الإشارة المتفق عليها بيننا لتولى الأمر.

قلت لها: "مينا، نريد أن نصل إلى حل وسط معك، بين ما تودين قوله وما نريد أن نسمعه".

فسألتنى: "ماذا تقصد؟".

"أقصد أننا لا نحتاج بالضرورة إلى وصف لهذا الرجل كى نمسك به".

اعتبرت صمتها ضوءًا أخضر وموافقة ضمنية لأمضى فى حديثى، ولكنها موافقة مؤقتة.

"أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة، كلها يجاب عنها بنعم أو لا. يمكنك الإجابة بكلمة واحدة أو الاكتفاء بهز رأسك إذا أردت. وإذا لم يرق لك أى سؤال، فلا بأس من الامتناع عن الإجابة عنه والانتقال لغيره".

رأيت ابتسامة صغيرة تحاول الخروج من جانبى فمها. وكان أسلوبى سلسًا، وكانت هى تعلم ذلك. ولكنى أردت أن أبقى الموقف خاليًا من أى تهديد قدر الإمكان.

ألقت جديلة طويلة من شعرها الأشقر خلف أذنها، ثم قالت: "استمر، للحظات على الأقل".

"فى ليلة الاعتداء، هل هددك الرجل بأشياء معينة ليمنعك من التحدث بعد انصرافه؟".

أومأت برأسها أولاً، ثم عبرت عن إجابتها بصيغة لفظية قائلة: "نعم".

وفجأة، راودنى الأمل فسألتها: "هل هددك بإيذاء أشخاص آخرين تعرفينهم؟ أسرتك، أصدقائك، أو ما شابه؟".

"نعم".

"هل اتصل بك منذ تلك الليلة؟ أو جعلك تعرفين بوجوده حولك بأية طريق أخرى؟".

"لا. ظننت أنى رأيته مرة أخرى فى شارعى ذات مرة. ولكن ربما لم يكن هو".

"هل اقتصر على التهديدات اللفظية فقط؟ هل ثمة أمر آخر قام به ليتأكد من لزومك الصمت؟".

"نعم".

أستطيع القول بأنى بدأت أضع يدى على شىء ما. طأطأت مينا ساندرلاند رأسها لثوان قليلة ثم نظرت إلىّ مرة أخرى. تلاشى التوتر الذى كسا وجهها ليحل مكانه تعبير آخر يوحى بالعزيمة الممزوجة بالارتياح.

"أرجوك مينا، هذا مهم".

قالت: "أخذ مفكرتى الإلكترونية"، ثم سكتت عن الكلام هنيهة ثم عادت بعدها لتقول: "كانت تحتوى على كل بياناتى الشخصية، العناوين، وكل شىء عن أصدقائى وعائلتى فى ويستشستر".

"أتفهم الموقف".

وكنت أتفهمه، بالفعل وبدا أنى كنت محقًا فى تقييمى الأولى لشخصية هذا المتوحش.

بدأت أعد حتى عشرة فى صمت بينى وبين نفسى. وعندما وصلت إلى ثمانية، تكلمت مينا مرة أخرى".

قالت: "كانت هناك صور".

"معذرة؟ صور؟".

"صور فوتوغرافية لأناس قتلهم. أو على الأقل، قال إنه قتلهم. و ـــ"

صمتت لحظة كى تستجمع قواها لتقول الجزء التالى "وَمثَّل بهم. تحدث عن استخدام مناشير جزار ومشارط جراحية".

"مينا، هل يمكنك إخبارى بأى شىء آخر عن تلك الصور التى عرضها لك؟"

"جعلنى أنظر إلى العديد منها، ولكنى لا أذكر بالفعل إلا الصورة الأولى. كانت أسوأ شىء رأيته فى حياتى". بدت الذكرى المفاجئة لهذه الصورة فى عينيها، ورأيت الرعب يتجسد فيها. وهنا غاب تركيزها.

وبعد عدة ثوان، تمالكت نفسها وتحدثت مرة أخرى. قالت: "كانت يداها ـــ"، ثم سكتت عن الكلام.

"ماذا عن يديها يا مينا؟".

تابعت بصوت خافت أقرب إلى الهمس: "لقد قطع كلتا يديها. وفى الصورة كانت لا تزال حية. كانت تصرخ بشدة". وصلنا إلى خط الخطر، شعرت به فى الحال ثم أردفت قائلة: "قال إن اسمها بفرلى، وكأنهما صديقان قديمان".

قلت لها برفق: "حسنًا، يمكننا التوقف هنا إذا أردت".

فقالت: "أريد أن أتوقف، ولكن".

"تابعى يا مينا".

"تلك الليلة... كان معه مشرط. وكانت به آثار دماء بالفعل".

الفصل ٦١

حصلنا على معلومات كثيرة، ولكنها أيضًا سيئة. يمكن أن تكون كذلك على أية حال.

فإذا كان وصف مينا ساندرلاند دقيقًا ـ ولماذا لا يكون كذلك؟ ـ فإننا بذلك لا نتحدث عن اغتصاب متسلسل فحسب، بل إننا أمام قضية قتل متسلسل. وفجأة، تذكرت مقتل ماريا، وسلسلة جرائم الاغتصاب التى شهدتها هذه الفترة. حاولت أن أخرج ماريا من عقلى فى الوقت الحالى، كى أركز فى قضية واحدة فقط.

كتبت كل ما استطعت تذكره بعد لقاء مينا، بينما قام سامبسون بتوصيلى إلى البيت بسيارته. وكان سامبسون قد دون ملاحظاته الخاصة فى أثناء المقابلة، ولكن تسجيل هذه الأمور على الورق بدلاً من الاحتفاظ بها فى عقلى يساعدنى

أحيانًا فى تجميع أوراق القضية".

كان تقييمى الأَوْلىُّ لشخصية المغتصب يتضح أكثر فأكثر. الوثوق فى الانطباعات الأولى، ألم يكن ذلك كل ما يؤكد عليه الكتاب الأكثر مبيعًا "*Blink*"؟ وكانت الصور التى وصفتها مينا ـ هذا النوع الغريب من التذكارات ـ شيئًا مشتركًا فى قضايا القتل المتسلسل بالطبع. فالصور الفوتوغرافية تساعده على التغلب على الصعوبات التى تواجهه فى أوقات ضعفه. كما كان يستخدم هذه الصور بطريقة جديدة ومروعة، كتذكار، ليبقى ضحاياه الذين على قيد الحياة حيث يريدهم وهم مشلولون من الخوف.

وفى أثناء مرورنا فى شارع ساوث إيست، قام سامبسون أخيرًا بكسر جدار الصمت الذى خيم على السيارة؛ حيث قال لى: "أليكس، أريدك أن تشترك فى هذه القضية. كمستشار، أو كما تحب أن تسميه أنت".

نظرت إليه وأنا أقول: "اعتقدت أنك قد تثور على لأنى توليت زمام الأمور قليلاً هناك".

هز كتفيه ثم قال: "مستحيل، فأنا لا أجادل فى النتائج. علاوة على ذلك، أنت منخرط بالفعل فى هذه القضية، أليس كذلك؟ وقد تتقاضى أجرًا على هذا. لم يعد بإمكانك الابتعاد عن القضية الآن، حتى لو حاولت ذلك".

هززت رأسى وعبس وجهى، ولكن فقط لأنه كان محقًا. شعرت بطنين مألوف فى عقلى يبدو أنى بدأت أفكر لاإراديًا فى القضية. وكانت هذه إحدى الأشياء التى تجعلنى بارعًا فى عملى، ولكنها كانت فى الوقت نفسه السبب الذى جعلنى أدرك استحالة الانخراط فى التحقيق نوعًا ما.

سألته: "كيف سأخبر جدتى؟"، وهو ما اعتبرته موافقة ضمنية.

"أخبرها أن القضية فى حاجة إليك. أخبرها أن سامبسون فى حاجة إليك"، اتجه يمينًا إلى شارع الخامس، وبدأ منزلى يظهر أمامى ثم أردف قائلاً : "من الأفضل أن تفكر فى طريقة ما بسرعة، فمن المؤكد أنها ستشتم الخبر منك. ستراه فى عينيك".

"هل تريد أن تدخل".

"محاولة جيدة"، ثم ترك السيارة دائرة بعدما أوقفها إلى جانب الرصيف.

قلت له: "ها أنا ذاهب، ولتتمن لى حظا طيبًا مع جدتى".

"مرحى يا صاح، لم يقل أحد إن العمل فى الشرطة ليس خطيرًا".

الفصل ٦٢

درست القضية تلك الليلة فى مكتبى بالسقيفة. وفى وقت متأخر من الليل، قررت الاكتفاء بهذا القدر.

نزلت إلى الطابق السفلى وأخذت مفاتيحى وكنت معتادًا فى معظم الليالى على أخذ جولة سريعة بالمرسيدس الجديدة، سيارة العبور الخاصة بى. كنت أشعر كأنى أحلم تمامًا وأنا أقودها، وكانت المقاعد مريحة كأنها مقاعد حجرة المعيشة. فقط أدر مشغل الأقراص المدمجة واسترخ فى المقعد. كنت أستمتع كثيرًا بهذه الجولة.

وما إن عدت إلى فراشى تلك الليلة حتى عادت بى أفكارى إلى مكان مازلت أشعر بحاجة إلى زيارته بين الحين والآخر. مكان ذى قداسة خاصة؛ حيث قضيت شهر العسل مع ماريا. ربما كانت أفضل عشرة أيام فى حياتى. كان كل شىء حيًا

وحاضرًا فى ذهنى.

أشعة الشمس تسقط تحت أشجار النخيل مباشرة وهى تغوص باتجاه الأفق الأزرق خلف شرفة فندقنا. البقعة الخالية بجوارى فى الفراش لا تزال دافئة حيث كانت ترقد ماريا منذ دقيقة واحدة.

إنها واقفة الآن أمام المرآة.

جميلة.

لا ترتدى أى شىء سوى أحد قمصانى البيضاء، مفتوح من الأمام، وتستعد للعشاء.

تقول دائمًا إن ساقيها نحيلتان جدًا، ولكنى أجدهما طويلتان وجميلتان، وكنت أشعر بالإثارة لمجرد النظر إليهما والنظر إليها فى المرآة.

كنت أطيل النظر إلى ماريا وهى تجمع شعرها الأسود اللامع وتمشطه برفق. كان ذلك يُظهر رقبتها الطويلة الجميلة. يا إلهى، كم أحبها.

قلت لها: "افعلى ذلك مرة أخرى".

إنها تدللنى دون أن تنطق بكلمة واحدة.

وعندما مالت برأسها لتضع قرطها، رأتنى عيناها فى المرآة.

استدارت ناحيتى وهى تقول: "أحبك يا أليكس، لن يحبك أحد مثلى قط".

التقت عيناها بعينىَ، وأجزم أنى أستطيع أن أرى فيهما ما تشعر به فى داخلها. طريقة تفكيرنا متقاربة إلى حد لا يصدق. أمد يدى من الفراش لها، وأقول —

الفصل ٦٣

شىء ما ينبع من القلب.

ولكن لا أستطيع أن أتذكره.

قمت وأنا وحيد تمامًا فى فراشى متضايقًا من تلك الحالة التى بين اليقظة والنوم، التى كنت فيها للتو. تعثرت ذاكرتى فى بقعة خالية فى الفراش، مثل حفرة فى الأرض لم تكن موجودة من قبل.

وكانت تفاصيل شهر العسل الذى قضيناه فى باربادوس حاضرة دائمًا ومتبلورة جدًا فى عقلى. لماذا لم أستطع تذكر ما قلته لماريا؟

كانت الساعة بجوارى تشير إلى الثانية والربع.

وكنت لا أزال مستيقظًا على الرغم من ذلك.

أرجوك يا إلهى، هذه الذكريات هى كل ما تبقى لى، هى كل ما أملك، فلا تحرمنى منها.

أضأت النور.

لم يعد البقاء فى الفراش خيارًا مطروحًا الآن، فقمت وتجولت فى الردهة وأنا أفكر فى النزول لأسفل والعزف على البيانو.

وعند أول درجة من السلم، توقفت ويدى على عمود الدرابزين، حيث أوقفنى الصوت الرقيق لأنفاس آلى حيث أنا توجهت إلى حجرته وأخذت أنظر إلى ولدى الصغير وأنا على باب الحجرة.

كان مجرد كومة صغيرة تحت الغطاء، وإحدى قدميه عارية خارج الفراش، وكانت أنفاسه على شكل شخير بسيط.

كانت الإضاءة الليلية الخافتة على حائط الحجرة تمكننى بالكاد من رؤية وجهه. كان حاجبا أليكس الصغير معقودين وكأنه مستغرق فى التفكير، تمامًا كما أبدو أنا فى بعض الأحيان.

وعندما دخلت تخت الغطاء، دس أنفه فى صدرى وغاص برأسه بين ذراعى.

قال وهو بين النوم واليقظة: " أهلاً يا أبى".

همست إليه: " أهلاً يا صغيرى، عد إلى النوم".

"هل رأيت حلمًا سيئًا فى المنام؟".

ابتسمت لهذا السؤال، فهو السؤال نفسه الذى طرحته عليه مرات عديدة فى الماضى. الآن فقط، عادت إلىّ الكلمات مثل قطعة منى كنت قد افتقدتها.

لقد أعاد إلى كلماتى، فقلت له كلمات ماريا: " أحبك يا آلى. لن يحبك أحد مثلى قط".

كان الولد ساكنًا تمامًا، ربما يكون نائمًا بالفعل. رقدت هناك وأنا أضع يدى على كتفه حتى عادت أنفاسه إلى حالتها الهادئة المنتظمة التى كانت عليها من قبل. ثم عدت إلى مكان ما بالداخل هناك، لأكون مع ماريا مرة أخرى.

الفصل ٦٤

كانت ذكريات مايكل سوليفان مع والده دائمًا هى أكثر شيء يسيطر عليه وهو مع أولاده؛ محل الجزارة الأبيض اللامع، المبرد الذى فى الخلف، رجل العظام الذى يأتى مرة كل أسبوع ليأخذ عظام الذبائح، رائحة الجبن الأيرلندى الكاريجالينى وأطباق البودنج البيضاء والسوداء.

سمع سوليفان صوتًا يناديه: "مرحى أيها الرامى". فأعاده بقوة إلى الحاضر إلى أرض الملعب بجوار مسكنه فى ميريلاند.

ثم سمع: "هذا الرجل لا يمكنه تنفيذ ضربة بسيطة! هذا الرجل لا شيء! يالك من رجل ساذج!".

كان سيموس وجيمى حديث الأسرة فى لعبة البيسبول. تأهب مايكل الصغير وأخذ يركز كعادته. رأى سوليفان الرغبة فى هزيمته ـ الآن وإلى الأبد فى عينى ولده الأكبر الزرقاوين اللامعتين.

ضرب ابنه الكرة وتركها تطير فى الهواء. نفذ كرة مقوسة خاطفة، أو ربما كانت قوية ساقطة. انطلق سوليفان بأقصى سرعته وأخذ يصدر زفيرًا عاليًا وهو يحاول الإمساك بالكرة، ثم سمع صوت الكرة وهى تسقط فى قفاز الالتقاط الخاص بجيمى خلفه. يا لهذا الولد العنيد لقد زاد من سخونة اللعب!

اندلع شيء ما مثل الجحيم على الجانب الآخر المهجور من ملعب "أميركان ليجون"، حيث يلعبون. جرى جيمى، الملتقط، حول والده على شكل دائرة وهو يمسك بالكرة فى الهواء.

وكان مايكل الصغير هو الوحيد الذى بقى هادئًا وساكنًا. ابتسم ابتسامة عريضة، ولكنه لم يغادر رابية القذف، ولم يحتفل مع أخويه.

اكتفى فقط بأن رمق والده بنظرات حادة، وهو الذى لم يفز عليه أبدًا من قبل.

أخذ يستجمع قوته ويستعد لإنهاء اللعبة ـ ولكنه توقف فجأة.

سأل والده وهو ينظر إليه: "ما هذا؟!".

نظر سوليفان إلى الأسفل ورأى شيئًا ما يتحرك على صدره. رأى النقطة الدقيقة الحمراء لمصوب الليزر.

ألقى بنفسه فى التراب وانبطح على أرضية الملعب.

الفصل ٦٥

تهشم مضربه العتيق من نوع لويزفيل، الذى كان لا يزال فى يده، فور ارتطامه بالأرض. ثم سمع صوت ارتطام معدنى؛ حيث ارتطمت الرصاصة بالمصعد الخلفى للملعب. أطلق شخص ما عليه النار! أتراهم رجال ماجيونى؟ ومن غيرهم؟

صاح بأولاده: "اختبئوا يا أولاد الآن! اجروا! اجروا! اجروا!".

لم يكن الأولاد بحاجة إلى أن يكررها مرتين. جذب مايكل الصغير ذراع أخيه الأصغر، ثم انطلق ثلاثتهم يبحثون لهم عن مخبأ. يا لهؤلاء الأوغاد الصغار فائقى السرعة، إنهم يجرون كأنهم سرقوا لتوهم محفظة شخص ما.

انطلق الجزار بأقصى سرعته فى الاتجاه الآخر، قاصدًا بذلك أن يصرف الرصاص عن أولاده.

وكان يريد الوصول إلى المسدس الذى بسيارته!

كانت سيارته الهامفى متوقفة على مسافة ستين ياردة، فبدأ يجرى فى خط مستقيم حتى يصل إليها فى أقل وقت ممكن. أطلقت عليه رصاصة أخرى اقتربت منه كثيرًا هذه المرة لدرجة أنه سمع أزيزها وهى تخترق الهواء بجوار ذقنه مباشرة.

كانت طلقات الرصاص تأتى من الغابة التى تقع على يسار الملعب، بعيدًا عن الطريق. وكان هذا هو كل ما عرفه، ولم يهتم بالنظر حوله ليعرف المزيد ـ ليس بعد.

وما إن وصل إلى السيارة الهامفى حتى أسرع بفتح باب الركاب وغاص بداخلها. ليتبعه مباشرة صوت انفجار وتحطم زجاج السيارة .

ظل الجزار منبطحًا ووجهه إلى دواسة السيارة حتى يحتمى أسفل مقعد السائق.

كان ما حدث هناك بمثابة خرق لوعده مع كايتلين. جذب زناد سلاحه المحشو بالرصاصات وأطل برأسه أخيرًا.

كان هناك اثنان منهم يخرجان من وراء الأشجار الآن. اثنان من أفضل رجال ماجيونى بالتأكيد. لقد أتيا إلى هنا للقضاء عليه، أليس كذلك؟ وربما للقضاء على أطفاله أيضًا.

فتح باب السائق، ثم ارتمى خارجه متدحرجًا بين الحصى والتراب. لاحت له الفرصة لينظر من أسفل السيارة فرأى زوجًا من السيقان تتقدم نحوه عدوًا.

لا وقت للتفكير العميق أو أى نوع من التخطيط. أطلق رصاصتين أسفل هيكل السيارة. أخذ رجل ماجيونى يعوى ألمًا من الرصاصة التى أصابت كاحله وكانت أشبه بزهرة حمراء متفتحة.

سقط على الأرض بشدة، فأطلق الجزار النار مرة أخرى، ليصيبه مباشرة فى وجهه الذى اكتسى بالصدمة والرعب. لم يخرج الوغد رصاصة أخرى، ولا كلمة، ولا حتى فكرة. ولكن كان ذلك آخر ما يقلقه الآن.

"أبى! أبى! النجدة يا أبى!".

كان هذا صوت مايكل الصغير - يأتى من الجانب الآخر من المتنزه، وكان مليئًا بالرعب والذعر.

هب سوليفان واقفًا، ليرى القاتل المحترف الآخر داخل حفرة الكرات مع أبنائه، ربما على مسافة خمس وسبعين ياردة. أشهر مسدسه، ولكنه أدرك أنه بذلك سيطلق النار على أولاده أيضًا.

قفز داخل السيارة الهامفى وانطلق مسرعًا.

الفصل ٦٦

انطلق بسيارته، وكأن حياة أولاده تتوقف عليها، ويحتمل أن يكون هذا صحيحاً؛ حيث إن ماجيونى كان من ذلك النوع الجبان الذى لا يتورع عن قتل عائلتك. ثم ألقى بقبعته من النافذة، حتى لا يعوقه شىء عن إطلاق النار بدقة. بات هذا وشيكاً. لم يكن ممكناً أن تتوقع النتيجة، حان وقت الإثارة والتشويق!

كان القاتل المحترف يعدو عبر أرض الملعب، رآه سوليفان وهو يتحرك الآن، فمن الواضح أن الرجل كان رياضياً بارعاً فى شبابه، وحتى فترة ليست بالبعيدة أيضاً.

أطل مايكل الصغير من درج المخبأ وكان الطفل يتمتع بذكاء حاد، ولكن ذكاءه لم يكن ليفيده الآن. صاح به سوليفان:

"انبطح يا مايكل! انبطح الآن!"

وقد عرف القاتل المحترف أن سوليفان كان آتيًا من خلفه.

وأخيرًا توقف واستدار ناحية سوليفان ليطلق عليه النار.

خطأ!

ربما يكون قاتلاً.

اتسعت عيناه فزعاً قبل أن تصطدم به السيارة الهامفى وتعلقه من صدره، وهى تسير بسرعة خمسين ميلاً فى الساعة أو أكثر. لم تبطئ السيارة حتى منحت القاتل المحترف توصيلة سريعة، وذلك قبل أن تدهسه وتحشره فى سياج المصد الخلفى.

صاح سوليفان: "هل كلكم بخير يا أولاد؟"، وهو يثبت عينيه على القاتل، الذى لم يكن يحرك ساكناً بعدما انبرى جسده على السور وكاد يخرج من بين فراغات السياج.

أجابه مايكل الصغير الذى بدا مهزوزا، ولكنه كان لا يزال قادرا على السيطرة على مشاعره: "نحن بخير".

أخذ سوليفان يحوم حول الوغد ليرى ماذا تبقى منه على أية حال. كان الشىء الوحيد الذى يبقيه على قدميه هى الشطيرة المعدنية التى علق بداخلها وكانت رأسه تتدلى بتراخ من أحد الجانبين. بدا كأنه يتفقد المنظر بعينه المتبقية التى لم تحجبها الدماء بشكل كامل.

ذهب سوليفان ليحضر ما تبقى من مضربه اللويزفيل الملقى على أرضية الملعب.

أرجحه مرة أومرتين، ثم أخذ يؤرجحه مرات عديدة وهو يصيح كل مرة بصيحة مختلفة.

"لا

"تعبث

"مع

"عائلتى!

"أبداً!

"أبداً!

"أبداً!".

أخطأت آخر ضربة الرجل، فأحدثت صوتاً عالياً عند اصطدامها بمقدمة السيارة فاق على أثرها من نوبة العنف التى أخذته.

ركب السيارة وعاد الى حيث ينتظر أولاده مثل زمرة من الأحياء الأموات فى جنازة شخص ما. وعندما ركبوا السيارة، لم يتكلم أى منهم، ولكن أحداً منهم لم يبك أيضاً.

طمأنهم بالقول: "لا بأس الآن، لقد انتهى الأمر يا أولاد. سأعتنى بهذا. هل تسمعوننى؟ أعدكم بذلك. أقسم على هذا بروح أمى الراحلة!".

وسوف يفى بوعده. لقد حاولوا النيل منه ومن عائلته، وسيحاول الجزار النيل منهم.

من المافيا.

من جون ماجيونى.

الفصل ٦٧

كانت لدىَّ جلسة أخرى مع كيم ستافورد. وعندما دخلت، كانت ترتدى نظارة شمسية سوداء، وبدت مثل شخص متنكر يحاول الهرب من شيء ما. تقلصت معدتى وكادت تسقط على أرضية المكتب المكسوة بالحجر الرملى الأسود. ما أزعجنى هو أن حياتى المهنية أصبحت تتعارض مع هذه القضية.

الآن، وبعدما عرفت من يكون خطيب كيم، أصبح من الصعب علىَّ أن أحترم رغبتها فى إبقائه بعيداً عن هذا. كنت أريد أن أواجه هذا الحثالة بأسوأ طريقة ممكنة.

قلت لها فى بداية الجلسة: " كيم، هل يحتفظ سام بأية أسلحة فى الشقة؟"؛ حيث سام هو الاسم الذى اتفقنا على استخدامه فى جلساتنا، وهو نفسه اسم كلب ضخم كان قد عضها وهى فتاة صغيرة.

أجابت: " يحتفظ بمسدس فى منضدة السرير".

حاولت ألا أبدى القلق الذى كنت أشعر به، وذلك المنبه الذى كان يرن بصوت صاخب داخل عقلى، قلت لها: "هل سبق أن أشهر المسدس فى وجهك؟ وهل هدد باستخدامه؟".

قالت وهى تنسل نسيج جونلتها بأظافرها: "مرة واحدة فقط. وكان ذلك منذ فترة طويلة. ولو كنت شككت فى أنه كان جاداً، لتركته من حينها ".

" كيم، أود التحدث معك بشأن خطة أمان".

" ماذا تقصد؟ ".

أجبتها: "أقصد اتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية؛ كالاحتفاظ ببعض المال معك، والاحتفاظ بحقيبة ملابسك مجهزة فى مكان ما، وإيجاد مكان ما يمكنك اللجوء إليه هذا إذا كنت بحاجة الى المغادرة بشكل سريع".

لست متأكداً لماذا خلعت نظارتها الشمسية فى هذه اللحظة، ولكن أظن أنها فعلت ذلك كى ترينى الكدمة التى تغطى عينها وقالت: " لا يمكننى فعل ذلك يا دكتور كروس؛ لأنى لو أعددت خطة، فسوف أطبقها. وعندئذ، أعتقد أنه سيقتلنى فعلاً".

بعد ما فرغت من جلستى الأخيرة ذلك اليوم، تفقدت بريدى الصوتى قبل أن أغادر المكتب. كانت هناك رسالة واحدة فقط من كايلا.

"مرحبًا، هذا أنا. حسنًا، تعال فورًا لأن جدتك جعلتنى أعد العشاء لنا جميعًا الليلة. فى مطبخها! إن لم أكن خائفة بعض الشيء لقلت إنه لا يمكننى الانتظار. والآن، علىَّ إجراء مكالمتين هاتفيتين بالمنزل، ثم أقوم بجولة على المحلات. بعد ذلك، قد أطلق النار على نفسى فى ساحة الانتظار. وإذا لم يحدث أى من هذا، فسأقابلك فى البيت حوالى الساعة السادسة. أى فى منزلك".

كانت الساعة السادسة بالفعل عندما تلقيت الرسالة. حاولت أن أخرج الجلسة المتعبة مع كيم ستافورد من رأسى، ولكنى لم أنجح بشكل كامل.

تمنيت أن تتحسن أحوالها، ولم أكن متأكدًا مما إذا كان ينبغى علىّ أن أتدخل فى الأمر بعد الآن. وعندما وصلت إلى الشارع الخامس وأسرعت لأدخل المنزل، كانت كايلا محتجزة فى المطبخ، وكانت ترتدى مريول جدتى المفضل وتضع ضلعًا مشويًا فى الفرن.

كل هذا وجدتى تجلس منتصبة على منضدة المطبخ، وأمامها كوب من العصير لم تمسه يدها. كان هذا المنظر مثيرًا بحق.

كان الأولاد أيضًا يتحركون جيئة وذهابا فى المطبخ، ربما ليروا كم من الوقت ستظل جدتهم جالسة دون حراك.

ابتدرتنى جانى بالسؤال: "كيف كان يومك يا أبى؟ وما هو أفضل شىء حدث لك اليوم؟".

ابتسمت أنا وهى ابتسامة عريضة على إثر ذلك؛ حيث اعتدنا على طرح هذا السؤال على مائدة العشاء فى بعض الأحيان. وكنا نفعل ذلك منذ عدة سنوات.

أخذت أفكر فى كيم ستافورد، ثم انتقلت إلى التفكير فى قضية اغتصاب جورج تاون ورد فعل جدتى إزاء عملى فيها. أعادنى التفكير فى جدتى إلى الحاضر، إلى الإجابة عن سؤال جانى.

أجبتها: "حتى الآن؟ هذا هو أفضل شىء، أن أكون هنا معكم".

الفصل ٦٨

كانت الأوضاع تزداد سخونة الآن.

كان الجزار يكره الشاطئ، ويكره الرمال، ورائحة الماء المالح، والمرور المزدحم، وكل شىء يتعلق بالذهاب إلى شاطئ البحر القذر. أما كايتلين والأولاد، وفيما يخص رحلاتهم الصيفية إلى كيب ماى ـ فكان بإمكانهم أن يقوموا بها أو يؤجلوها أو حتى يتركوها تماما.

إذن فالعمل، والعمل فقط، هو ما أحضره إلى الشاطئ، وهو ما جعله يقطع كل هذه المسافة إلى ساوث جيرسى بدافع الانتقام من جون ماجيونى. وكان كل منهما يكره الآخر منذ أن استقر والد ماجيونى على هذا المجنون الأيرلندى ليكون قاتله المأجور المفضل. بعد ذلك صدرت الأوامر إلى سوليفان بقتل أحد المقربين إلى ماجيونى الصغير، فنفذ الجزار المهمة

بحماسته المعهودة، وقطع ريكو مارنتشى إربًا.

عمد جون ماجيونى إلى عدم الظهور كثيرًا مؤخرًا ـ ولا عجب فى ذلك ـ ومن ثم تغيرت خطة الجزار قليلاً، للوقت الراهن فقط. إن لم يكن بإمكانه قطع الرأس الآن، فلا مانع أن يبدأ بجزء آخر من الجسد.

وهذا الجزء، فى هذه الحالة، كان يدعى دانتى ريتشى، وهو أصغر أفراد عصابة ماجيونى، وأكثر المفضلين لدى زعيم العصابة الذى كان يعامله كأحد أبنائه. والطريف أن جون ماجيونى لم يكن يتصرف فى أى شىء دون الرجوع أولاً إلى دانتى.

وصل سوليفان إلى شاطئ مدينة مانتولوكينج ـ نيو جيرسى ـ قبل الغروب مباشرة. وفى أثناء مروره ببارنجات باى، كان المحيط من بعيد يبدو أرجوانيًا إلى حد كبير منظر جميل يمكنك التقاط صور له إذا كنت تحب هذا النوع من الصور التذكارية. أحكم سوليفان إغلاق نوافذ السيارة أمام الهواء المشرب بذرات الملح. ولم يكن يطيق صبرًا حتى ينتهى من مهمته ويغادر هذا المكان الكريه.

كانت المدينة بأكملها تقع على مساحة من الأرض لا يتعدى عرضها الميل، ولم يكن من الصعب العثور على منزل ريتشى الكائن فى شارع أوشن أفينيو. اجتاز بسيارته البوابة الأمامية، ثم أوقفها عند منتهى الطريق، وعاد سائرًا على قدميه مسافة خمسة وسبعين قدمًا.

بدا أن ريتشى كان مهتمًا كثيرًا بنفسه؛ حيث كان منزله يشبه إلى حد كبير المنازل الفخمة فى الحقبة الاستعمارية: الثلاثة طوابق، خشب الأرز البنى، الصيانة الكاملة لجميع أركانه، وكونه يطل مباشرة على البحر. هذا بالإضافة إلى الجراج الخاص المكون من أربعة مداخل، والمضيفة، وحمام السباحة الساخن على الرمال. إنه يساوى ستة ملايين دولار

على أقل تقدير. وهذا بالضبط ما يفعله الأزواج المعاصرون ليبهروا زوجاتهم ويصرفوا أنظارهن عن عمليات السلب والقتل التى يقومون بها بشكل يومى ليكسبوا من ورائها.

وكان دانتى ريتشى قاتلاً، وكان القتل أفضل شىء يقوم به. تبًا، إنه الجزار الجديد المعدل.

لم يتمكن الجزار من رؤية الكثير من تصميم المنزل من الأمام. تصور أن معظم المنزل سيكون مواجهًا لمنظر البحر من الخلف. ولكن الشاطئ لن يوفر غطاءً جيدًا له. فهو بحاجة إلى الشعور بالراحة حيث يكون ويأخذ وقته لتنفيذ مهمته.

ومع ذلك، لم تكن لديه مشكلة فى ذلك، فكان لديه كل ما تتطلبه هذه المهمة، بما فى ذلك الصبر. فكر فى القيام بعملية خطف على الطريقة الغيلية، الطريقة التى اعتاد جده جيمس على الحديث عنها. وثمة مثل قديم يقول: "اتق شر الحليم إذا غضب".

وهذا بالضبط ما كان يفكر فيه مايكل سوليفان وهو يكمن فى سكون تام وسط الظلام.

الفصل ٦٩

استغرق بعض الوقت ليدرس جوانب منزل الشاطئ والأشياء المحيطة به. لم يلحظ حركة كبيرة بالداخل؛ حيث لم يكن به سوى طفلين صغيرين فقط، وزوجة شابة مثيرة، شقراء إيطالية جميلة أو هكذا بدت له على الأقل من هذه المسافة.

لا وجود لزائرين أو حراس شخصيين خارج المنزل كما يظهر له. وبشكل خاص، لم يكن هناك أى شىء يشير لوجود المافيا، وهذا يعنى أن ما فى المنزل من أسلحة سوف يكون مقصورًا على ما يحمله دانتى ريتشى فى يده من أسلحة. وأيًا كانت الأسلحة التى بحوزته، فلا يمكنها التصدى لمسدسه الآلى عيار ٩ ملى أو مشرطه.

وعلى الرغم من برودة الجو، كان الجزار يتصبب عرقًا تحت سترته، بل كانت هناك بقعة من العرق قد نفذت من قميصه القطنى فى المناطق الملتصقة بجسده. ولم يساعده نسيم المحيط بشىء لتهدئته، وإنما كان صبره فقط هو الذى جعله يحافظ على هدوئه. كما عوده احترافه لمهنته على حب التفكير، وهى السمات التى لم يكن لديه أدنى شك فى أنه قد ورثها عن أبيه، الجزار الأصلى، الذى كان وغدًا صبورًا، إن لم يكن شيئًا آخر.

وأخيرًا، تحرك لدخول منزل الشاطئ. مر بسيارة جاجوار سوداء لامعة متوقفة فوق أرضية الجراج المغطاة بالقرميد الأبيض، فدخل من أحد مداخل الجراج المفتوحة؛ حيث كانت سيارة جاجوار بيضاء متوقفة عند نهاية السيارة السوداء.

"رائع يا دانتى، هل تتفاخر بهذا كثيرًا؟".

لم يستغرق وقتًا طويلاً كى يجد شيئًا مفيدًا فى الجراج، أخذ الجزار مطرقة يدوية قصيرة من طاولة الأدوات فى مؤخرة الجراج. رفعها بيده وأحس بثقلها ـ مناسبة تمامًا ـ جميل جدًا، إنه يحب الأدوات، مثل والده تمامًا.

سيكون عليه أن يحملها بيده اليسرى إذا أراد أن يبقى مستعدًا لاستخدام مسدسه، ولكن مساحة الحركة أمامه ستكون صغيرة، بنفس حجم حاجب ريح السيارة الجاجوار.

رفع المطرقة على كتفه، ثم وازن قدميه ليهوى بها على الزجاج بكل قوته.

أخذ جهاز الإنذار بالسيارة يصدر أصواتًا عالية عند الضربة الأولى، تمامًا كما أراده أن يفعل.

وعلى الفور، دفعها سوليفان إلى حديقة المنزل الأمامية، ومنها إلى منتصف الطريق الرئيسى. توارى عن الأنظار خلف شجرة بلوط حمراء ناضجة بدت غريبة على المكان ـ مثله تمامًا. وضع إصبعه على زناد البندقية، ولكن لا ـ لم يحن وقت

إطلاق النار بعد. وليعتقد دانتى أنه لص من شواطئ جيرسى، الأمر الذى سيجعله يعدو خلفه ويلاحقه ويصب عليه جام غضبه.

فتح باب الرواق الأمامى على مصراعيه بعد ثوان قليلة ليصطدم بشدة بحائط المنزل. بعدها أضيئت فجأة مجموعتان من المصابيح.

أغمض سوليفان عينيه فى مواجهة الضوء، ولكن ذلك لم يمنعه من رؤية دانتى فى الرواق وفى يده مسدس. وكان لا يزال فى ملابس السباحة وكان يرتدى خفًا من البلاستيك. كان قوى البنية، مفتول العضلات، وحسن المظهر، ولكن ذلك لن يغنى عنه شيئًا. ياله من وغد أحمق هذا الرجل.

خطأ.

صاح الرجل الصارم فى الظلام: "من هناك بحق الجحيم؟ قلت من هناك؟ من الأفضل لك أن تبدأ فى الجرى!".

ابتسم سوليفان. هل هذا الذراع الأيمن للسيد الصغير؟ الجزار الجديد؟ هذا التافه الموجود فى منزل الشاطئ؟ فى ملابس السباحة وخفه البلاستيكى؟

أجابه: " مرحبًا، إنه فقط مايكل سوليفان!".

ظهر الجزار أمامه، وانحنى انحناءة خفيفة، ثم أمطر الرواق الأمامى بوابل من الطلقات قبل أن ينتبه إليه دانتى. ولكن لماذا يقدم على ذلك؟ من لديه الجرأة كى يتتبع مجرمًا حتى منزله؟ من يكون هذا المجنون؟

زمجر الجزار بعدما اخترقت ستة رصاصات صدر ومعدة دانتى ثم نظر إلى سوليفان قبل أن يخر صريعًا.

أبقى سوليفان إصبعه على زند مسدسه وأطلق المزيد من الطلقات على سيارتى الجاجوار المتوقفتين فى الجراج والطريق الخاص المؤدى إلى المنزل. أسفرت الطلقات عن تناثر المزيد من الزجاج وإحداث خطوط منتظمة من الثقوب فى مقدمة السيارتين

باهظتى الثمن. شعر بارتياح كبير على أثر ذلك.

وما إن فرغ من إطلاق النار حتى سمع صراخا يأتى من داخل منزل الشاطئ - صراخ نساء وأطفال. أطفأ مصابيح الرواق بحركتين سريعتين ومحكمتين.

ثم اقترب من المنزل وهو يتحمس المشرط بأصابعه. وما إن وصل إلى الجثة حتى أيقن أن دانتى ريتشى قد مات تمامًا مثل سمك الماكريل المقدد النافق على الشاطئ. عدل الجثة إليه وراح يقطع وجه الرجل الميت اثنتى عشرة مرة أو أكثر بمشرطه الحاد ثم قال: "الأمر ليس شخصيًا يا دانتى، ولكنك لست الجزار الجديد".

ثم استدار ليغادر المنزل بعدما تلقى دانتى ريتشى الرسالة، وقريبًا جدًا جدًا سيتلقاها أيضًا ماجيونى الصغير.

وفجأة سمع صوتًا يأتى من خارج المنزل. صوت أنثى.

"قتلته! أيها الوغد! قتلت زوجى الحبيب!".

استدار سوليفان ليجد أمامه زوجة دانتى واقفة هناك وهى تحمل بندقية فى يدها. كانت المرأة صغيرة الحجم، وشقراء وجميلة، ولم يكن طولها يتجاوز الخمس أقدام.

أطلقت الزوجة النار بشكل عشوائى فى الظلام. ولم تكن تعرف كيف تطلق النار، بل لم تكن تعرف حتى كيف تمسك البندقية. ولكنها مع ذلك، كانت تحمل بعضًا من دم ماجيونى الساخن فى عروقها.

صاح بها سوليفان: "عودى إلى المنزل يا سيسيليا! وإلا نسفت رأسك!".

"لقد قتلته! أيها الحثالة! يا لك من وغد حقير!"، ثم نزلت درجات الرواق وأخذت تسير فى حديقة المنزل.

كانت المرأة تبكى بحرقة وتنتحب، ولكنها اقتربت من النيل منه، تلك المرأة الغبية. "سأقتلك أيها السافل". حطمت طلقتها الثانية إناءً أسمنتيًا مخصصا لطيور الحديقة على مسافة

ياردة واحدة أو أكثر عن يمين سوليفان.

تحول بكاؤها إلى عويل مرتفع بدت من خلاله كأنها حيوان مجروح أكثر منها أى شىء آخر يتعلق بالبشر.

بعد ذلك اشتد غضبها، فأعادت شحن بندقيتها وهى تعبر الطريق الخاص. أطلقت رصاصة أخرى قبل أن يعاجلها برصاصتين اخترقتا صدرها مباشرة. سقطت على الأرض كأنها اصطدمت بحائط، ثم ارتمت وهى ترتعش بشكل مؤثر بعد ذلك أخذ يقطعها إربًا هى الأخرى.

وبمجرد أن ركب سيارته، شعر بارتياح كبير، وأحس بالرضا عن نفسه - بل كان يستمتع بالمسافة الكبيرة التى قطعها وهو فى طريق عودته. فتح زجاج السيارة طوال قيادته على الطريق الرئيسى، وأدار الموسيقى وأخذ يغنى كلمات أغانى المطرب بونو بأعلى صوته كما لو كانت كلماته هو.

الفصل ٧٠

سيكون اليوم التالى مشحونا. فيم أفكر بحق الجحيم؟ ذهبت إلى مخفر شرطة المنطقة السادسة؛ حيث يعمل جايسون ستمبل، وبدأت أسأل عنه. لم أكن متأكدًا مما سأفعله إذا وجدته، ولكنى كنت منفعلاً جدًا بسبب ما يقوم به مع كيم ستافورد، وهو الأمر الذى كان علىّ محاولة فعل أى شىء إزاءه، أو هكذا ظننت.

لم أعد أحمل شارة الشرطة، ولكن الكثيرين من رجال شرطة واشنطن كانوا يعرفون جيدًا من كنت، ومن أنا الآن. ولكن من الواضح أن رقيب الاستقبال لم يكن يعرفنى على الرغم من ذلك.

جعلنى أنتظر فى جانب المدنيين وقتًا أطول مما كنت أطيق. أخذت أقول لنفسى لا بأس فى ذلك، ليست هذه مشكلة كبرى.

أخذت أجول فى المكان. وأتفقد قائمة الجوائز السنوية للحد من الجريمة على الحائط حتى أخبرنى أخيرًا أنه قد تناقش مع النقيب فى أمرى، ثم سمح لى بالدخول.

وهناك كان بانتظارى ضابط آخر لا يعرفنى.

"بولاسكى، خذ السيد ــــ " ثم نظر الرقيب إلى سجل الزائرين وأضاف ــــ "كروس إلى حجرة استبدال الملابس من فضلك. إنه يبحث عن ستمبل. أعتقد أنه هناك الآن".

تبعته لأسفل خلال ردهة مزدحمة وأنا أحدثه فى أمور الشرطة طوال الطريق. دفع بولاسكى الباب المتأرجح الثقيل المؤدى إلى حجرة استبدال الملابس. كانت الرائحة مألوفة لدىّ، رائحة العرق والمطهرات المختلفة.

"ستمبل، لديك زائر".

كان شابًا يافعًا فى أواخر العشرينات من العمر وفى نفس طولى تقريبًا، ولكنه كان أثقل منى وزنًا. كان يقف بمفرده فى صف من خزائن الجيش الخضراء الرثة، كان يرتدى لتوه القميص الصوفى لشرطة واشنطن. فيما كان ستة آخرون أو أكثر من رجال الشرطة الذين أنهوا دوام عملهم يقفون على الجانب الآخر، وهم يتذمرون ويسخرون من حالة النظام القضائى، وهو ما كان بالفعل موضع سخرية هذه الأيام.

توجهت إلى حيث يقف ستمبل وهو يضع ساعته فى معصمه ولا يزال يتجاهلنى بشكل أساسى.

قلت له: "هل يمكننى التحدث معك للحظة؟". كنت أحاول أن أكون مهذبًا، ولكن تطلب ذلك منى جهدًا كبيرًا مع هذا الرجل الذى يحب إيذاء صديقته.

نظر إلىّ ستمبل على مضض وهو يسأل: "بخصوص؟".

أخفضت صوتى وأنا أجيبه: "أريد أن أتحدث معك... بخصوص كيم ستافورد".

وفجأة، تحول ترحيبه الذى لا يصل إلى درجة الود إلى عداء تام. استشاط ستمبل غيظًا وأخذ ينظر إلى شذرًا كما لو كنت شخصًا عاديًا غريبًا اقتحم عليه منزله.

"ماذا تفعل هنا على أية حال؟ هل أنت شرطى؟".

"كنت شرطيًا من قبل، ولكنى الآن معالج نفسى، وأنا أعالج كيم".

احمرت عينا ستمبل وانطلقت بالشرر. بدأ يدرك الأمر الآن، ولم يعجبه ما رأى ولم يعجبنى أنا أيضًا ما أرى؛ لأننى كنت أنظر إلى ذكر قوى البنية يضرب النساء ويحرقهم أحيانًا بأشياء ساخنة.

"حسنًا، لقد انتهيت من ارتداء ملابس العمل وسأخرج من هنا حالاً. ابتعد عن كيم إذا كنت تعرف مصلحتها. هل تسمعنى؟".

الآن، وبعد أن تقابلنا، كونت رأيًا احترافيًا عن ستمبل: إنه مجرد حثالة. وعندما انصرف، قلت له: "إنك تضربها يا ستمبل. لقد أحرقتها بسيجارك".

خيم الصمت على حجرة تبديل الملابس، ولكنى لاحظت أنه لم يسرع أحد كى يدافع عن ستمبل. اكتفى الباقون فقط بالمشاهدة. أومأ اثنان منهم إلىّ برأسيهما، وكأنهما كانا على علم بالفعل بأمر ستمبل وكيم.

ثم عاد متثاقلاً وهو يكاد يتميز غيظًا، ثم قال: "ما الذى تسعى إليه معى أيها الوغد؟ ومن أنت بحق الجحيم؟ هل أنت على علاقة بها؟".

"الأمر ليس كذلك. وكما أخبرتك، جئت إلى هنا لأتحدث إليك فقط. وإن كنت تعلم مصلحتك حقًا، فينبغى لك أن تستمع إلىّ".

وهنا وجه إلىّ ستميل لكمته الأولى. تراجعت للخلف، فأخطأتنى لكمته، ولكنها لم تبعد عنى كثيرًا. كان غاضبًا جدًا، وقويًا أيضًا.

كان هذا كل ما أحتاج إليه، بل ربما كان كل ما أريده. انحرفت يسارًا، ثم عاجلته بلكمة فى أحشائه آلمته كثيرًا.

ولكنه بعد ذلك اعتصر خاصرتى بذراعيه القويين، ثم أخذ يدفعني بقوة بمحاذاة صف من الخزانات سمع على أثرها صوت المعدن عند ارتطامى به. شعرت بألم كبير فى ظهرى كله وتمنيت ألاّ يكون قد كسر بالفعل.

تمكنت من وضع قدمى على الأرض حتى دفعته للخلف، فتعثر وما إن فقد سيطرته علىّ، حتى عاود مهاجمتى مرة أخرى، ليصيبنى هذه المرة بقوة فى فكى.

رددت له الجميل - بضربة محكمة فى ذقنه ثم تبعتها بمجموعة من اللكلمات بيدى اليسرى فوق حاجبه مباشرة. واحدة من أجلى، وواحدة من أجل كيم ستافورد.

بعد ذلك، ضربته بيدى اليمنى فى وجنته.

أخذ ستمبل يدور حول نفسه، ثم فاجأنى وهوى على أرضية الحجرة. وكانت عينه اليمنى قد شارفت على الانغلاق تمامًا.

اشتد ساعدى وهيأت نفسى لأوجه المزيد من اللكمات لهذا الوغد الجبان. لم يكن من المفترض أبدًا أن ينشب هذا العراك بيننا، ولكنه حدث، وشعرت بخيبة أمل كبيرة عندما عجز عن النهوض ثانية.

"هل هذا ما يجرى مع كيم؟ تغضبك فتضربها؟".

أخذ يتأوه، ولكنه لم يقل أى شيء لى.

قلت له: "اسمعنى جيدًا يا ستمبل. أتريدنى أن أحتفظ بما أعرفه لنفسى، وألا أصَعِّد الأمر لأكثر من هذا؟ يجب أن تحرص على ألا يحدث ذلك ثانية، أبدًا. أبعد يديك عنها، وسجائرك أيضًا. مفهوم؟".

ظل فى مكانه دون حراك، وهذا بالضبط ما كنت أريده منه. وعندما قطعت منتصف الطريق إلى باب الحجرة، وقعت عيناى على أحد رجال الشرطة الآخرين وقد قال لى: "أحسنت".

الفصل ٧١

لو آلت قضية جورج تاون إلى جدتى، وعملت عليها بأسلوبها الفريد، لقالت إنها وصلت إلى نقطة "الغليان" الآن. كنت أنا وسامبسون قد توصلنا إلى الكثير من المعلومات عن القضية، وحان الآن وقت النتائج.

نظرت إلى الرجل الضخم عبر طاولة مليئة بتقارير بعض الجرائم المبعثرة بيننا. قلت له متذمرًا: " لم أر قط قدرا كبيرًا من المعلومات يقود إلى نتائج ضئيلة جدًا".

قال وهو يكرر الضغط على كرة ضغط مطاطية فى يده: "الآن أدركت الصعوبات التى كنت أواجهها فى هذه القضية". أدهشنى كثيرًا أن الكرة التى فى يده لم تتمزق إلى قطع صغيرة حتى الآن.

قلت: "هذا الرجل حريص، ويبدو ذكيًا بما يكفى، وقاسيًا أيضًا. إن لديه سلاحًا فعالاً أيضًا - فهو يستخدم صورة التذكارية ليهدد بها هؤلاء الفتيات. سأعتبر القضية أمرًا شخصيًا إذا لم تتوصل بالفعل إلى حلها". كنت أتحدث بصوت عال؛ لأنى كنت أجد ذلك مجديًا فى بعض الأحيان.

كانت عادتى فى تلك الآونة هى ذرع المكان جيئة وذهابًا، وكنت قد قطعت أكثر من ستة أميال سيرًا على السجاد فى الأربع عشرة ساعة الماضية، كلها فى قاعة المؤتمرات بمخفر شرطة المنطقة الثانية؛ حيث اعتكفنا هناك طوال هذه الفترة. آلمتنى قدماى بعض الشىء، ولكن كانت هذه هى الطريقة التى أحافظ بها على نشاطى الذهنى. هذا بالإضافة إلى شراب التفاح الحامض.

كنا قد استهللنا ذلك الصباح بمراجعة تقارير الجرائم الرسمية، بحثًا عن أية قضايا معلقة. وأملاً فى التوصل إلى أى شىء يساعدنا على ربط خيوط القضية بعضها ببعض. ونظرًا لما بتنا نعرفه الآن عن الجانى، فقد ركزنا بحثنا على قضايا المفقودين من الإناث، وقضايا الاغتصاب، وبصفة خاصة قضايا القتل التى تشتمل على التمثيل بالقتلى. كنا نبحث أولاً فى جورج تاون ثم فى واشنطن بأكملها.

ولكى نحافظ على حالتنا المزاجية والنفسية جيدة قدر الإمكان، كنا نستمع إلى أغنية "إليوت فى الصباح" فى الراديو، ولكن لا إليوت ولا ديانا استطاع أن يحسن من حالتنا فى ذلك اليوم على الرغم من تأثيرهما المعروف فى تهدئة الأعصاب.

ولكى نغطى كل أهدافنا، قمنا بجولة ثانية على التقارير، ونحن نفحص قضايا القتل التى لم تحل ألغازها بشكل عام. توصلنا فى النهاية إلى قائمة من تقارير المتابعة المحتملة، وكانت القائمة مطولة وغير واعدة.

ثمة أمر ما حدث اليوم؛ وهو أن مينا ساندرلاند قد سمحت لنا بمقابلة أخرى، وفيها وافقت على إعطاء بعض التفاصيل الوصفية القليلة عن مغتصبها. كان رجلاً أبيض فى الأربعينات من العمر، أو هكذا خمنت هى. وقد استشففنا من مينا أنه كان حسن المظهر، وهو ما كان من الصعب عليها الاعتراف به. قالت لنا:" أتعرفان، كان وسيمًا بقدر وسامة كيفين كوستنر كرجل مسن".

كان من المهم لنا فى عملية الكشف عن هوية الجانى أن نجعلها تعطينا المزيد من التفاصيل عنه. وتعد جاذبية المعتدين سلاحًا فعالاً تجعلهم أكثر خطورة. كنت آمل أنه بقليل من الوقت والوعد بتوفير المزيد من الحماية لها، أن تواصل مينا التحدث إلينا؛ حيث إن المعلومات التى حصلنا عليها حتى الآن لم تكن كافية لمساعدة الشرطة على عمل رسم تقريبى لشخص المعتدى. وبمجرد أن حصلنا على أوصاف لا تتطابق مع نحو اثنى عشر ألف وجه من الوجوه الأخرى فى شوارع جورج تاون، أردت أنا وسامبسون أن نكتفى بهذا القدر ونكمل فى وقت لاحق.

عاد سامبسون بمقعده للوراء وبسط ساقيه الطويلتين أمامه، ثم قال: "ما رأيك فى أخذ قسط من النوم على أن تستأنف العمل فيما تبقى فى الصباح؟ أنا منهك".

وما هى إلا لحظات حتى دخلت علينا بتسى هول وهى تصفر، وقد بدت أكثر انتباهًا ويقظة أكثر من أى منا. وكانت بتسى محققة مستجدة، ولكنها كانت متحمسة جدًا ومن النوع الذى يعرف كيف يكون مساعدًا دون أن يقلل من نفسه.

قالت: "هل بحثتما فقط عن الضحايا الإناث فى هذه الملفات؟ هذا صحيح، أليس كذلك؟".

سألها سامبسون: " لماذا؟".

"هل سمعتما عن بينى فونتانا؟".

ولم يكن أى منا قد سمع عنه.

تابعت بتسى: " إنه أحد كبار أفراد المافيا، وأعتقد أنه الرجل الثانى، أو كان كذلك على أية حال. لقد وجد مقتولاً منذ أسبوعين فى شقة فى كالوراما بارك. وفى الواقع، لقد قتل فى الليلة نفسها التى شهدت اغتصاب ليزا براندت فى جورج تاون.

سألها سامبسون: " ثم ماذا؟"، وكنت أشعر فى صوته بعدم القدرة على الصبر، وهو نفس الذى أشعر به بداخلى.

فتحت بتسى أحد الملفات وأخرجت منه اثنتى عشرة صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود وعرضتهم أمامنا على الطاولة. كانت الصور لرجل أبيض، ربما يكون فى الخمسينات من العمر، يرقد ميتًا على ظهره فى مكان ما فى حجرة المعيشة. وكانت كلتا قدميه مبتورتين تمامًا ـ وحديثًا ـ من الكاحل.

وفجأة، لم أشعر بالتعب، وأخذ الأدرينالين يتدفق فى عروقى.

همهم سامبسون: "يا إلهى". كان كل منا الآن على أطراف أصابعه يتنقل بين الصور المروعة، وكررنا هذه العملية مرتين.

تابعت بتسى: " ذكر تقرير الطبيب الشرعى أن بتر قدمى السيد فونتانا قد تم برمته قبل موته". ثم أضافت: " ويحتمل أن تكون عملية البتر قد تمت باستخدام أدوات جراحية. ربما يكون مشرطًا ومنشارًا. ثم تابعت بلهجة يملؤها الأمل الذى لا يخلو من السذاجة المحببة: " إذن، هل تعتقدون أنه المجرم نفسه؟".

أجبتها: "أعتقد أننى أريد أن أعرف المزيد. هل يمكننا الحصول على مفاتيح تلك الشقة؟".

أخرجت مجموعة مفاتيح من جيبها وأخذت تهزها وهى تقول: "لقد علمت أنكما ستطلبان منى ذلك".

الفصل ٧٢

ضرب سامبسون سقف السيارة بقبضته وهو يقول: "تبًا يا أليكس. جرائم اغتصاب كثيرة، وحوادث قتل عديدة، والآن أضيف إلى القائمة أحد أفراد المافيا؟ لا يمكن أن يكون كل ذلك محض صدفة. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك! لا يمكن!".

أجبته: "قد يعنى ذلك شيئًا ما بكل تأكيد هذا إذا كان الجانى هو الرجل نفسه"، ثم ذكرته قائلاً: " دعنا نر ما يحدث هنا، وحاول ألا تبتعد بنا كثيرًا".

لم يكن ذلك يعنى أن جون كان مخطئًا. ولكن كل ما فى الأمر أن الشخص الذى نتهمه كان يبدو وحشًا ساديًا أكثر فأكثر، ولديه عادة سيئة وغريبة جدًا. وهذا أيضًا لا يعنى أننا كنا نبحث فى المكان الخطأ، ربما فقط لم نكن نبحث فى أماكن كافية.

قال سامبسون: "ولكن إذا صحت شكوكنا، فلا ينبغى لك أن تجرى أية مكالمة هاتفية بأصدقائك القدامى الليلة. اتفقنا؟ أريد القليل من الوقت للعمل على هذه القضية قبل أن يدس رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية أنوفهم فيها".

سيعرف مكتب التحقيقات الفيدرالية بقضية قتل فونتانا بالفعل، على اعتبار أنها تتعلق بقتل أحد أفراد المافيا. أما سلسلة حوادث الاغتصاب، فإن التحقيق فيها لا يزال من اختصاصات الشرطة المحلية بواشنطن.

قلت له: "ألا تعلم أنهم بالضرورة سيتولون هذه القضية؟".

طرقع أصابعه ثم أشار إلى قائلاً: " أوه، أجل ، لقد نسيت. لقد محيت ذاكرتك بعد أن تركت المكتب، تمامًا كما يفعلون فى فيلم "*Men in Black*" . حسنًا، دعنى أذكرك سيتولون هذه القضية. إنهم يحبون مثل هذه القضايا. بعدما نقوم بالعمل كله، يأتون هم ليحصلوا على الثناء كله دون عناء".

استرقت النظر إليه، ثم قلت: "عندما كنت فى المكتب، هل سبق أن توليت أية قضية على الرغم منك؟ هل فعلت ذلك؟".

أجابنى: "حتى لو كان ذلك قد حدث، فلا عليك. ولو كان الأمر يستحق المناقشة بعد كل ذلك، لأوقفته على الفور. تبًا، لا تقحم نفسك أبدًا فى أى من قضاياى!".

أوقفت السيارة أمام شقة مبنية بالقرميد الأسمر الضارب إلى الصفرة فى كالوراما بارك. كان الموقع جميلاً؛ وأنا على يقين من أن قتل فونتانا قد أساء لهذا المبنى، إن لم يكن قد أساء للحى بأكمله. كانت الشقة أيضًا تبعد أقل من ميلين من الموقع الذى تعرضت فيه ليزا براندت للاعتداء بعد وقت ليس بالطويل من مقتل بينى فونتانا.

أمضينا الساعة التالية داخل الشقة، واستخدمنا الصور الفوتوغرافية لمسرح الجريمة، وآثار الدماء التى لا تزال على السجادة لإعادة تمثيل ما قد حدث.

لم نخرج من ذلك بدليل مادى يرتبط بحوادث الاعتداء الأخرى، ولكنها كانت بداية .

عندما غادرنا الشقة، توجهنا بالسيارة إلى الجنوب الغربى فى مدينة جورج تاون، ونحن نتعمد أن نسلك الطريق الأكثر منطقية إلى حى ليزا براندت. لم يشعر أى منا بالرغبة فى التوقف، ولذلك قمنا بجولة كاملة فى الأماكن المرتبطة بالقضية، متنقلين بين كل المواقع التى شهدت حوادث الاغتصاب التى تم الإبلاغ عنها، كل حسب الترتيب الزمنى لوقوع الاعتداء.

ولم تكن هذه المواقع تبعد عن بعضها البعض كثيرًا.

وفى الثانية والنصف صباحًا، كنا على طاولة فى مقهى يعمل طوال الليل.

نثرنا ملفات الجرائم فيما بيننا على الطاولة وأخذنا نفحصها، على الرغم من أننا كنا منهكين جدًا وفى حاجة ماسة إلى التوقف، وعلى الرغم أيضًا من تأخر الوقت كثيرًا وضرورة العودة إلى البيت.

كانت هذه فرصتى الأولى للاطلاع الفعلى على ملف بينى فونتانا. قرأت تقارير الشرطة والطبيب الشرعى عدة مرات. ثم انتقلت الآن لتفقد الأشياء التى أخذتها من الشقة. وفى المرة الرابعة أو الخامسة، وقعت عيناى على شىء ما بعينه: جزء مطوى من مظروف أبيض كان قد عثر عليه أسفل الأريكة على بعد خطوات قليلة من جثة فونتانا. نتحدث عن خطوات قليلة، أو حتى أقرب من ذلك.

اعتدلت فى جلستى؛ فهذه هى اللحظات التى تتوق إليها فى قضية لم تتوصل إلى حلها بعد.

"علينا الذهاب إلى مكان ما".

عقب سامبسون: "أنت على حق، علينا الذهاب إلى البيت".

ناديت النادلة، التى كانت نصف نائمة على المنضدة، ثم سألتها: " هل هناك متجر يعمل ٢٤ ساعة فى اليوم فى هذا

الحى؟ نحتاجه لأمر مهم".

كان سامبسون متعبًا جدًا لدرجة أعجزته عن مجادلتى. تبعنى إلى خارج المقهى، ثم إلى حافة الطريق. ثم مررنا بعدة مبان ومنها إلى أشجار مزينة بمصابيح مضيئة. وبنظرة سريعة بين المبانى، استطعت أن أرى ما كنت أبحث عنه.

قلت لـ "سامبسون: وأنا أفتح علبة أفلام فورية: "ذكرت مينا ساندرلاند أن الصور التى رأتها كانت فورية".

نادى موظف المتجر من المقدمة:" عليك أن تدفع ثمنها أولاً"، ولكنى تجاهلته.

كان سامبسون يهز رأسه وهو يقول: "أليكس، ماذا تفعل بحق السماء؟".

أجبته: "إنها قائمة الأدلة التى أحضرناها من مسرح الجريمة الخاص بمقتل فونتانا. كانت هذه القائمة تضم مظروفًا أبيض مطويًا. أو جزءًا منه على أية حال".

أخرجت مظروفًا جديدًا من العلبة، ثم قطعته من جانبه وطويته بيدى قبل أن أقول له: "هكذا تمامًا".

"لقد التقط صورًا لـ "بينى فونتانا " بعدما بتر قدميه. إنه الرجل نفسه يا جون".

الفصل ٧٣

عملت كثيرًا جدًا ذلك اليوم، ولكنى مكثت فى المنزل فى الليلة التالية.

كانت جدتى فى درس القراءة الأسبوعى الذى اعتادت على تدريسه فى ملجأ "فرست بابتيست" فى الشارع الرابع، مما اضطرنى إلى البقاء مع الأطفال فى المنزل. وعندما أكون معهم، لا أفكر فى الذهاب إلى أى مكان آخر. وفى بعض الأحيان تكون المشكلة فقط فى كيفية التواجد هنا.

قمت بدور الطاهى تلك الليلة، وأعددت حساء الفول الأبيض المفضل لدىَ ولدى الأطفال أيضًا، هذا بالإضافة إلى سلطة الكرنب المفروم، وكنت قد أحضرت معى إلى المنزل خبز الشيدر الطازج من المخبز المجاور لمكتبى. كان مذاق الحساء مميزًا كالذى تعده جدتى تمامًا. أحيانًا أعتقد أن لديها نسختين من كل وصفة

طعام واحدة فى رأسها والأخرى تستخدمها عندما أشاركها إعداد الطعام، وهى تلك التى تتعمد فيها إخفاء بعض المكونات التى تعتبر سر الصنعة فى إعدادها. إنه جزء من غموضها، وأشك فى أنه قد تغير كثيرًا فى النصف قرن الماضى.

بعد ذلك جلست أنا والأطفال فى جلسة طويلة غير مدفوعة الأجر مع جراب الملاكمة فى الأسفل: أخذ كل من جانى وديمون يتبادلان الأدوار فى ضرب الجراب الجلدى، فيما أدار آلى شاحناته الصغيرة وأخذ يطوف بها حول أرضية الدور السفلى التى يطلق عليها طريق آى - ١٩٥!

بعد ذلك صعدنا لأعلى لنأخذ درس السباحة مع الأخ الصغير. أجل، السباحة. كان ذلك فكرة جانى - نتيجة لخوفه الشديد من حوض الاستحمام. لم أتوقع أبدًا أن يكون إخراجه منه أمرًا صعبًا بمجرد قفزه فيه. كان شديد الخوف من حوض الاستحمام، وكان يغضب كثيرًا فى كل مرة تطلب منه فيها الاستحمام فيه، وكأنه شديد الحساسية إزاء النظافة. كنت متشككًا فى فكرة جانى حتى رأيتُ مدى نجاحها.

قالت له وهى تدربه من الجانب: "تنفس يا آلى! دعنا نرك تتنفس يا عزيزى".

أبقى ديمون يديه تحت بطن آلى، بينما رقد على سطح الماء ووجهه إلى الماء وهو ينفخ فى فقاعات الهواء ويطيرها حوله معظم الوقت. كان الموقف مضحكًا، ولكنى لم أجرؤ على الضحك، إكرامًا لـ "جانى". جلست فى مكان آمن - وجاف بالطبع - وأنا أراقب الموقف من مكانى.

قالت جانى: "ارفعه لثانية واحدة".

حمل ديمون الولد الضخم إلى حافة حوض الاستحمام.

نظر آلى بعينين نصف مفتوحتين وأخرج قدرًا من الماء من فمه، وكانت عيناه قد لمعتا من الإثارة باللعب.

صاح بأعلى صوته معلنًا: "أنا أسبح!".

فقالت جانى وهى منهمكة فى عملها تمامًا: "لا، ليس بعد، ولكنك بالتأكيد على الطريق الصحيح، أيها الأخ الصغير".

كان كل من ديمون وجانى مبللين بالماء مثله تمامًا، ولكن أيًا منهما لم يلق بالاً لذلك. ساد المرح المكان كله. وكانت جانى جاثية على ركبتيها فى بركة من الماء، بينما وقف ديمون ونظر إلىّ نظرة الولد الأكبر التآمرية التى تقول: "أليسوا مجانين؟".

وعندما رن الهاتف، هرول كلاهما باتجاه الباب وهما يصيحان فى صوت واحد: "أنا سأرد عليه!".

قلت لهما وأنا أعترض طريقهما: "بل أنا من سيرد عليه، فكلاكما مبلل بالماء. أوقفا السباحة حتى أعود".

سمعتها تنادى وأنا فى طريقى إلى الهاتف: "هيا يا آلى، دعنا نغسل شعرك".

كم هى عبقرية هذه الفتاة.

أسرعت إلى الردهة كى ألحق قبل أن يجيب جهاز الرد الآلى. قلت بصوت عال بما يكفى ليسمعنى الأطفال: "هنا عائلة كروس".

الفصل ٧٤

"هل هذا أليكس كروس".

أجبت: "أجل؟". لم أتعرف على الصوت الذى على الجانب الآخر من الهاتف. كان صوت امرأة.

"أنا آنى فوك".

فقلت وأنا محرج تمامًا الآن: "آنى، مرحبًا كيف حالك؟".

كنت أعرفها، ولم نكن صديقين تمامًا. كان ابنها يسبق ديمون بعام أو ربما عامين دراسيين. وكانت آنى طبيبة فى غرفة الطوارئ فى مستشفى سانت أنطونى.

"أليكس، أنا فى المستشفى ــــ"

وفجأة، شعرت بالقلق وأخذ قلبى يخفق بشدة، ثم سألتها: "هل جدتى هناك؟".

قالت: "ليست جدتك. لم أعرف بمن أتصل غيرك. لقد نقلت كايلا كولز للتو إلى مستشفى سانت أنطونى إنها هنا فى غرفة الطوارئ".

قلت بنبرة مرتفعة: "كايلا؟ماذا حدث لها؟ هل هى بخير؟".

"لا أعرف يا أليكس. ليست لدينا معلومات كافية حتى الآن. كل ما أعرفه هو أن الموقف ليس على ما يرام".

لم تكن تلك هى الإجابة التى أتوقعها، أو التى كنت أود سماعها قلت لها: "آنى، ماذا حدث؟ هل يمكنك إخبارى المزيد؟".

"من الصعب معرفة ذلك بالضبط. ولكن الشىء المؤكد هو أن شخصًا ما قد هاجم كايلا".

سألتها وأنا أصيح فى الهاتف، وقد تملكنى الرعب: "من؟"، وكأننى أعرف إجابة سؤالى بالفعل.

تقدم ديمون إلى منتصف الردهة وهو يحدق بى، وعيناه متسعتان ويبدو فيهما الذعر. وكنت قد رأيت هذه النظرة مرات عديدة فى منزلنا.

"كل ما أستطيع إخبارك به هو أنها طعنت بسكين. طعنت مرتين يا أليكس، ولكنها حية".

طعنت؟ أخذت ترن الكلمة فى عقلى، ازدردت لعابى بصعوبة ولكنها حية.

"أليكس، لا يفترض بى أن أتحدث فى هذا الأمر عبر الهاتف. يجب أن تأتى إلى هنا فى المستشفى فى أسرع وقت ممكن. هل يمكنك أن تأتى الآن؟".

"أنا فى الطريق إليك".

الفصل ٧٥

كانت جدتى لا تزال فى درسها، ولكنى لم أكن بحاجة لأكثر من دقيقتين فقط لأحضر ناعومى هاريس من المنزل المجاور لتبقى مع الأطفال. قفزت فى سيارتى وانطلقت بها مسرعًا طوال الطريق. ولو كانت صفارة الإنذار الخاصة بالشرطة لا تزال معى لساعدتنى كثيرًا.

كل ما أتذكره بالفعل عن رحلتى إلى المستشفى أنى وصلت بسرعة، وأنى كنت أفكر فى كايلا طوال الطريق. وعندما أوقفت سيارتى خارج غرفة الطوارئ، كانت سيارتها متوقفة تحت المظلة بجوار المدخل.

كان باب السائق مفتوحًا، وعندما مررت به ونظرت داخل السيارة، رأيت دماء على مقعد السائق. يا إلهى! لقد قادت السيارة بنفسها إلى هنا! لقد أفلتت من الجانى بطريقة أو

بأخرى.

كانت حجرة الانتظار مزدحمة، كحالتها دائمًا فى مستشفى سانت أنطونى. كان هناك صف من الأشخاص البؤساء ذوى الملابس الرثة الملابس يجلسون فى المقعد الأمامى. الجرحى يتجولون فى المكان برفقة أصدقائهم وأقاربهم. وهنا أيضًا أعلنت وفاة ماريا.

"سيدى، لا يمكنك ــــ"

ولكنى كنت قد اخترقت بالفعل أبواب منطقة العلاج قبل أن تغلق. وبمجرد أن أصبحت داخل هذه المنطقة، أدركت أنها ليلة مشحونة أخرى فى مستشفى سانت أنطونى.

أطباء تحت التمرين يدفعون محفات نقل المرضى؛ أطباء وممرضات ومرضى يجوبون المكان جيئة وذهابًا فى كل الاتجاهات من حولى.

كان من بين المرضى شاب به جرح بالغ فى مقدمة رأسه يرقد على إحدى المحفات والدماء تسيل على جبهته. لم يتوقف ذلك الشاب عن سؤال كل شخص يمر به: "هل سأموت؟".

ولما رأيت أنه لا أحد يتوقف للرد عليه، أجبته: "لا، ستكون بخير. أنت بخير يا بنى".

ولكن، أين كايلا؟ كل شىء يتحرك حولى بسرعة كبيرة جدًا. لم أجد أى شخص لأسأله عنها. ثم لم ألبث أن سمعت صوتًا ينادى اسمى.

"أليكس، تعال إلى هنا!".

لم يكن ذلك إلا صوت آنى التى كانت تلوح لى عند نهاية الردهة. وعندما وصلت إليها، أخذتنى من يدى وأدخلتنى حجرة احتجاز المصابين وهى حجرة تحتوى على سريرين تفصلهما ستارة خضراء من البلاستيك.

كان هناك طاقم طبى يحيط سريرها على شكل حدوة حصان. كانت أيديهم تتحرك بسرعة، وقفازات الكثير منهم

ملطخة بالدماء.

ظل أشخاص آخرون من المستشفى يجيئون ويذهبون، وهم يمرون علىَّ كأننى غير موجود.

كان ذلك يعنى أن كايلا على قيد الحياة. علمت أن الهدف الآن يتمثل فى إيقاف نزيف الدم ثم إدخالها غرفة العمليات بعد ذلك.

مددت رقبتى لأتيح لنفسى أكبر قدر ممكن من الرؤية، ثم رأيت كايلا. كان هناك قناع على فمها وأنفها. وكان أحدهم يرفع لتوه كمادة ملطخة بالدماء من فوق بطنها، حيث كانوا قد مزقوا ملابسها بالفعل.

قالت رئيسة الأطباء، وكانت امرأة فى الثلاثينيات من العمر: "أوقفوا نزيف الجرح الذى بالبطن، هناك جرح غائر بالطحال".

امتزجت الأصوات الأخرى داخل الغرفة، وحاولت جاهدًا أن أفهم ما يقولون قدر استطاعتى، ولكن كان كل شىء يبدو غامضًا بالنسبة لى.

"ضغط الدم سبعون، النبض واحد وعشرون، التنفس أربع وثلاثون".

" أعطنى أنبوبا ماصا من فضلك".

صحت قائلاً: "هل هى بخير؟" وكنت أشعر كأننى فى كابوس مفزع ولا أحد يستطيع سماعى.

قالت آنى وهى تضع يدها على كتفى: "أليكس ينبغى أن تفسح لهم المجال. لم يتسن لنا معرفة المزيد بعد. سأخبرك حالما نصل إلى شىء".

أخذت أقترب أكثر فأكثر من سرير كايلا. يا إلهى، تألمت كثيرًا من أجلها لم أقو على التنفس.

صاحت الطبيبة، التى كانت تترأس كل من بالغرفة،: "اتصلوا بالطابق السابع وقولوا لهم إننا جاهزون. إن معدتها

جاهزة لجراحة فى البطن".

همست إلىَّ آنى قائلة: "ذلك يعنى أن معدتها ليست فى حالة هضم".

"فلنذهب الآن. أسرعوا! هيا".

أخذ أحدهم يدفعنى من الخلف، ولم يكن يدفعنى برفق قال: "تحرك يا سيدى. لابد أن تبتعد عن طريقنا، فحالة هذه المريضة سيئة جدًا، قد تموت".

تنحيت جانبًا كى أفسح لهم المجال وهم ينقلونها على محفة نقل المرضى إلى الرواق. كانت عينا كايلا لا تزالان مغمضتين. هل عرفت بوجودى إلى جوارها؟ أو من فعل هذا بها؟ أخذت أتبعهم لأقرب نقطة ممكنة. ثم أدخلوها إلى المصعد بسرعة كبيرة، تمامًا كما فعلوا كل شىء آخر بسرعة، ليحُول الباب المعدنى للمصعد بيننا.

كانت آنى تقف إلى جانبى، ثم أشارت باتجاه مصعد آخر قائلة: "يمكننى أن آخذك إلى حجرة الانتظار بالأعلى إذا أردت ذلك. صدقنى، الكل هنا يفعل أفضل ما بوسعه. إنهم يعرفون أن كايلا طبيبة. وكل شخص هنا يعرف أنها مثل الملاك".

الفصل ٧٦

حالة المريضة سيئة جدًا، قد تموت ... الجميع يعرف أنها مثل الملاك.

قضيت الثلاث ساعات التالية فى حجرة الانتظار، قضيتها وحيدًا دون أن أسمع أية كلمة أخرى عن كايلا. كانت رأسى تعج بالمتناقضات المزعجة: فقد ولد اثنان من أطفالى فى مستشفى سانت أنطونى، وهى المستشفى نفسها التى أعلنت فيها وفاة ماريا. والآن، ها هى كايلا.

ثم عادت إلىَ آنى فوك مرة أخرى، وجثت على إحدى ركبتيها وأخذت تتحدث بصوت خافت يتسم بالوقار والاحترام، الأمر الذى أفزعنى كثيرًا وجعلنى أشعر بأن كل الأمور تسير إلى الأسوأ.

"تعالى معى يا أليكس. تعال من فضلك. أسرع. سآخذك إليها، لقد خرجت من غرفة العمليات".

فى البداية، اعتقدت أن كايلا لا تزال نائمة فى غرفة الإفاقة، ولكنى وجدتها تتحرك عندما اقتربت منها. فتحت عينيها ورأتنى ـ ثم تعرفت علىَ بعد ثانية.

همست إلىَ: " أليكس؟".

فهمست إليها أيضًا وأنا آخذ يدها برفق بين راحتى يدىَ: "مرحبًا، ها أنت هنا".

بدت مرتبكة جدًا وتائهة للحظة، ثم أغلقت عينيها بشدة، لتنهمر دموعها على خديها. كدت أنفجر باكيًا، ولكنى تمالكت نفسى خوفًا من أن ترانى كايلا فيزيد فزعها.

قلت لها: " لا بأس ، لقد زال الخطر الآن. أنت فى غرفة الإفاقة".

قالت، مثل فتاة صغيرة؛ الجزء المحبب إلى فى كايلا الذى لم أره من قبل: " كنت... خائفة جدًا".

قلت لها وأنا أجذب مقعدًا دون أن أترك يدها: " أراهن أنك كنت كذلك. هل قدت سيارتك بالفعل إلى هنا؟".

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خافتة، على الرغم من أن عينيها كانتا لا تزالان تائهتين بعض الشىء، ثم قالت: " أعلم كم من الوقت سيستغرقه إحضار سيارة إسعاف فى هذا الحى".

سألتها بعد ذلك: " من فعل هذا بك؟ هل تعرفين من كان هذا الشخص يا كايلا؟".

أجابت عن سؤالى بإغماض عينيها مرة أخرى، فما كان منى إلا أن ضغطت على ساعدها بيدى الشاغرة. هل كانت تعرف من هاجمها وتخاف من التحدث؟ هل تلقت تحذيرًا بعدم الكلام؟

بقينا صامتين للحظة ـ حتى شعرت باستعدادها لقول المزيد، لم أكن لأحملها على الكلام، بالطريقة نفسها التى اتبعتها مع المسكينة مينا ساندرلاند.

وأخيرًا قالت وعيناها مغمضتان: "كنت أتلقى مكالمة منزلية. اتصلت بى شقيقة هذا الشاب وقالت إنه مدمن للمخدرات، وأنه يحاول معالجة نفسه والإقلاع عنها فى البيت. وعندما وصلت إلى هناك، كان قد جن جنونه وفقد عقله. لا أدرى من ظن أنى أكون، وبعدها طعننى...."

تحشرج صوتها، فلمست شعرها ووضعت ظهر يدى على خدها. لقد أدركت مدى الضعف الذى يمكن أن يكون عليه الإنسان، ولكنه شىء لم نعتد عليه، والأمر مختلف حين يتعلق بشخص يهمك أمره، وحين يمس الخطر أحد المقربين إليك.

"هل ستبقى معى يا أليكس؟ حتى أنام؟ لا تذهب".

قالت ذلك بصوتها الذى يشبه صوت الفتاة الصغيرة مرة أخرى. لم تبد لى كايلا بهذا الضعف من قبل كما بدت آنذاك، فى هذه اللحظة العابرة فى غرفة الإفاقة.

كاد قلبى ينفطر من أجلها ولما حدث لها وهى تحاول إسداء معروف هناك.

أجبتها: "بالطبع، سأبقى هنا إلى جوارك. لن أذهب إلى أى مكان".

الفصل ٧٧

"لقد عانيت من الاكتئاب لفترة من الوقت، وأنت تعرفين ذلك، وكلكم تعرفون ذلك".

"لأكثر من عشر سنوات. أعتقد أنها فترة طويلة يا أليكس".

جلست أمام طبيبتى المفضلة، وطبيبتى النفسية الخاصة، أديل فينلى. وكانت أديل تقوم أيضًا بدور الناصح لى من وقت لآخر. وكانت هى التى شجعتنى على معاودة عملى كمعالج نفسى مرة أخرى، بل إنها أرسلت إلىَّ اثنين من المرضى، "فئران تجارب" كما كانت تحب أن تطلق عليهما.

"أريد أن أخبرك ببعض الأشياء التى تزعجنى كثيرًا يا أديل. قد يتطلب هذا عدة ساعات".

هزت كتفيها وهى تقول: "على الرحب والسعة". وكانت أديل امرأة ذات شعر بنى فاتح، فى أوائل الأربعينات من العمر، ولكن لم يبد عليها أنها تقدمت فى العمر منذ أول مرة تقابلنا فيها، لم تتزوج بعد، وكنت أفكر كثيرًا فى الزواج بها، ولكنى سرعان ما أخرجت هذه الفكرة من عقلى. يا لها من فكرة غبية جدًا، مجنونة أيضًا.

ثم تابعت بلهجة الفتاة الحكيمة التى هى اللهجة المناسبة للحديث معى: "طالما أنك قادر على اختصار عدة ساعات من هرائك فى خمسين دقيقة".

"يمكننى ذلك".

أومأت برأسها قبل أن تقول: " من الأفضل لك أن تبدأ الآن. لقد بدأ العد التنازلى والوقت يمر".

استهللت حديثى بإخبارها عما حدث لـ "كايلا" وعن شعورى إزاءه، بما فى ذلك حقيقة أنها قد انتقلت إلى منزل والديها فى نورث كارولينا لتسترد عافيتها هناك قلت: "لا أعتقد أنه خطئى، ولذلك لا أشعر بالذنب إزاء الاعتداء الذى تعرضت له كايلا... ليس بطريقة مباشرة على أية حال".

لم تستطع أديل إخفاء مشاعرها، على الرغم من براعتها - حيث ارتفع حاجباها وكشفا عن أفكارها الداخلية - قبل أن تسأل: " وبطريقة غير مباشرة؟".

أخذت أرفع وأخفض رأسى ثم أجبتها: "لدىَ بالفعل شعور عام بالذنب كما لو كان بإمكانى فعل شىء لمنع هذا الاعتداء من الوقوع".

"على سبيل المثال؟".

ابتسمت، ثم ابتسمت أديل أيضًا.

أجبتها: "سأذكر مثالاً واحدًا فقط، وهو تخليص واشنطن من جميع الجرائم".

"ها أنت تختبئ خلف حسك الفكاهى مرة أخرى".

"لا شك فى ذلك، وهذا هو الجانب السيئ بالفعل فى الأمر. فعلى الرغم من العقلانية التى أحاول أن أبدو عليها، فإنى أشعر ببعض الذنب نظرًا لحقيقة أنه كان بإمكانى أن أحمى كايلا بطريقة أو بأخرى. حسنًا، أعرف مدى سخافة ذلك يا أديل. أعرف أنه من السخيف أن أفكر فى ذلك وأتفوه به بصوت عال. ولكن الأمر كذلك على أيه حال".

"أخبرنى المزيد عن هذه "الحماية" التى تقول إنه كان بمقدورك أن توفرها لكايلا كولز بطريقة أو بأخرى. أريد أن أسمع ذلك يا أليكس".

"لاتذكرى ذلك عمدًا، كما أننى لا أعتقد أننى أستخدم كلمة حماية".

"بل قلتها بالفعل. على أية حال، تكلم فى ذلك من أجلى من فضلك. قلت إنك أردت إخبارى بكل شىء. قد يكون هذا أكثر أهمية مما تعتقد".

"لم يكن بمقدورى فعل أى شىء لمساعدة كايلا. هل أنت سعيدة الآن؟".

قالت أديل: "حسنًا" ثم انتظرت المزيد منى.

"لقد عادت بى هذه الأحداث إلى تلك الليلة مع ماريا، بالطبع. كنت هناك وشاهدتها تموت بين ذراعى. لم أستطع فعل أى شىء لإنقاذ المرأة التى أحببتها. لم أفعل أى شىء. بل إننى لم ألق القبض حتى الآن على الوغد الذى قتلها".

حافظت أديل على صمتها ولم تقل أى شىء.

"أتعلمين ما هو أسوأ شىء فى هذا الموضوع؟ سأتساءل دائمًا عما إذا كنت أنا المقصود بهذه الرصاصة. لقد ارتمت ماريا بين ذراعىَ ــــ ثم أصيبت".

بقينا صامتين لفترة طويلة بعد ذلك، وكنا بارعين فى احتمال الصمت. لم أكن قد اعترفت أبدًا بهذا الجزء الأخير لأديل قبل الآن، ولم أخبر أى أحد به.

قلت لها: "أديل، إننى أخطط لتغيير حياتى بشكل أو بآخر".

لم تعلق بأية كلمة على ذلك أيضًا. لقد كانت ذكية وحازمة، وهى السمات التى أحبها فى أطبائى النفسانيين، والتى أطمح أن أتحلى بها يومًا ما، عندما أتقدم فى هذا المجال.

سألتها: "ألا تصدقيننى؟".

قالت أخيرًا: "أريد أن أصدقك يا أليكس. بل أصدقك بالطبع"، ثم أضافت: "هل تصدق نفسك؟ هل تعتقد أن بإمكان أى منا أن يتغير؟ هل يمكنك ذلك؟".

أجبتها: "أجل، أنا واثق من قدرتى على التغير. ولكنى أتعرض للخداع كثيرًا".

ضحكت على إثر ذلك، ثم ضحكنا معًا.

قلت أخيرًا: "لا أصدق أننى أدفع من أجل هذا الهراء".

فعقبت أديل: "ولا أنا أيضًا، ولكن وقتك قد انتهى".

الفصل ٧٨

فى وقت لاحق من تلك الظهيرة، وجدت نفسى فى دار عبادة سانت أنطونى ـ أو سانت طونى كما اعتدت أن أطلق عليها منذ كنت طفلاً ونشأت فى منزل جدتى القريب منا، الذى لا يقل وقارًا عنها. تقع دار العبادة هذه على بعد شارع تقريبًا من المستشفى التى ماتت بها ماريا. وكنت قد حولت رجائى من كبيرة الأطباء إلى رب العالم بأسره، وتمنيت أن يطهرنى ذلك، ولكنى وجدت أن ذلك قد لا يحدث.

جثوت على ركبتى وتركت رائحة البخور الحلوة والجو الروحانى يغسلان همومى. وكان أكثر ما يبهرنى فى دور العبادة الجميلة أن معظمها مصمم بواسطة أشخاص ملهمين بإيمانهم بشىء ما أكبر وأكثر أهمية من أنفسهم، وهذا ما أحاول أن أطبقه فى حياتى. أخذت أحملق فى أرجاء الدار

لتهرب تنهيدة من بين شفتىَ. إنى أؤمن بالله مهما حدث. الأمر هكذا ببساطة كما كان دائمًا. لا أعتقد أن الله كالبشر فى هيئتهم أو أنه يفكر مثلهم، ولكنى واثق من أن الله يسمع دعاءنا وصلواتنا فى كل الأوقات، ليلاً أو نهارًا، أو فى أى وقت على الإطلاق.

ولذلك، تلوت صلواتى من أجل كايلا فى الصف الأمامى بدار عبادة سانت طونى ولم أكن أسأل الله أن تتعافى من جروحها فقط، ولكن أن تتعافى من جميع الآثار التى خلفها الاعتداء عليها؛ حيث إن الناس يستجيبون بطرق مختلفة للاعتداءات التى تهدد حياتهم، أو حياة أفراد أسرهم، أو بيوتهم. أدركت ذلك من واقع تجربتى الشخصية، والآن، لسوء الحظ، ها هى كايلا تتعرض له هى الأخرى.

وبينما أنا فى صلاتى، قلت بعض الكلمات الخاصة من أجل ماريا التى استحوذت على تفكيرى فى الآونة الأخيرة.

ليس هذا فحسب، بل إننى تحدثت إلى ماريا، مهما كان يعنى ذلك. تمنيت أن تربيتى للأطفال تكون كما تمنت أن تصبح عليه الأمر الذى دأبنا على الحديث عنه كثيرًا فيما بيننا. ثم صليت من أجل جدتى وصحتها المتدهورة، وصليت أيضًا من أجل الأطفال، بل وصليت من أجل القطة روزى التى كانت تعانى من نزلة برد شديدة، كنت أخشى أن تكون بوادر لنزلة رئوية. لا تدع قطتنا تموت. ليس الآن. إن روزى وديعة وتعامل الناس بلطف أيضًا.

الفصل ٧٩

كان الجزار فى جورج تاون للتنفيس عن بعض التوتر العاطفى بداخله وإلا فقد لا تسير الأمور على ما يرام عندما يعود إلى كايتلين والأطفال، إلى حياته المستقيمة. وفى الحقيقة، لقد عرف منذ وقت طويل أنه يستمتع بعيش حياة مزدوجة. ومن منا لا يستمتع بذلك بحق الجحيم؟

ربما يكون على موعد اليوم مع جولة أخرى من لعبة ضوء أحمر، ضوء أخضر. ولم لا؛ فحربه به مع ماجيونى الصغير كانت تمثل ضغطًا كبيرًا عليه.

كان حى ٣٠٠٠ فى شارع كيو - حيث يمشى الآن بخطى رشيقة وسريعة - مزينًا بصف من الأشجار الجميلة ومميزًا باحتوائه على منازل المدينة المبهرة والمنازل الريفية الكبيرة التى تشبه قصر مالك المزرعة. كان واضحًا أن سكان هذه

المنطقة من الأثرياء؛ حيث كانت السيارات المتوقفة تتحدث عن المكانة الاجتماعية وأذواق من يعيشون هنا؛ فكان هناك العديد من سيارات المرسيدس، وسيارة رينج روفر، وأخرى بى إم دبليو، وثالثة إستون مارتين، بالإضافة إلى سيارة أو سيارتين جديدتين ولامعتين من نوع بنتلى.

وفى معظم الأحيان، كان الشارع خاليًا من المارة باستثناء من يدخلون أو يغادرون منازلهم، الوضع مناسب لأهدافه اليوم. أخذ يستمع إلى فرقة إسكتلندية كان يحبها عبر سماعة الأذن، وهى فرقة فرانز فرديناند. وأخيرًا، أوقف الموسيقى وبدت عليه ملامح الجدية.

كانت هناك حفلة عشاء فخمة معدة لهذه الليلة فى البيت المشيد بالقرميد الأحمر عند التقاء شارعى الحادى والثلاثين وكيو. رأى شاحنة كبيرة مكتوب عليها "خادم جورج تاون الخصوصى" وهى تنزل الكثير من الأصناف اللذيذة غالية الثمن، والبستانى وهو يختبر مصابيح الغاز أمام المنزل. بدت المصابيح بحالة جيدة. متلألئة، متلألئة.

ثم سمع الجزار صوت الكعب العالى لحذاء إحدى السيدات. كان هذا الصوت المثير والمغرى يأتى من فوق رصيف المشاة أمامه، وكان الرصيف مكسوًا بالقرميد وليس رصيفًا عاديًا، وقد بدا بامتداده فى الجوار مثل عقد مبسوط على طاولة.

وأخيرًا رأى المرأة من الخلف وكانت جميلة وممشوقة القوام، ذات شعر أسود وطويل يتدلى حتى وسطها. أتراها أيرلندية مثله؟ أم أنها مجرد فتاة جميلة؟ لم يكن من الممكن قول ذلك على سبيل التأكيد من الخلف، ولكن المطاردة مستمرة، وقريبًا سيعرف المزيد عنها كما يريد. أحس بأنه بات يتحكم بالفعل فى مصيرها، بأنها أصبحت له، للجزار، اللقب الذى يمثل الأنا القوية البديلة لشخصيته، أو ربما كانت هذه هى شخصيته الحقيقية. من يدرى؟

اقترب أكثر فأكثر من المرأة ذات الشعر الأسود وهو يراقب الأزقة الضيقة التى تتخلل بعض المنازل الكبيرة، ويراقب الأشجار المنتشرة فى المكان بحثًا عن مكان مناسب وهنا رأى أمامه محلاً تجاريًا. ما هذا؟ إنه المكان التجارى الوحيد الذى يصادفه على مدى عدة أحياء، وهو ما جعله يبدو شاذًا على المكان.

كانت اللوحة الأمامية للمحل تقول: "سارة ماركت".

وبعد ذلك، دخلت الجميلة ذات الشعر الأسود المحل التجارى. وعندئذ، همس الجزار: "فشل المخطط"، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وهو يتصور نفسه أحد الأشرار فى الأفلام القديمة وهو يفتل شاربيه. أحب هذا النوع من الألعاب، هذه المطاردة الخطرة والمثيرة بين القط والفأر التى أرسى بنفسه كل قواعدها. ولكن سرعان ما غابت ابتسامته لأنه رأى شيئًا آخر فى "سارة ماركت"، ولم يكن ذلك الشىء الآخر يروق له.

كانت هناك جرائد معروضة نسخ من صحيفة الواشنطن بوست. أتعلمون ماذا يعنى ذلك؟ تذكر فجأة أن السيد بوب ودوارد بنفسه يعيش فى مكان ما فى هذه المنطقة، ومع ذلك لم يكن ذلك هو الجزء الأكبر من المشكلة.

كان وجهه هو المشكلة، وإن كانت صورة تقريبية على أية حال، أو الرسم المبسط للجزار الذى كان جيدًا إلى حد كبير. كانت الصورة تتصدر الصفحات الأولى من الأخبار اليومية، حيث لا يجب أن تكون.

"يا إلهى، أنا مشهور".

الفصل ٨٠

لم يكن الأمر مضحكًا مع ذلك، وهذا ما جعل مايكل سوليفان يعود مسرعًا إلى حيث أوقف سيارته فى شارع كيو. وحقيقة، كان ما حدث أسوأ تطور كان يمكنه تصوره، خاصة أن معظم الأمور لم تكن تسير فى مصلحته مؤخرًا.

جلس فى المقعد الأمامى لسيارته الكاديلاك وأخذ يفكر فى الموقف.

فكر فى شكوكه المحتملة فى المرأة التى لابد أنها قد تكلمت عنه وربما تكون هى التى أعطت أوصافه للشرطة. رأى أنه أصبح هدفًا لجهتين مختلفتين فى وقت واحد، شرطة واشنطن والمافيا. ما العمل، ما العمل؟

وعندما توصل إلى حل جزئى، بدا مرضيًا بل ومبتهجًا أيضًا، لأنه شعر بأن هذا الحل بمثابة لعبة جديدة له. تطور

آخر.

اعتقد أفراد شرطة واشنطن أنهم قد عرفوا المشكلة، وهو ما قد يكون مشكلة كبرى بالنسبة له، ولكن ذلك أيضًا قد يجعلهم يزهون بأنفسهم بل ويفرطون فى الثقة بما لديهم من معلومات.

خطأ.

خطأ من جانبهم.

لاسيما إذا اتخذ الإجراءات المناسبة الآن، الأمر الذى خطط له بالتأكيد. ولكن ما هى بالضبط، الإجراءات الدفاعية التى يتعين عليه القيام بها؟

أخذته أولى خطواته إلى حى ويسكونين أفينو، بالقرب من بلوز ألى ـ حيث تذكر المحل الصغير الكائن فيه. كان هناك حلاق يدعى رودى ينتظره فى منتصف الظهيرة، وهو ما جعل الجزار يجلس أمامه ليحلق شعره ولحيته.

شعر بارتياح ومتعة كبيرين، وهو يتساءل عن شكله بعد الحلاقة، وعما إذا ما كان سيعجبه شكله الجديد.

استغرقت الحلاقة اثنتى عشرة دقيقة أخرى، قال له بعدها: "ارفع أدواتك عنى يا دكتور فرانكشتين". بدا الحلاق الصغير البدين سعيدًا بنفسه.

أخذ الجزار يقول فى نفسه: إذا ارتكبت خطأ، فستموت. أنا لا أمزح يا رودى. سأمزقك إربًا بشفرتك الحادة. فلنر ماذا لدى الواشنطن بوست لتقوله عن ذلك!.

ولكن، مرحى!" ليس سيئًا جدًا. يعجبنى شكلى نوعًا ما. أرى أنى أشبه الآن بونو بعض الشىء".

سأله رودى الأبله: "هل تقصد بونو شريك المطربة شير فى فريق سونى آند شير؟ لا أعلم، أعتقد أنك تبدو أفضل من سونى بونو. إنه ميت الآن، هل تعلم ذلك؟".

علق سوليفان: "مهما يكن"، ثم دفع للحلاق ثمن الحلاقة وزاد عليها بعض البقشيش لينصرف بعد ذلك.

وتمثلت الخطوة التالية فى الذهاب بسيارته إلى حى كابيتول هيل فى واشنطن؛ حيث يقع مبنى الكونجرس الأمريكى.

لقد أحب هذه المنطقة دائمًا، ولطالما وجدها مصدر سعادة له. وكانت صورة مبنى الكونجرس أذهان الناس تقتصر على السلالم والمصاطب الجميلة فى الواجهة الغربية. ولكن على الناحية الشرقية، خلف مبانى الكونجرس والمحكمة العليا ومكتبة الكونجرس، كان هناك حى سكنى مزدحم يعرفه جيدًا. قال لنفسه: لقد مررت بهذا الطريق من قبل.

سار الجزار عبر منتزه لينكولن بارك، الذى يطل على منظر رائع لقبة الكونجرس؛ حيث تتساقط أوراق الشجر فى هذا التوقيت.

أشعل سيجارته وأخذ يراجع خطته أمام النصب التذكارى للتحرير، الذى كان على شكل عبد يكسر قيوده بينما لينكولن يقرأ" إعلان التحرير".

أخذ يتساءل: " لينكولن رجل صالح بكل المقاييس، وأنا رجل سيئ جدًا، أتعجب كيف يكون ذلك؟".

وبعد دقائق معدودة، كان يدخل أحد المنازل فى شارع سى. علم لتوه أنه منزل الحقيرة التى تحدثت عنه. شعر بذلك بجميع جوارحه، وقريبًا سيتأكد من الأمر.

وجد مينا ساندرلاند تأكل بنهم فى مطبخها الصغير الأنيق. كانت ترتدى سروالاً من الجينز مع قميص قطنى أبيض زاهيًا وحذاء منزليا قديمًا بعض الشىء، وكانت تعد الباستا لشخص واحد وهى تأخذ رشفة من كوب عصير كان بيدها. أخذ يحدث نفسه بأنها فاتنة وجذابة جدًا.

"هل افتقدتنى يا مينا؟ أنا افتقدتك. هل أخبرك بشىء؟ لقد نسيت تقريبًا كم أنت جميلة".

ولكنى لن أنساك ثانية يا فتاتى العزيزة. لقد أحضرت معى كاميرا لالتقط صورة لك هذه المرة. على كل حال، سأضمك إلى قائمة صورى المفضلة. أوه، أجل سأفعل ذلك".

ثم طعنها الطعنة الأولى بمشرطه.

الفصل ٨١

كنت لا أزال داخل دار العبادة عندما رن هاتفى الخلوى، ثمة مشكلة بالقرب من مبنى الكونجرس. تلوت صلاة سريعة لمن هو فى خطر، أيًا كان ذلك الشخص، وصلاة أخرى كى نتمكن من إلقاء القبض على هذا القاتل المغتصب قريبًا. بعدها غادرت دار عبادة سانت أنطونى متوجهًا إلى موقع الحادث.

انطلقت أنا وسامبسون بسيارته ذات جهاز الإنذار والأضواء الوامضة الخاصة بالشرطة إلى الحى الذى يقع خلف مبنى الكونجرس. وعندما وصلنا، كان الشريط الأصفر يحيط مسرح الجريمة. كانت هناك مأساة عارمة فى المكان الذى يحوى العديد من المبانى الحكومية المهمة عندما هرولت أنا وسامبسون على الدرجات الأربع لمدخل المبنى ـ مسرح الجريمة ـ المكسوة بالحجر الرملى الأسمر.

هل يقدم عرضا لنا؟ هل يفعل ذلك عمدًا؟ أم أن هذا يحدث هكذا فقط؟

سمعت صوت إنذار يصدر من سيارة توقفت قبالة الشارع. ياله من منظر غريب ومثير فى الوقت نفسه: المكان يعج برجال الشرطة ومراسلى الأخبار والجموع المحتشدة التى يتزايد عددها بمرور الوقت.

كان الخوف يكسو وجوه معظم الحاضرين، ولم أستطع منع نفسى من التفكير بأن ما أراه مشهد مألوف لهذا العصر، بما فى ذلك نظرات الخوف التى أراها، وهذه الحالة من الخوف الرهيب التى استحوذت على البلدة كلها وربما يكون العالم بأسره خائفًا الآن.

وللأسف، كان الوضع أسوأ داخل المبنى. كان مسرح الجريمة محاطًا بالفعل بالعديد من المحققين المتخصصين فى قضايا القتل وخبراء جمع الأدلة، ولكنهم سمحوا لـ "سامبسون" بالدخول. وكان عليه أن يتعامل مع اعتراضات رقيب كى يدخلنى معه.

توجهنا إلى المطبخ.

مسرح الجريمة الذى لا يصدق.

ورشة عمل القاتل.

رأيت المسكينة مينا ساندرلاند غارقة فى دمائها على الأرضية التى امتزج قرميدها البنى باللون الأحمر. ارتفعت حدقتا عينيها واتسع بياضهما، وبدتا مثبتتين على نقطة معينة فى السقف. ولكن عينى مينا لم تكونا أول شىء ألاحظه. يا إلهى، يا له من وغد هذا القاتل الحقير.

كان هناك سكين مغروز فى عنقها حتى المقبض مثل الوتد. وكانت هناك جروح عديدة غائرة فى وجهها، بالإضافة إلى الكثير من القطوع العميقة المتوحشة غير الضرورية. وكان القميص القطنى الأبيض الذى ترتديه ـ أو كانت ترتديه ـ

ممزقًا تمامًا. وكان القاتل قد أنزل سروالها الجينز وملابسها الداخلية حتى عقبيها ولكنه لم ينزعها تمامًا. أما حذاؤها، الأزرق الباهت، فكانت فردة منه لا تزال فى قدمها بينما ترقد الأخرى على جانبها وسط الدماء.

نظر إلىَ سامبسون ثم قال: "أليكس، إلى أى شىء توصلت؟ أخبرنى".

أجبته: "ليس الكثير. ليس حتى الآن. لا أعتقد أنه اغتصبها".

"لماذا؟ لقد نزع عنها ملابسها الداخلية".

جثوت على ركبتىَ أمام جثة مينا ثم أجبته: "طبيعة الجروح. كل هذه الدماء. التشويه. لقد كان غاضبًا جدًا منها. لقد أمرها ألا تتحدث إلينا، ولكنها عصت أوامره، وهذا ما جاء لأجله. أعتقد ذلك. قد نكون السبب فى قتلها يا جون".

رد على جون غاضبًا: "أليكس، أخبرناها ألا تعود إلى هنا الآن. لقد عرضنا عليها توفير المراقبة والحماية. ماذا كان بوسعنا أن نفعله أكثر من ذلك؟".

هززت رأسى وأنا أجيبه: "ربما كان بوسعنا أن ندعها وشأنها، أو أن نلقى القبض على القاتل قبل أن يتمكن من الوصول إليها، أو أى شىء آخر يا جون - أى شىء إلا هذا".

الفصل ٨٢

إذن فنحن نحقق الآن فى قضية مينا ساندرلاند، وأيضًا كنت أبرر ذلك بأنه من أجلها - أو على الأقل ذلك ما قلته لنفسى. كان التحقيق من أجل ماريا كروس ومينا ساندرلاند وكل الأخريات.

وطوال الثلاثة أيام التالية، ظللت ألازم سامبسون فى العمل نهارًا ثم أخرج معه لنسير معًا فى الطرقات ليلاً.

كان دوامنا الليلى يبدأ عادة من العاشرة وحتى قرابة الثانية صباحًا. وكنا جزءًا من القوة المكلفة بالقيام بدوريات فى منطقتى جورج تاون وفوجى بوتوم اللتين نفذ القاتل المغتصب بعض عملياته فيهما من قبل. كانت الرغبة فى القبض عليه قوية لدى الجميع، ولكن لا أعلم أحدًا كان يتعطش لذلك أكثر منى.

كنت لا أزال أبذل قصارى جهدى كى أبقى التحقيق المكثف جدًا فى مساره الصحيح دون أن يخرج عن السيطرة. وكنت أتمكن من تناول العشاء مع جدتى والأطفال كل ليلة تقريبًا. اتصلت بـ "كايلا" كولز فى نورث كارولينا فوجدتها فى حالة أفضل. كما قمت بعمل ست جلسات مع مرضاى، بمن فيهم كيم ستافورد، التى كانت تزورنى مرتين أسبوعيًا وربما كانت تحقق بعض التقدم. لم يذكر لها خطيبها قط أمر "الحديث" الذى دار بيننا.

تضمنت طقوسى الصباحية تناول القهوة فى مقهى ستارباكس الذى يقع فى المبنى نفسه الذى يضم مكتبى، أو فى مقهى أوبون بين عند التقاء شارعى إنديانا والسادس. والمشكلة فى أوبون بين هى أنى أحب المعجنات التى يقدمونها كثيرًا، ولذا كان علىَ أن أبقى فى هذا المكان لأطول وقت ممكن.

كانت كيم مريضتى المفضلة، وهذا معروف عن المعالجين النفسيين الذين عادة ما يكون لديهم مرضى مفضلون، مهما حاولوا إنكار ذلك. قالت بعد حوالى خمس عشرة دقيقة من جلستنا ذات صباح: " أتذكر حين قلت لك إن جيسون ليس بهذا السوء؟" تذكرت ذلك، وتذكرت أيضًا ما دار بيننا فى مخفر الشرطة حيث يعمل.

أردفت قائلة: "حسنًا، إنه حثالة يا دكتور كروس. لقد تبينت ذلك، ولكن أخذ إدراك ذلك منى وقتًا أكثر مما ينبغى".

أومأت برأسى وانتظرت حتى تقول المزيد، وكنت أعلم بالضبط ما كنت أريد سماعه منها بعد ذلك.

"لقد تركته. انتظرت حتى ذهب لعمله، ثم غادرت الشقة. أتريد الحقيقة؟ إنى خائفة حتى الموت. ولكنى فعلت ما كان يتعين علىَ فعله".

نهضت وسارت حتى النافذة، التى تطل على ميدان جوديشارى سكوير، والتى أستطيع أن أرى منها أيضًا مبنى المحكمة من مكانى.

سألتنى وهى تنظر إلى الخاتم الذى كنت لا أزال ألبسه فى يدى اليسرى: "كم مضى على زواجك؟".

أجبتها: "كنت متزوجًا، ولم أعد الآن". ثم تحدثت معها قليلاً عن ماريا وما حدث لها منذ أكثر من عشر سنوات أطلعتها على القصة المختصرة، الخالية من المشاعر".

قالت وأنا لم أنته بعد: "أنا آسفة، ورأيت الدموع فى عينيها"، وكان ذلك آخر شىء أريده. وحدث ذلك الصباح أن تطرقنا إلى موضوعين شائكين وحققنا بعض التقدم. ثم حدث شىء غريب صافحتنى قبل أن تغادر وهى تقول: "إنك شخص طيب. إلى اللقاء يا دكتور كروس".

أعتقد أننى فقدت لتوى إحدى مرضاى - بل مريضتى الأولى - لا لشىء إلا لأننى قمت بعمل جيد.

الفصل ٨٣

كاد ما حدث تلك الليلة أن يعصف بعقلى. وحقيقة، كان كل شىء على ما يرام فى تلك الليلة حتى ساءت الأحوال. وكنت قد أخذت الجدة والأطفال لتناول عشاء خاص فى مطعم كينكيد بالقرب من البيت الأبيض فى شارع بنسلفانيا أفينيو، وهو مطعمنا المفضل فى واشنطن. اقترب عازف الجاز هيلتون فنتون من طاولتنا وأخذ يروى لنا قصة طريفة عن الممثل مورجان فريمان. وعندما عدنا إلى البيت، تسلقت السلم الخشبى المنحدر إلى مكتبى فى السقيفة، وأنا ألعن درجاته بصوت منخفض، درجة درجة.

أدرت بعضًا من أعمال سام كوك الموسيقية بادئًا بأغنيته المفضلة الشهيرة "You Send Me". ثم انكببت على بعض الملفات القديمة لشرطة واشنطن التى يرجع تاريخها إلى وقت

مقتل ماريا ـ وكانت تحتوى على مئات الصفحات.

كنت أبحث عن قضايا الاغتصاب التى لم تحل من وقتها حتى الآن، وبصفة خاصة تلك التى وقعت فى الجنوب الشرقى أو المناطق المجاورة. عملت بتركيز شديد وأنا أستمع إلى الموسيقى، تفاجأت عندما نظرت إلى الساعة ووجدتها تشير إلى الثالثة وعشر دقائق. اكتشفت بعض الأمور المثيرة فى الملفات عن قضية الاغتصاب المتسلسل التى دارت أحداثها فى الوقت نفسه الذى ماتت فيه ماريا.

وفى الحقيقة، كانت سلسلة الاغتصابات قد بدأت قبل أسابيع قليلة من إطلاق النار على ماريا وانتهت بعد مقتلها مباشرة. ولم تستأنف أبدًا بعد ذلك. أيعنى ذلك أن المغتصب ربما كان زائرًا لواشنطن وليس من قاطنيها؟

بل الأكثر إثارة من ذلك بالنسبة لى أنه لم يتم الكشف عن هوية المعتدى من أى من النساء الضحايا. لقد تلقين رعاية طبية، ولكنهن رفضن التحدث إلى الشرطة عما قد حدث لهن. لم يضع ذلك يدى على شىء، ولكنه دفعنى إلى قراءة المزيد من الصفحات.

قرأت المزيد من السجلات، ولكن دون التوصل إلى أوصاف المعتدى وفق روايات الضحايا.

هل يمكن أن يكون ذلك محض صدفة؟ شككت فى ذلك وواصلت القراءة.

ثم استوقفتنى إحدى الصفحات فى تقارير الشرطة وكانت هذه الصفحة تحتوى على اسم، وعلى المزيد من المعلومات التى تبدت لى.

ماريا كروس.

أخصائية اجتماعية فى بوتوماك جاردنز.

كان المحقق ألفين هايتاور ـ الذى لم أكن أعرفه جيدًا آنذاك وأنا على يقين تمامًا من أنه ميت الآن ـ قد كتب تقريرًا

عن اغتصاب فتاة جامعية من جامعة جورج واشنطن. وقد ذكر في تقريره أن الاعتداء وقع داخل إحدى الملاهى الليلية فى شارع إم ستريت.

وبينما كنت أواصل القراءة، إذ بى أشعر بصعوبة فى التنفس لبعض الوقت حين تذكرت المحادثة التى دارت بينى وبين ماريا قبل يومين من موتها. وكنا قد تحدثنا عن قضية تعمل عليها، قضية فتاة تعرضت للاغتصاب.

وطبقًا لما جاء فى تقرير المحقق، أعطت الفتاة بعض أوصاف الجانى لأخصائية اجتماعية تدعى ماريا كروس. كان رجلاً أبيض يتجاوز طوله الست أقدام بقليل، ويحتمل أن يكون من نيويورك. وأشار التقرير إلى أنه عندما فرغ من فعلته مع الفتاة، انحنى لها انحناءة بسيطة.

ارتجفت أصابعى وأنا أقلب الصفحة لأراجع تاريخ التقرير الأوَّلىّ. ها هو - إنه يشير إلى اليوم السابق لمقتل ماريا.

والمغتصب؟

إنه الجزار، قاتل المافيا الذى كنا نتتبعه. تذكرت انحناءته فوق سطح البناية، وتذكرت كذلك زيارته غير المبررة لمنزلى.

إنه الجزار.

أراهن بحياتى على أنه هو.

الجزء الرابع

قاتل التنين

الفصل ٨٤

التقطت جدتى سماعة الهاتف فى المطبخ؛ حيث اجتمعت الأسرة بكاملها لإعداد العشاء تلك الليلة. وكان كل منا مكلفًا بمهمة معينة من أجل إعداد الوجبة، بدءًا من تقشير البطاطس وحتى عمل سلطة الخضراوات بالدجاج أو المايونيز ووضع أدوات المائدة الفضية على المائدة. كنت أشعر بالتوتر كلما رن الهاتف. ماذا الآن؟ هل وجد سامبسون أى شيء عن الجزار؟

انطلق صوت جدتى عبر السماعة: "مرحبًا يا عزيزتى، كيف حالك؟ وكيف تشعرين الآن؟ أوه، هذا جيد، يسعدنى سماع ذلك كثيرًا. سأناديه لك. أليكس هنا يقطع الخضراوات كأنه يعمل فى "بنيهانا". أوه، أجل، إنه يقوم بعمل جيد. وسيتحسن أداؤه أكثر عندما يسمع صوتك".

علمت أنها كايلا، ولذلك رددت عليها من حجرة المعيشة. وعندئذ، تساءلت متى تحولنا إلى أسرة تمتلك هاتفًا فى كل حجرة تقريبًا، ناهيك عن الهاتفين الخلويين اللذين يأخذهما ديمون وجانى إلى المدرسة هذه الأيام.

التقطت سماعة الهاتف وحاولت أن أقلد نبرة صوت جدتى العذبة: "إذن، كيف حالك يا عزيزتى؟"، ثم قلت للمجموعة التى تتنصت من المطبخ وهم يضحكون ويقهقهون: "لقد وصلت إلى الهاتف، يمكنكم غلق السماعة فى المطبخ".

أخذ الأطفال يصيحون معًا فى صوت واحد: "مرحبًا كايلا ! وداعًا كايلا !".

ثم أضافت جدتى : "إلى اللقاء كايلا نحن نحبك. نأمل أن تتحسن حالتك قريبًا".

سمعت أنا وهى صوت إغلاق سماعة الهاتف، بعدها قالت كايلا: "أنا أتحسن كثيرًا. المريضة بحال أفضل الآن. لقد شفيت تقريبًا ومستعدة لنطح أحدهم مرة أخرى".

ابتسمت وشعرت بالدفء يغمرنى لمجرد سماع صوتها، حتى لو باعدت بيننا كل تلك المسافة. "حسنًا، يسرنى سماع صوتك الساخر مرة أخرى".

"وأنت كذلك يا أليكس، يسرنى سماع صوتك وصوت الأطفال والجدة. آسفة لعدم اتصالى بكم الأسبوع الماضي. فقد مرض أبى ولكنه تعافى الآن أيضًا. وأنت تعرفني. لقد قمت بجولة فى الجوار لأقوم ببعض الأعمال التطوعية. وكما تعرف، فأنا أكره تقاضى أجرًا فى مقابل ذلك".

ساد الصمت بيننا لبعض الوقت، ثم كسرت جدار الصمت هذا بطرح بعض الأسئلة العابرة عن أحوال كايلا وحياتها فى نورث كارولينا حيث ولد كل منا. وعندئذ، هدأت بعض الشيء وذهب عنى التوتر نتيجة لمكالمة كايلا غير المتوقعة ورجعت لحالتى الطبيعية.

سألتها: "إذن كيف حالك؟ هل أنت بخير حقًا؟ هل تعافيت تمامًا؟".

"نعم بالتأكيد. لقد تحسنت فى أمور معينة عن ذى قبل. لقد نعمت ببعض الوقت لمعالجة الوضع وإحداث تغيير فى حياتى. أليكس، كنت أفكر فى... أنى قد لا أعود إلى واشنطن. أردت التحدث إليك فى هذا الأمر قبل أن أخبر به أى شخص آخر".

تقلصت معدتى وخفق قلبى وكأننى داخل مصعد فى ناطحة سحاب. لطالما شككت فى إمكانية حدوث شيء كهذا، ولكنى كنت لا أزال أتجاهل هذه الشكوك وأدير لها ظهري.

تابعت كايلا: "أمامى الكثير هنا لأقوم به مع العديد من المرضى بالطبع. لقد نسيت مدى جمال وهدوء هذا المكان. أنا آسفة، فأنا لست ماهرة فى استخدام الكلمات... ولا أستطيع صياغة ذلك بطريقة أفضل".

قلت وأنا أشعر ببعض الألم فى داخلي: "أنت لست بارعة فى الكلام، تلك مشكلتكم أيها العلماء".

تنهدت كايلا بعمق قبل أن تقول: "أليكس، هل تعتقد أننى مخطئة فى ذلك؟ هل تدرك ما أقول؟ أنت تدرك ذلك بالطبع".

أردت أن أخبر كايلا أنها مخطئة تمامًا، وأنه ينبغى لها أن تسرع بالعودة إلى واشنطن، ولكن لسانى أبى أن يطاوعنى فى قول ذلك. ما الذى يحملك على ذلك؟ وبدلاً من ذلك قلت: "حسنًا، إليك الإجابة الوحيدة التى يمكننى إخبارك بها يا كايلا. أنت تعرفين مصلحتك جيدًا، ولن أحاول مطلقًا التأثير عليك بأى حال من الأحوال. أعلم أنه لا يمكننى إثناؤك عن هذا القرار لو أردت ذلك. ولكنى لست متأكد من أنك تفعلين الشيء الصحيح".

قالت: "أوه، أعتقد أنك نجحت فى ذلك بالفعل. أنت محق تمامًا. أشعر حقًا أنه يتعين على النظر فيما فيه مصلحتى. هذه طبيعتى، أليس كذلك؟ بل إنها طبيعة كل منا".

واصلنا التحدث لبعض الوقت، ولكن ما إن وضعنا سماعة الهاتف حتى انتابنى ذلك الشعور المخيف عما حدث للتو. لقد فقدتها، أليس كذلك؟ ماذا دهانى؟ لماذا لم أخبرها أنى أحتاج إليها؟ لماذا لم أطلب منها أن تعود إلى واشنطن فى أقرب وقت ممكن؟ لماذا لم أخبرها أنى أحبها؟

وبعد العشاء، صعدت إلى مكتبى فى السقيفة، إلى ملجأي، إلى ملاذى الذى أهرب إليه، وحاولت أن ألهى نفسى بما تبقى من الملفات القديمة التى يرجع تاريخها إلى مقتل ماريا. لم أفكر كثيرًا فى كايلا؛ وقصرت تفكيرى كله فى ماريا التى أشعر الآن بافتقادى لها ما يفوق افتقاد سنوات كاملة، وأنا أتساءل كيف كانت حياتنا لتكون لو لم تمت.

وعند حوالى الواحدة صباحًا، نزلت السلم على أطراف أصابعى، وتوجهت بهدوء إلى حجرة آلى مرة أخرى. وفى هدوء تام، نمت بجوار ولدى الحالم العزيز.

أمسكت يد أليكس الصغير بخنصرى وقلت له بصوت أقرب إلى الصمت: "ساعدنى يا عزيزى".

الفصل ٨٥

بدأت الأمور تتطور بشكل سريع الآن ... سواء للأفضل أو للأسوأ. فلم يسبق لمايكل سوليفان أن كان بكل هذا القدر من العصبية لسنوات طوال، بل إنه أحب هذا الشعور بضرورة الإسراع فى إنهاء المهام التى أمامه. لقد عاد، أليس كذلك؟ اللعنة! إنه فى أوج حماسته أيضًا. لم يكن يشعر بكل هذا الغضب والتركيز من قبل. وتكمن المشكلة الحقيقية الوحيدة فى أنه بدأ يشعر بالحاجة إلى المزيد من الإثارة، من أى نوع. لم يعد قادرًا على البقاء ساكنًا فى الفندق الصغير الذى يقيم به ويكتفى بمشاهدة الحلقات القديمة من مسلسل "*Law & Order*" أو لعب كرة القدم أو البيسبول مع الأولاد.

إنه بحاجة إلى الصيد؛ إلى مواصلة التقدم؛ إلى شحذ همته بضخ المزيد من الأدرينالين فى عروقه كى يبقى على استعداد تام للقيام بأية مهمة.

خطأ.

ولذلك وجد نفسه فى واشنطن مرة أخرى ـ حيث لا ينبغى أن يكون ـ حتى على الرغم من تنكره فى شعره القصير الجديد وارتدائه القميص الرياضى الفضى فى الأزرق الخاص بالفريق الرياضى لجامعة جورج تاون وكأنه يريد أن يبدو مثل شاب أخرق من أبناء المدينة يستحق الضرب فى وجهه والركل فى رأسه وهو منخفض على الأرض.

ولكن تبًا لكل ذلك، لقد أحب كل النساء هنا، لا سيما النساء النحيلات اللاتى يعملن فى وظائف تتطلب ثقافة وعلمًا وفضلهن على الأخريات. لقد انتهى لتوه من قراءة رواية "*Villages*" للمؤلف جون أبلايك وتساءل ماذا لو كان العجوز أبلايك فى نصف صلابة الشخصيات الأخرى التى كتب عنها. أليس هذا الأخرق هو من كتب رواية "*Couples*" أيضًا؟ هذا بالإضافة إلى أنه على الرغم من تجاوز أبلايك حاجز السبعين عامًا، فإنه لا يزال يكتب عن الجنس وكأنه مراهق فى المزرعة فى بنسلفانيا يتتبع أى شيء ذى قدمين أو ثلاثة أو حتى أربعة أقدام. وربما يكون قد غاب عنه مغزى الرواية ولم يفهمها جيدًا، أو ربما يكون أبلايك نفسه هو من غاب عنه مغزى الرواية. هل ذلك ممكن؟ ألا يدرك كاتب مغزى ما كتبه بنفسه؟

على أية حال، فقد أعجب بنساء جورج تاون. لقد بدت رائحتهن ذكية ومنظرهن جميلاً حقًا وحديثهن عذبًا. "نساء جورج تاون"، سيكون ذلك عنوانًا جيدًا إذا أراد أحدهم أن يكتب عن هذا الموضوع، وربما يكتب عن ذلك جونى يو بنفسه.

يا إلهي، إنه يستمتع بوقته على أية حال. وفى طريق عودته بالسيارة من ميريلاند، ظل يستمع إلى أغنيات فريق "يو تو"

التى ينتحب فيها بونو لرغبته فى قضاء بعض الوقت داخل رأس محبوبته، مما جعل سوليفان يتساءل منحيًا طبيعته الرومانسية الأيرلندية جانبًا ما إذا كانت هذه فكرة سديدة. هل تريد كايتلين أن تكون داخل رأسه؟ من المؤكد أنها لا تريد ذلك. أم هل يريد هو أن يكون داخل رأسها؟ لا؛ لأنه لا يحب العيش فى مساحات كبيرة فارغة.

إذن، أين كان بحق الجحيم؟

أوه، لقد كان فى الشارع الحادى والثلاثون. دخل إلى زقاق بلوز ألى، الذى كان خاليًا تمامًا من المارة فى هذا الوقت من النهار على النقيض من الليل حين تفتح الملاهى الليلية أبوابها للجموع المحتشدة التى تحدث قدرًا كبيرًا من الصخب فى هذه الأجزاء من واشنطن. أخذ يستمع إلى جيمس ماكارثى وأغنيته الشهيرة "Heartless Bastards". أحب الموسيقى الصادرة من مشغل الأقراص المدمجة فى سيارته المتوقفة لدرجة أنه فضل البقاء فيها بضع دقائق إضافية.

وأخيرًا، أخرج ساقيه من السيارة ومَدَهما أمامه ثم أخذ يتنفس هواء المدينة الفاسد.

مستعد أم لا، ها أنا قادم. قرر أن يقطع الطريق إلى شارع ويسكونسين ويتفقد النساء هناك، فربما يغوى إحداهن ويعود بها إلى الزقاق بطريقة أو بأخرى. ثم ماذا؟ سيفعل ما يحلو له. إنه مايكل سوليفان، جزار سليجو، وغد حقيقى مجنون ولا يستطيع أى أحد على وجه الأرض أن يوقفه. ما هى تلك العبارة التى أعجبته فى إحدى الأغنيات القديمة؟ شعرت بصوت بداخلى يقول فلتمض فى ذلك.

كان مدخل الشارع الحادى والثلاثين المؤدى إلى الزقاق غارقًا فى الأضواء الصفراء الباهتة الصادرة عن مصابيح أحد المطاعم الإيطالية يطلق عليه ريستورانتى بيكولو. وكانت العديد من المطاعم فى شارع إم ستريت، الموازية للزقاق، ذات

مداخل خدمة خلفية.

مر بالمدخل الخلفى لأحد مطاعم المشويات، ثم تجاوز مطعمًا فرنسيًا ومنه إلى مطعم تفوح منه رائحة البرجر الدهنى الكريهة.

لاحظ رجلاً آخر يدخل الزقاق ثم تبعه رجلان آخران يسيران خلفه أيضًا.

ما هذا بحق الجحيم؟

ماذا يحدث هنا الآن؟

ولكنه ظن أنه يعرف ماذا يحدث، أليس كذلك؟ وكانت هذه نهاية الطريق. يبدو أن أحدهم قد تفوق عليه أخيرًا ونال منه قبل أن ينال هو منه. كان الثلاثة أقوياء البنية وضخام الجثة ويرتدون معاطف جلدية قصيرة، ما جعلهم يبدون وكأنهم يتأهبون للقتال. من المؤكد أنهم ليسوا من طلبة جورج تاون يختصرون الطريق ليظفروا بوجبة لحم بقرى فى مطعم ستيك أند برو.

عاد أدراجه إلى الشارع الحادى والثلاثين ليرى أمامه رجلين آخرين.

خطأ.

خطأ فادح.

من جانبه.

لقد قلل من شأن جون ماجيونى.

الفصل ٨٦

صاح أحد الرجال الغلاظ الذين كانوا يتقدمون باتجاه مايكل سوليفان، وهم يمشون فى تبختر وخيلاء من المدخل إلى الزقاق الذى يقع فى شارع ويسكونسين: "لقد أرسلنا السيد ماجيونى". أخذ رجال المافيا يتحركون بسرعة الآن وحاصروه من كل اتجاه. ومما زاد الموقف تعقيدًا، بغض النظر عن أن اثنين من هؤلاء الحمقى كانا قد أخرجا سلاحيهما بالفعل وأبقياهما إلى جانبهما، أن الجزار كان مجردًا من السلاح تمامًا إلا من مشرط الجراحة الذى كان يحتفظ به فى حذائه ذى الرقبة.

من المستحيل تمامًا أن يقضى على أربعة منهم، ليس باستخدام مشرط. بل ربما حتى لو كان معه مسدس. إذًا، ماذا عساه يفعل؟ هل يلتقط لهم صورًا فوتوغرافية بكاميرته؟

قال كبيرهم: "إنه المتعجرف، إنه الجزار بعينه. لا يريد السيد ماجيونى أن يراك. إنه يريدك أن تختفى فحسب. ويستحسن أن يتم ذلك فى أقرب وقت ممكن، اليوم مثلاً. هل ظننت أنه كان بإمكانك فعل الشيء نفسه مع السيد ماجيونى؟ أراهن على قدرتك على ذلك. بعد ذلك سنعثر على زوجتك والأطفال الثلاثة ونجعلهم يختفون كذلك".

أخذ مايكل سوليفان يدور كل الاحتمالات والتغيرات فى عقله الآن.

ربما يتمكن من القضاء على ذلك الرجل المتشدق، ولكن ذلك لن يغير من الوضع كثيرًا؛ فرجل واحد ليس خسارة كبيرة على أية حال. قد يخرس لسانه البغيض الآن وإلى الأبد، بل قد يمزقه إربًا أيضًا.

ولكن ماذا عن الثلاثة الآخرين؟

ربما يتمكن من النيل من اثنين منهم، وذلك إن حالفه الحظ وكان بارعًا؛ أو فى حال تمكنه من جعلهم يقتربون منه بما يكفى لاستخدام مشرطه، وهو ما لا يمكن حدوثه. ربما كانوا أغبياء، ولكنهم ليسوا بكل هذا الغباء. إذن، ماذا عساه يفعل كى يحسن موقفه؟ إنه لا يريد أن يسقط دون قتال.

صاح بالرجل المتشدق: "هل أنت شجاع بما يكفى كى تخرجنى بنفسك؟ هل أنت كذلك يا "بابو"؟"، وهى المقابل لكلمة مغفل فى المافيا لوصف أحد أفرادها بالحماقة وعدم الفائدة. وكان يحاول بذلك بث الرعب فيه وزعزعة ثقته بنفسه قدر الإمكان. اللعنة! سيحاول فعل أى شيء الآن؛ وذلك لأنه سيموت فى غضون دقيقة أو دقيقتين، وهو غير مستعد بعد لأن يموت الآن.

ارتسمت على شفتى القاتل ابتسامة شرسة قبل أن يقول: "لا شك فى ذلك. بإمكانى أن أخرجك بنفسى. ولكن خمن، من هو المغفل اليوم؟ سأعطيك لمحة عنه. ربما تكون قد لمعت حذاءه

هذا الصباح".

وصل الجزار إلى جيب قميصه الرياضى وأبقى يده فيه.

وعلى الفور، غير المجرم المتشدق رأيه ورفع يده الخالية مشيرًا لهم بالتوقف. وبالفعل، توقف الآخرون ولم يقتربوا من الجزار الأسطورى على الرغم من أنهم كانوا يشهرون أسلحتهم.

أشار كبيرهم للرجلين خلف سوليفان بالتحرك عن يمينه فيما تمركز هو والرجل الرابع عن يساره، وهى إشارة واضحة للجميع بإطلاق النار. يا له من تفكير ذكي!

"لقد وقعت هذه المرة أيها الأحمق الذى يدعى مايك، أليس كذلك؟ لدىَّ سؤال لك: هل فكرت من قبل أن تنتهى حياتك بهذه الطريقة؟".

ضحك سوليفان على السؤال الأخير، ثم أجابه: "ألا أخبرك بشيء؟ لم أفكر قط فى أنها ستنتهى. لم يحدث ذلك أبدًا. وحقيقة، لا زلت غير مضطر للتفكير فى ذلك الأمر".

"أوه، بل ستنتهى بالفعل، هنا والآن. ليس عليك إلا أن تنتظر حتى النهاية!".

لم تكن هناك أية صعوبة فى معرفة أى من القولين ينطوى على الحقيقة ولكن حدث بعد ذلك أن سمع الجزار شيئًا كان يصعب عليه تصديقه.

كان الصوت آتيًا من الخلف، ولذلك كان عليه أن يستدير ليتحقق منه، ليرى ما إذا كان حقيقيًا أم أنها مجرد مزحة سخيفة وقاسية بقصد السخرية منه.

كان هناك شخص ما يصيح من منتهى الزقاق مما جعل الأمر أشبه ما يكون بمعجزة حقيقية عابثة.

أو ربما يكون هذا أكثر أيام حظه فى حياته كلها.

أو ربما كان الاثنان معًا.

لقد وصل فارس الإنقاذ!

انظروا من جاء لينقذه اليوم!

الفصل ٨٧

شرطة واشنطن! ضعوا أسلحتكم. ضعوها الآن! نحن ضابطا شرطة. ألقوا مسدساتكم على الأرض".

رأى سوليفان رجلى الشرطة، وبدا أنهما محققين، وكانا رجلين أسودين يرتديان ملابس مدنية.

كان الشرطيان يتعقبان رجال المافيا الذين كانوا يقفون على مقربة من الشارع الحادى والثلاثين ليروا ما سيقومون به بعد ذلك، فى انتظار خطوتهم التالية.

وهذا ما كان يفعله هو الآخر.

كم كان قدوم هذين الشرطيين مثيرًا! أخذ سوليفان يتساءل، هل يمكن أن يكونا جزءًا من القوة المكلفة بتسيير دوريات فى جورج تاون لإلقاء القبض على المغتصب، لإلقاء القبض عليه؟

اللعنة! إنه على يقين من أنهما كذلك، ولو صح ذلك، فهذا يعنى أنه الوحيد فى الزقاق الذى يعرف ذلك حتى الآن.

وبينما انشغل أحد الشرطيين بطلب المساعدة عبر جهاز الإرسال الخاص به، استدار رجلا المافيا القريبان من ويسكونسين ولاذا بالفرار.

كان الشرطيان يشهران سلاحيهما بالفعل، ولكن ماذا كانا سيفعلان؟ أو بالأحرى، ماذا كان بإمكانهما أن يفعلا؟

هم الجزار أن يضحك وهو يستدير ببطء ويمشى باتجاه ويسكونسين هو الآخر.

ثم أخذ يجرى بأقصى سرعته باتجاه الشارع المزدحم. يا له من مجنون، لقد بدأ يضحك ملء فمه. قرر أن يواجه الأمر بتحد كبير، ويواصل الجرى فحسب، تمامًا كما كان يفعل فى الأيام الماضية فى بروكلين عندما كان صبيًا يخطو خطواته الأولى فى عالم الإجرام.

اجر يا مايكى، اجر. اجر لتنقذ حياتك.

ماذا كان بوسع رجلى شرطة واشنطن أن يفعلا؟ هل يطلقان النار على ظهره؟ ومن أجل ماذا؟ لأنه يجري؟ أم لأنه ربما يكون ضحية لأربعة رجال مسلحين فى زقاق؟

ظل الشرطيان يصيحان به ويهددانه، ولكن لم يكن بوسعهما فعل أى شىء سوى مشاهدته وهو يلوذ بالفرار ويبتعد عنهما. كان ذلك أكثر شىء يدعو للضحك والسخرية رآه طوال سنوات عديدة، أو ربما على مدار حياته كلها. لقد جاء الفرسان للإنقاذ ـ إنقاذه هو.

خطأ جسيم،

من جانبهما.

الفصل ٨٨

كان هناك اثنا عشر شرطيًا يدخلون ويخرجون من مخفر الشرطة فى ويسكونسين عندما وصلنا هناك أنا وسامبسون فى ظهيرة ذلك اليوم. وكان المحقق مايكل رايت قد أدرك أخيرًا أنه ورفيقه ربما يكونان قد فقدا لتوهما مغتصب جورج تاون، وهو ما يعنى أنه ربما يكون قد ضيع أكبر صفقة فى مهنته. كانا لا يزالان يحتجزان رجلين فى قفص الاتهام، وثمة احتمال بأن يكون هذان الرجلان على علم بما يجري، ولكنهما كانا بحاجة إلى من يضع اللمسات الأخيرة فى التحقيق.

مررت أنا وسامبسون من خلال باب زجاجى مضاد للرصاص على ارتفاع عشرة أقدام، وتوجهنا بعد ذلك إلى غرف التحقيق الواقعة خلف الأماكن المخصصة لنوم المحققين. بدا مكان العمل مألوفًا لدىَّ بمكاتبه المخيفة والمتسخة، وأجهزة الحاسب

القديمة، والهواتف التى تعود إلى عصور ماضية، وصناديق الملفات القديمة المتراكمة حتى السقف.

وقبل أن ندخل غرفة التحقيق، أخبرنا رايت أن الرجلين المحتجزين بالداخل لم ينطقا بكلمة واحدة حتى الآن، ولكنهما كانا يحملان مسدسين من نوع "برتا"، وكان متأكدًا من أنهما قاتلان. وعندما هممنا بدخول الغرفة أنا وسامبسون، قال لنا رايت: "استمتعا بوقتكما".

استهل سامبسون التحقيق بالقول: "أنا المحقق جون سامبسون، وهذا الدكتور أليكس كروس، المحلل النفسى القضائى المكلف بالتحقيق فى قضايا الاغتصاب المتسلسل فى محيط جورج تاون. أما أنا، فأقوم بالتحقيق فى القضية نفسها".

لم ينطق أى من الرجلين بكلمة واحدة، ولا حتى دعابة بسيطة تكسر الصمت. بدا كل منهما فى أوائل الثلاثينات من العمر، وكانا ضخمى الجثة ويرسمان ابتسامة متكلفة دائمة على وجهيهما.

طرح سامبسون عليهما سؤالين إضافيين؛ بعدها اكتفينا بالجلوس صامتين على الجانب المقابل من الطاولة حيث يجلس الرجلان.

وأخيرًا، طرقت الباب سكرتيرة المخفر وسلمت سامبسون ورقتين من آلة الفاكس كانت قد تسلمتهما لتوها.

قرأ الورقتين ثم أعطانيهما.

قال سامبسون: "لم أكن أعتقد أن المافيا نشطة فى محيط واشنطن، ولكن أخالنى كنت مخطئًا. أنتما من المافيا. هلا أخبرنى أى منكما بما كان يحدث فى ذلك الزقاق؟"

لم يفعلا، وكانا قد عقدا العزم على عدم إجابة أى سؤال نطرحه عليهما وكأننا غير موجودين تمامًا، وهو ما أغضبنا كثيرًا.

سألنى سامبسون: "دكتور كروس، ربما نتبين الأمر دون مساعدتهما. ما رأيك فى ذلك؟".

"يمكننا محاولة ذلك. تشير الورقتان هنا إلى أن جون أنتونلى "الحفار" وجوزيف لانجلو "النصل" يعملان لصالح ماجيونى خارج نيويورك. لابد أنه ماجيونى الصغير ابن ماجيونى الكبير الذى استأجر رجلاً يدعى مايكل سوليفان، والذى يعرف أيضًا بالجزار، ليقوم بعملية قتل فى واشنطن منذ عدة سنوات. هل تتذكره يا جون؟".

"أجل أتذكره. إنه من قتل تاجر المخدرات الصيني. لقد قتلت زوجتك ماريا أيضًا فى الوقت نفسه. أصبح السيد سوليفان مشتبهًا به الآن فى هذه القضية".

عقبت على كلام سامبسون بالقول: "كما أن مايكل سوليفان "الجزار" هذا نفسه مشتبه به أيضًا فى سلسلة من جرائم الاغتصاب فى جورج تاون، هذا بالإضافة إلى جريمة قتل على الأقل مرتبطة بهذه الاغتصابات"، ثم سألت قاتلى المافيا: "هل كان سوليفان هو نفسه الرجل الذى كنتم تحاصرونه فى زقاق بلوز؟".

لم أسمع كلمة واحدة من أى منهما. لا شيء على الإطلاق. يا لهما من عنيدين حقًا.

وأخيرًا، نهض سامبسون وهو يحك ذقنه قبل أن يقول وهو يضحك فى نفسه: "إذن، أخمن أننا لم نعد بحاجة إلى الحفار أو النصل. حسنًا، ماذا ينبغى لنا أن نفعل معهما؟ مهلاً، لدى فكرة. ستروقك هذه الفكرة يا أليكس".

أشار إلى رجلى المافيا بأن ينهضا ثم قال لهما: "لقد أنهينا عملنا هنا. بإمكانكما أن تأتيا معى أيها السيدان".

تخلى لانجلو عن صمته أخيرًا قائلاً: "إلى أين؟ إنك لم توجه لنا اتهامًا رسميًا بعد".

أجابه سامبسون: "فلنذهب الآن. لدى مفاجأة لكما". ثم تقدم كليهما وأنا كنت فى المؤخرة. بدا أنهما لا يرغبان فى وجودي؛ فربما اعتقدا أننى قد أكون لا أزال أتميز غيظًا وحنقًا لما حدث لماريا. حسنًا، ربما كنت كذلك بالفعل.

أشار سامبسون إلى أحد الحراس عند نهاية الردهة، واستخدم مفاتيحه ليفتح إحدى زنازين الاحتجاز. كانت الزنزانة تعج بالفعل بالعديد من السجناء الذين كانوا بانتظار العرض على المحكمة. كانوا جميعًا من الزنوج إلا واحدًا منهم. قاد سامبسون طريقهما إلى داخل الزنزانة.

قال سامبسون لرجلى المافيا: "ستبقيان هنا. إذا غيرتما رأيكما وأردتما التحدث إلينا، فليس عليكما إلا أن تناديا علينا، هذا إذا كنت أنا والدكتور كروس لا نزال فى المبنى. أما إذا أصررتما على موقفكما بعدم التحدث، فسنعود إليكما فى الصباح. حسنًا، إذا كان هذا هو خياركما، فأتمنى لكما ليلة هانئة".

ظل سامبسون يضرب قضبان الزنزانة الحديدية بشارته عدة مرات، ثم قال للسجناء الآخرين: "هؤلاء الرجلان متهمان فى سلسلة من حوادث الاغتصاب، اغتصاب زنجيات فى الجنوب الشرقي. خذوا حذركم، إنهما قاسيان وشرسان. إنهما من نيويورك".

ثم انصرفنا وأغلق حارس السجن باب الزنزانة خلفنا.

الفصل ٨٩

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا، والطقس بارد ومطير، وكان ولداه الصغيران يبكيان بحرقة فى مقعد السيارة الخلفي، وهكذا كان حال كايتلين أيضًا فى المقعد الأمامى. أخذ سوليفان يلقى باللائمة على ماجيونى الصغير والمافيا على كل شيء، على هذه الفوضى العارمة البغيضة التى تحدث الآن. سيدفع ماجيونى ثمن ذلك بطريقة أو بأخرى، وهو ما جعله يتحرق شوقًا ليوم الانتقام.

وكان هذا أيضًا حال مشرطه ومنشار الجزار خاصته.

وكان الجزار قد أخذ أسرته فى سيارته فى الثانية والنصف صباحًا وفر بهم بعيدًا عن المنزل الذى يبعد ستة أميال عن وست فرجينيا. وكان ذلك هو التنقل الثانى لهم فى غضون أسابيع، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر. لقد وعد الأولاد أنهم

سيعودون إلى ميريلاند يومًا ما، ولكنه كان يعلم تمام العلم أن ذلك ليس صحيحًا؛ فالحقيقة أنهم لن يعودوا أبدًا إلى ميريلاند، خاصة وأن سوليفان كان قد عرض منزلهم هناك للبيع لحاجته إلى المال من أجل خطة هروبهم.

إنهم يهربون الآن إذن فرارًا بأرواحهم. وفى أثناء مغادرتهم منزل وست فرجينيا البرى، كما كان يحب أن يطلق عليه، كان يلازمه الشعور بأن المافيا ستعثر عليهم مرة أخرى بل إنها قد تباغته عند المنعطف التالى من الطريق.

ولكنه استدار عند المنعطف التالى، ثم الذى يليه، حتى خرج من المدينة سالمًا دون أية خسائر. ولم يمض غير قليل حتى أخذوا يغنون أغانى "رولينج ستونز" وغيرها من الأغانى الشهيرة، بما فيها أغنية "ليجز" التى استمرت قرابة العشرين دقيقة، ولم يوقفهم إلا زوجته التى وضعت حدًا للصخب الذى لا يتوقف. توقفوا أمام مطعم "دنى" لتناول الإفطار، ثم توقفوا ثانية أمام "ميكى دى" لأخذ حمام للمرة الثانية. وفى الثالثة ظهرًا، كانوا فى مكان لم تطأه أقدامهم من قبل.

ومما زاد من آمالهم فى النجاة أن سوليفان لم يترك وراءه أى أثر يمكن قتلة المافيا من تعقبه، ولا كسرة خبز كما جاء فى القصة القديمة "هانزل وجريتل". ومن حسن حظهم أنه لم يسبق لـ "سوليفان" ولا لأسرته أن جاءوا إلى هذه المنطقة من قبل، وهو ما جعلهم وجوهًا جديدة تمامًا فيها دون أن يكون لهم فيها جذور ولا أية علاقات.

عرج بسيارته إلى الطريق الخاص المؤدى إلى منزل فيكتورى الطراز ذى سقف خشبى منحدر وشرفتين علويتين ونافذة ذات زجاج ملون.

صاح سوليفان وهو يبتسم ملء فيه وقد غمرته الحماسة: "أحب هذا المنزل!"، ثم قال: "مرحبًا بكم فى فلوريدا يا أطفال".

علق مايك الصغير من المقعد الخلفى، حيث يجلس الأطفال الثلاثة والتجهم والاكتئاب يطلان من وجوههم: "من المضحك جدًا يا أبى، أنه ليس كذلك".

كانوا فى فلوريدا، بولاية ماساشوستس، وكانت كايتلين والأطفال يتذمرون على نكتة أخرى من نكاته السخيفة. وكانت فلوريدا تضم مجتمعًا صغيرًا يقل عن الألف يتمركزون فى أعالى بيركشاير، وكانت تتمتع بجبل يحوى مناظر ساحرة تكفى لجعل المكان فاتنًا، وإن لم تكن تتمتع بشىء آخر. وفضلاً عن ذلك، لم يكن هناك أى من قتلة المافيا بانتظارهم على الطريق الخاص. ماذا يريدون أكثر من ذلك؟

ظل سوليفان يقول للأطفال وهم يفرغون حقائبهم: "إنه كامل الأوصاف. ماذا يمكن أن يكون أفضل من ذلك؟"

إذن لماذا كانت كايتلين تبكى عندما أراها حجرة معيشتهم الجديدة المطلة على المناظر الطبيعية لجبل جريلوك العظيم ونهر الهوسيك؟ ولماذا كان يكذب عندما قال: "سيكون كل شىء على ما يرام يا ملكتى ويا نور حياتى؟".

ربما لأنه كان يعلم أنها ليست الحقيقة، وهذا ما كانت تعتقده هى أيضًا. فثمة احتمال بأن يقتل هو وأسرته يومًا ما، ربما فى هذا المنزل نفسه.

إلا إذا قام بشىء ما مثيرًا ومفاجئًا، وبشكل سريع. ولكن ماذا يمكن أن يكون هذا الشىء؟ كيف يمكنه إيقاف المافيا من اقتفاء أثره وتعقب خطواته؟

كيف يمكنك قتل رجال المافيا الطغاة؟

الفصل ٩٠

لم تمض سوى ليلتين حتى عاد الجزار إلى نشاطه مرة أخرى.

عاد ليواجه المافيا بمفرده فقط. رجل واحد.

أعد خطة واتجه جنوبًا إلى مدينة نيويورك. وعلى الرغم من أنه كان عصبيًا وحاد المزاج، فإنه ظل يردد طوال الطريق أغانى الفرق الشهيرة "سبرينجستين" و "ديلان" والمغنى الشهير بينك فلويد". لم يستمع إلى أى شىء آخر طوال رحلته إلى الجنوب التى استمرت أربع ساعات سوى هذه الأغانى القديمة الرائعة. لم يكن يريد أن يترك كايتلين والأولاد بمفردهم فى المنزل فى ماساشوستس، ولكنه وجد أنهم قد يكونون بأمان هناك فى الوقت الحالى. وإذا لم يكن كذلك، فقد فعل كل ما بوسعه من أجلهم، أو على الأقل أفضل

من أى شيء فعله أبوه من أجله طوال حياته، أو من أجل أمه أو إخوته.

أخذ طريق وست سايد السريع عند منتصف الليل تقريبًا؛ ثم انعطف وتوجه مباشرة إلى فندق مورنينج سايد أبارتمنتس فى شارع وست ١٠٧. وكان قد نزل فيه قبل ذلك ويعلم أنه يبعد عن الطريق كثيرًا بما يلائم أهدافه. هذا فضلاً عن توافر أربعة خطوط أنفاق تؤدى إلى المحطتين القريبتين.

تذكر أنه لم تكن هناك مكيفات هواء فى غرف الفندق، ولكن لم يكن ذلك بالأمر المهم فى شهر نوفمبر. نام نومًا هادئًا كما ينام الطفل فى رحم أمه. وعندما استيقظ سوليفان فى السابعة، وهو غارق فى عرقه، كان تفكيره كله منصبًا على فكرة واحدة: الانتقام من ماجيونى الصغير. أو ربما استحوذت عليه فكرة أفضل: البقاء للأصلح والأقوى معًا.

وعند قرابة التاسعة من ذلك الصباح، توجه إلى أحد خطوط الأنفاق ليفحص موقعين محتملين لتنفيذ أحداث القتل التى كان يعتزم القيام بها فى القريب العاجل. أعد "قائمة أمنيات" تضم العديد من الأهداف المختلفة وهو يتساءل ما إذا كان لدى أى من هؤلاء الرجال والمرأتين أية فكرة عن أنهم فى عداد الموتى، وأنه بات من يقرر من يعيش منهم ومن يموت ومتى وأين.

وعندما اقتربت عقارب الساعة من التاسعة مساءً، توجه بسيارته إلى بروكلين، ملاذه القديم المفضل. ثم توجه بعد ذلك إلى الحى الذى يسكن فيه ماجيونى الصغير، إلى منزله فى شارع "كارول جاردنز".

كان يفكر فى رفيقه القديم جيمى هاتس وهو يفتقده بعض الشيء، ثم ساورته الشكوك فى احتمال أن يكون والد ماجيونى هو من قتل جيمى. لقد قتله شخص ما ثم أخفى الجثة وكأن جيمى لم يولد أصلاً. لقد كان يشك دائمًا فى

ماجيونى الكبير، وهو ما كان بمثابة بند آخر يضاف إلى قائمة حقوق الجزار التى يتعين عليه تسويتها مع عائلة ماجيوني.

كان الغضب يتعاظم فى داخله إزاء شيء ما. ربما إزاء والده ـ جزار سليجو الأصلى، ذلك الحثالة الأيرلندى الذى حطم حياته قبل أن يكمل عامه العاشر.

انعطف إلى شارع ماجيونى، وكان عليه أن يبتسم لنفسه؛ فلا يزال السيد القوى يعيش مثل سباك عادى أو ربما كهربائى محلى فى منزل مشيد بالقرميد الأصفر تتقاسمه أسرتان ـ بل الأغرب من ذلك أنه لم يكن يعين أية حراسة على الشارع.

إذن إما أن ماجيونى الصغير كان يقلل من شأنه وإما أن رجاله كانوا بارعين فى إخفاء أنفسهم عن أعين الناظرين. اللعنة! ربما يكون هناك قناص يركز أشعة مسدسه على جبهته الآن. ربما لم يتبق من حياته إلا بضع ثوان فقط.

كادت الحيرة تقتله، فكان عليه أن يرى ماذا يحدث حوله، وهو ما دفعه إلى الضغط على بوق سيارته مرة واثنتين وثلاث مرات دون أن يحدث أى شيء سيئ.

لم يطلق أى شخص النار على جمجمته. وللمرة الأولى، أخذ الجزار يحدث نفسه قائلاً: قد أفوز فى هذه المعركة على الرغم من ذلك.

أزال النقاب عن الغموض الأول: لقد قام ماجيونى الصغير بإبعاد أسرته عن المنزل، وكان يخطط للهرب هو الآخر.

ثم أوقف خط الأفكار هذا بكلمة واحدة فقط ـ خطأ.

لم يكن بوسعه الوقوع فى أى خطأ حتى ينتهى كل ذلك؛ وذلك لأن الخطأ هنا لا يعنى سوى الموت المحقق له.

هكذا بكل بساطة.

وتكون تلك نهاية القصة.

الفصل ٩١

كان الوقت متأخرًا عندما قررت أن أقوم بجولة بالسيارة فى شارع آر ٣٥٠، حيث كنت أحب السيارة كثيرًا. كان هذا أيضًا شعور الأطفال - بل وحتى جدتي، الحمد لله. وجدت نفسى أفكر فى ماريا مرة أخرى، وفى التحقيق المطول فى قضية قتلها الذى قمت به وفشلت فيه. كنت أفتش فى عقلى محاولاً استدعاء صورة وجهها أمام عينى وسماع صوتها يتردد فى أذنى.

وفى وقت لاحق من تلك الليلة، وعندما عدت إلى البيت، حاولت أن أنام ولكنى لم أستطع. شعرت باستياء شديد جعلنى أنزل إلى الطابق السفلى وأشاهد فيلم "يوميات امرأة سوداء مجنونة" مرة أخرى. وحقيقة، وجدت نفسى أبتهج مثل شخص مجنون وأنا أنظر إلى وميض شاشة التليفزيون المتقطع. لقد

كان فيلم المخرج تيلر بيرى يناسب حالتى المزاجية والنفسية تمامًا فى ذلك الوقت.

اتصلت بـ "تونى وودز" فى مكتب المدير عند التاسعة من صباح اليوم التالى، ثم تخليت عن كبريائى وطلبت منه المساعدة فى قضية الاغتصاب والقتل. كنت أريد أن أعرف ما إذا كان لدى مكتب التحقيقات أى شىء عن القاتل الأجير الذى يدعى الجزار، أى شىء قد يكون مفيدًا لى ولـ "سامبسون" فربما نحصل على شىء ما سرى هناك.

"كنا نعلم أنك ستتصل هذه الأيام يا أليكس. إن المدير بيرنز يتوق للعمل معك مرة أخرى. هل أنت مستعد لتقديم بعض الاستشارات؟ مجرد استشارات بسيطة. إن الأمر متروك لك لتحدد ماذا وأين، لا سيما وأنك عدت الآن للاضطلاع ببعض القضايا مرة أخرى".

أجبت تونى: "من قال إننى عدت للاضطلاع بالقضايا مرة أخرى؟ هذه حالة خاصة. ثمة احتمال بأن يكون الجزار هو من قتل زوجتى منذ سنوات. إنها القضية الوحيدة التى لا أستطيع تركها دون التوصل إلى حلها".

"أتفهم موقفك. أتفهمك حقًا. سنحاول أن نساعدك قدر المستطاع. سأعطيك ما تريد".

قام تونى بتهيئة الوضع لى كى أستخدم مكتب أحد العملاء الذى تصادف وجوده خارج المدينة، وقال إنه لا بأس إذا أردت التحدث مع محللة نفسية وباحثة تعمل بالمكتب تدعى مونى دونيلى.

قلت له: "لقد تحدثت مع مونى بالفعل".

"نعلم أنك فعلت ذلك. أخبرتنا مونى بذلك. لقد أوضحنا لها الأمر الآن. بشكل رسمى".

ظللت طوال اليومين التاليين أقضى معظم الوقت داخل مبنى مكتب التحقيقات الفيدرالى، الذى كان يعج بالكثير

عن مايكل سوليفان، الجزار. وقد تضمن ملفه العشرات من الصور الفوتوغرافية. وكانت المشكلة الوحيدة أن هذه الصور قد التقطت له من خمس إلى سبع سنوات مضت، الأمر الذى يجعلها لا تتطابق بأى حال من الأحوال مع أوصاف مايكل سوليفان فى الوقت الحالى. ترى أين اختفى؟ لقد علمت أن سوليفان نشأ فى إحدى مناطق بروكلين يطلق عليها فلاتلاندز، حيث كان أبوه جزارًا حقيقيًا هناك. بل حصلت على أسماء بعض معارفه وأصدقائه القدماء الذين كان على علاقة بهم فى أثناء فترة وجوده فى نيويورك.

كان ما قرأته عن خلفية سوليفان مثيرًا ومشوقًا حقًا. لقد التحق بالمدارس الدينية وظل فيها حتى الصف العاشر، وكان طالبًا جيدًا، حتى وإن لم يبد أنه كان يحقق تقدمًا فيها. ثم ترك المدرسة وانضم للمافيا ليصبح بذلك واحدًا من القلائل من غير الإيطاليين الذين يخترقون صفوفها. لم يكن "رجلاً فذًا"، ولكنه كان يتقاضى أموالاً طائلة؛ وهذا ما يتضح لنا إذا عرفنا أنه أصبح مليونيرًا وهو لا يزال فى بدايات العشرينات من العمر؛ حيث أصبح القاتل المحترف المفضل لدى دومينيك ماجيونى، إلى أن جاء ابنه، الزعيم الحالى، والذى لم يكن يقبل سوليفان مطلقًا.

ثم بدأ يحدث شيء غريب أزعج كل المقربين له: فثمة تقارير عن قيام مايكل سوليفان بتشويه جثث ضحاياه والتمثيل بها؛ وحدث أيضًا أن قتل رجل دين؛ وقتل رجلاً عاديًا كان قد اتهم بالاعتداء على الأولاد الصغار فى مدرسته الابتدائية القديمة؛ ثم قتل اثنين من القتلة المحترفين الآخرين؛ وأشيع أنه قتل والده الذى اختفى من محله ذات ليلة ولم يعثر على جثته حتى يومنا هذا.

ثم اختفى سوليفان عن شاشة رادار مكتب التحقيقات الفيدرالية تمامًا. وافقت مونى دونيلى على الاستنتاج الذى

توصلت إليه: وهو أن هناك احتمالاً بأن سوليفان مرشدًا لأحد العاملين داخل مكتب التحقيقات؛ فمن الممكن أن يكون يتمتع بحماية مكتب التحقيقات الفيدرالية نفسه أو من شرطة نيويورك. إذًا من المحتمل أن يكون سوليفان متمتعًا بحماية رسمية، ولكن هل ذلك ما حدث مع قاتل ماريا؟

هل هو مرشد أحدهم؟

هل يتمتع فعلاً بحماية مكتب التحقيقات الفيدرالية؟

الفصل ٩٢

كان جون ماجيونى رجلاً مبتكرًا ونزاعًا إلى الاستعراض فى بعض الأحيان ومفرطًا فى الثقة بنفسه، ولكنه مع ذلك لم يكن عادة غبيًا أو طائشًا. كان مدركًا لأبعاد الموقف مع القاتل المحترف المجنون الذى استعان به والده يومًا ما - الجزار. ولكن حتى والده المجنون حاول أن يتخلص من مايكل سوليفان بمجرد أن تبين له مدى خطورته وصعوبة التنبؤ بخطواته التالية. والآن لابد من إنجاز هذه المهمة، ولابد أن تنجز فورًا.

كان ماجيونى يدرك أن سوليفان لا يزال حرًا طليقًا. ولمزيد من الإجراءات الاحترازية ضده، قام بإبعاد أسرته عن المنزل فى ساوث بروكلين. انتقلت أسرته للعيش فى مجمع سكنى فى قرية مينيولا فى جزيرة لونج أيلاند الواقعة فى

الجنوب الشرقى من نيويورك، ثم لحق بهم بعد ذلك ليكون إلى جوارهم الآن.

كان المنزل مشيدًا بالقرميد المستخدم فى الحقبة الاستعمارية، وكان يطل على الماء مباشرة فى زقاق هادئ. وكان للمنزل مرسى خاص به وزورق بخارى سريع كان يطلق عليه سيسليا تيريزا تيمنًا باسم طفلته الأولى.

وعلى الرغم من أن موقع المجمع السكنى كان معروفًا جيدًا، فإن البوابات المحيطة بالمكان كانت مؤمنة، كما عمد ماجيونى إلى مضاعفة حراسه الشخصيين، وهو ما جعله يطمئن على سلامة أسرته. وعلى كل، فالجزار ليس إلا رجلاً واحدًا. وعليه، فما حجم الضرر الذى يمكنه إلحاقه به؟ أو أى ضرر يمكنه التسبب فيه أكثر من ذلك؟

كان ماجيونى الصغير يخطط للقيام ببعض الأعمال فى وقت لاحق من ذلك الصباح، ثم يتوقف كعادته عند النادى الاجتماعى فى بروكلين؛ حيث كان من المهم له أن يكثر من الظهور. هذا بالإضافة إلى أنه كان واثقًا من أن الأمور تحت السيطرة الآن. وكان رجاله قد أكدوا له أن سوليفان سيكون فى عداد الأموات عما قريب، وأن أسرته ستلحق به أيضًا.

وعندما كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا، كان ماجيونى يسبح فى حمام السباحة الذى بداخل منزله. وكان بالفعل قد قام بثلاثين غطسة ويخطط للقيام بخمسين غطسة أخرى.

بدأ هاتفه الخلوى يرن على أريكة حمام السباحة.

لم يكن هناك أى أحد آخر فى الجوار، مما اضطره أخيرًا إلى الخروج من حمام السباحة ليرد على الهاتف بنفسه. "نعم؟ ماذا؟"

سمع صوت رجل على الجانب الآخر من الهاتف يقول: "ماجيونى".

سأله، على الرغم من أنه كان يعرف من يكون: "من هذا بحق السماء؟".

"أنا مايكل سوليفان أيها الزعيم. الوغد الحقير، هه؟".

كاد ماجيونى يصعق من هول المفاجأة لما وجد أن الرجل المجنون يعاود الاتصال به بالفعل. قال للقاتل المحترف: "أعتقد أنه من الأفضل أن نتحدث معًا".

"نحن نتحدث بالفعل. أتدرى كيف حدث ذلك؟ أرسلت قتلة خلفى - بداية فى إيطاليا. ثم اقتربوا من منزلى فى ميريلاند وأطلقوا النار على أطفالى. ثم ظهروا مرة ثالثة فى واشنطن حيث كانوا يبحثون عنى. هل لأنه من المفترض أننى أصبحت خارج السيطرة؟ بل أنت من أصبح خارج السيطرة أيها السيد الصغير! أنت من يحتاج إلى من يكبح جماحه!".

"اسمعنى يا سوليفان ـــــ"

"لا، بل اسمعنى أنت أيها الوغد الحثالة. اسمعنى أيها السيد الصغير. سيصل إلى حصنك طرد بريدى فى الحال. افحصه جيدًا أيها الزعيم. إنى أتعقبك وسأصل إليك! لن تستطيع أن توقفنى؛ لا شىء يمكن أن يوقفنى، ولا أحد يستطيع ذلك. أنا مجنون، أليس كذلك؟ حاول وتذكر ذلك. أنا أجن وغد قابلته أو حتى سمعت به من قبل. وسنتقابل ثانية".

ثم أغلق الجزار الهاتف فى وجهه.

ارتدى ماجيونى الصغير ملابسه وسار إلى مقدمة المنزل. لم يكد يصدق ما يراه لقد أوصلت إليه وكالة البريد طردًا بريديًا!

هذا يعنى أن الوغد المجنون سوليفان ربما يكون يراقب المنزل الآن. هل ذلك ممكن؟ هل من الممكن أن يحدث هذا، تمامًا كما قال الجزار؟

وعلى الفور، صاح بحارسيه الشخصيين: "فينسنت! ماريو! أحضرا إلى هنا حالاً"، فهرولا من المطبخ وبأيديهما بعض الشطائر.

أمر أحدهما بأن يفتح صندوق الطرد البريدى بعيدًا عند حمام السباحة.

وبعد لحظات من القلق والترقب، صاح الرجل: "إنها صور يا سيد ماجيونى. ولكنها ليست عالية الجودة".

الفصل ٩٣

"ربما نكون قد عثرنا عليه يا عزيزى".

كنت قد انتهيت لتوى من جلسة العلاج الصباحية مع امرأة تدعى إميلى كورو غادرت بعدها المكتب لتمارس عملها كمدرسة، وهى تأمل بأن تكون صورتها عن ذاتها قد تحسنت قليلاً. ثم اتصل بى سامبسون على هاتفى الخلوي. المعروف عن جون الضخم أنه لا يبتهج عادة، ولذلك لابد أن يكون هناك خبر سار.

وهذا ما كان بالفعل.

وفى وقت لاحق من تلك الظهيرة، وصلت أنا والرجل الضخم إلى منطقة فلاتلاندز فى بروكلين. ثم واصلنا سيرنا كى نجد مقهى فى الجوار يسمى مقهى تومى ماكجوى.

كان المكان المرتب والنظيف خاليًا تقريبًا عندما دخلنا الحانة، إلا من ساقٍ أيرلندى قاسى المظهر ورجل صغير رشيق القوام، ربما يكون فى منتصف الأربعينات من العمر، يجلس عند نهاية الطرف الآخر من المقهى المصقول جيدًا والمصنوع من خشب الماهوجنى. كان يدعى أنتونى مولينو، وكان يعمل رسام جرافيك فى مانهاتن حين كان صديق مايكل سوليفان الحميم.

جعلنا مولينو بيننا وجلس أحدنا عن يمينه والآخر عن يساره.

قال وهو يبتسم: "هذا الوضع مريح. مهلاً، لن أتخلى عنكما أيها الرجلين. لقد قدمت إلى هنا بمحض إرادتي. حاولا ألا تنسيا هذا. يعمل اثنان من أعمامى هنا فى شرطة بروكلين. تأكدا من ذلك بنفسيكما إن أردتما".

فقال سامبسون: "تأكدنا من ذلك بالفعل. وعلمنا أن أحدهما تقاعد ويعيش فى ميرتل بيتش والآخر موقوف مؤقتًا عن العمل".

"مرحى، إذًا فقد ربحت نصف المعركة. هذا ليس سيئًا جدًا، فهو يبقيكما فى المنافسة".

قدمت أنا وسامبسون نفسينا له، وكان متأكدًا منذ اللحظة الأولى من أنه قد رأى سامبسون فى مكان ما، ولكنه لم يتمكن من تحديد المكان بالضبط. قال إنه قد تابع قضية رئيس المافيا الروسى الذى كان يدعى الذئب، وهى القضية التى كنت قد قمت بالتحقيق فيها عندما كنت فى مكتب التحقيقات الفيدرالية، والتى دارت أحداثها هنا فى نيويورك.

قال: "قرأت عنك أنت أيضًا فى مجلة ما. ماذا كان اسم هذه المجلة؟".

فقلت: "لم أقرأ القصة. أظنها كانت مجلة إسكواير".

تقبل مولينو الدعابة وأخذ يضحك عليها بطريقة جعلته يبدو وكأنه يسعل ثم قال: "إذًا كيف عرفت ما بينى وبين سولى؟ لقد مضى على ذلك وقت طويل الآن. إنها قصة قديمة".

تحدث معه سامبسون قليلاً عما علمناه ـ أخبره أن لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية تسجيلات صوتية لـ "جون ماجيونى" كان قد سجلها له فى ناد اجتماعى يتردد عليه. وعلمنا من هذه التسجيلات أنه أصدر أوامره بقتل سوليفان، ربما لسلوكه غير القويم، وأن الجزار قرر الانتقام منه. "وعندما أجرى المكتب تحرياته فى باى بارك واى، طرح اسمك".

لم ينتظر مولينو حتى يفرغ سامبسون من الحديث. لاحظت أن يديه لم تكفا عن الحركة وهو يقول: "حسنًا، يقع هذا النادى الاجتماعى هناك فى بنسونهرست. هل ذهبتما إلى هناك من قبل؟ إنه فى الحى الإيطالى القديم، الذى يضم فى أغلبه مبانى مكونة من طابقين وواجهات المحلات التجارية، كما تعلمان. قضينا هناك أيامًا أفضل، ولكنه لا يزال جميلاً إلى حد كبير. نشأت أنا وسولى وترعرعنا ليس بعيدًا من هناك.

ولكن ما علاقتى بهذا الموضوع؟ هذا الجزء يحيرنى قليلاً. أنا لم أر مايك منذ سنوات".

"تقول ملفات مكتب التحقيقات الفيدرالية إنك صديقه، أليس كذلك".

هز مولينو رأسه ثم قال: "عندما كنا أطفالاً، كنا قريبين من بعضنا البعض. ولكن مضى على ذلك وقت طويل أيها الرجلين".

قلت له: "بل ظللتما صديقين وأنتما فى العشرينات من العمر. كما أنه لا يزال يتصل بك، هكذا تشير المعلومات التى لدينا".

علق مولينو وهو يضحك: "حقًا، نتبادل بطاقات التهنئة بالأعياد. اذهبا وتحققا من ذلك بنفسيكما. إن سولى رجل معقد، ولا يمكنك التنبؤ بتصرفاته تمامًا. إنه يرسل إلىَّ بطاقات معايدة من وقت لآخر. ماذا تريدان أن تعرفا أيضًا؟ هل أنا متورط فى متاعب من نوع ما؟ لا أظننى كذلك، أليس كذلك؟".

أجابه سامبسون: "نعلم أنه لا علاقة لك بالمافيا يا سيد مولينو".

"يسعدنى سماع ذلك؛ لأننى لا علاقة لى بهم، ولم يسبق قط أن كنت على علاقة بهم. وحقيقة، فأنا منزعج قليلاً من هذه الافتراءات الباطلة التى تحاك ضد الإيطاليين. سحقًا لكل هؤلاء الحمقى. من المؤكد أن بعض الرجال يتحدثون عنا بهذه الطريقة. أتعلم لماذا؟ لأن هذا ما يعرض على شاشات التلفزيون".

قلت له: "إذن حدثنا عن مايكل سوليفان. نريد أن نسمع منك كل ما تعرفه عنه، بما فى ذلك ذكريات طفولتكما".

طلب أنتونى مولينو مشروبًا آخر مياه معدنية من تومى ماكجوى نفسه، ثم بدأ يتحدث إلينا، وكانت الكلمات تخرج منه بسهولة وانسيابية على أية حال.

"سأخبركما بأمر طريف، أو قصة طريفة على وجه التحديد. اعتدت أن أكون من يحمى مايكى فى المدرسة الابتدائية. وكنا مقربين من بعضنا البعض كثيرًا، وكنا مثل أخوين أيرلنديين. وقد جرت العادة فى هذا الحين أن تكون ممن يتمتع بحس فكاهى حتى تتجنب المشاجرات اليومية. ولكن سوليفان لم يكن يتمتع بالمزيد منه ـ أقصد هذا الحس الفكاهي. وكان يخاف كثيرًا من أن تكسر أسنانه الأمامية؛ فقد كان يعتقد أنه سيصبح نجمًا سينمائيًا أو ما شابه يومًا ما. أقسم بالله أنى صادق فيما أقول. هذا غريب، أليس كذلك؟ لقد كان كل

من أبيه وأمه ينامان وبجوارهما أسنانهما المستعارة في أكواب زجاجية مليئة بالماء على المنضدة المجاورة للفراش".

ثم ذكر مولينو أن سوليفان تغير عندما انتقلوا إلى المدرسة الثانوية. "أصبح شرسًا، ووضيعًا مثل الثعبان. ولكن الغريب أنه اكتسب حسًا فكاهيًا كبيرًا، كبيرًا على رجل أيرلندى على أية حال".

ثم مال على المنضدة وأخفض صوته ثم قال: "قتل شابًا عندما كان فى الصف التاسع يدعى نيك فراتلو، كان يعمل فى متجر بيع الجرائد، مع الناشرين. اعتاد فراتلو على افتعال المشاجرات مع مايكى طوال الوقت، فقد كان يكرهه بشدة. هكذا دون أى سبب. ولذا قتله سولى بسكين ذى نصل معقوف! لفت ذلك انتباه المافيا إليه، وخاصة ماجيونى. أقصد ماجيونى الكبير".

"كان ذلك عندما بدأ سولى يتسكع على مقربة من النادى الاجتماعى فى بنسونهرست. لم يكن أى أحد يعرف ما كان يفعله هناك على وجه التحديد. ولا حتى أنا. ولكنه فجأة صار يمتلك مالاً كثيرًا. بل إنه اشترى سيارة بونتياك من نوع جراند إيه إم، وكانت حديثة فى الأسواق فى ذلك الوقت، وهو لا يزال فى السابعة عشر أو ربما الثامنة عشر من العمر. وقد دأب ماجيونى الصغير على كراهية مايك لأنه حظى باحترام وإعجاب أبيه".

تحول مولينو من وجه سامبسون ونظر إليه، وكأنه يقول لنا: هل تريدان أى شيء آخر؟ أيمكننى أن أنصرف الآن؟

سأله سامبسون: "متى كانت آخر مرة رأيت فيها مايكل سوليفان؟".

اعتدل مولينو فى جلسته وتظاهر بأنه يحاول التذكر وهو يكرر سؤال سامبسون: "آخر مرة؟". ثم عاد يحرك يديه مرة أخرى قبل أن يجيب: "أعتقد أننى لم أره منذ زفاف كيت

جارجان فى "باى ريدج" قبل ست أو سبع سنوات. كانت تلك آخر مرة ألتقيه فيها على أية حال. وأعتقد أن لديكما تسجيلاً كاملاً بالصورة والصوت لحياتى بأكملها أيها الرجلين، ألست محقًا فى ذلك؟".

"ربما يا سيد مولينو. إذن أين مايكل سوليفان الآن؟ بطاقات المعايدة ـ من أين كان يرسلها؟".

هز مولينو كتفيه ولوح بيديه، وكأنه بدأ يضجر ويسأم الحديث ثم أجاب: "لم يرسل سوى بطاقتين فقط. وأعتقد أنه أرسلهما من نيويورك. هل يمكن أن يكون قد أرسلهما من مانهاتن؟ لم يكن يذكر عنوان المرسل أيها الرجلين. إذن أخبرانى أنتما أين سولى هذه الأيام؟".

قلت له: "إنه هنا فى بروكلين يا سيد مولينو. وقد رأيته منذ ليلتين فى تشسترفيلد لوندج فى فلاتباش أفينيو. ثم أخرجت له صورته مع مايكل سوليفان.

هز مولينو كتفيه وابتسم. لم ينطلى علينا ذلك لقد أثبتنا كذبه. ثم قال: "إنه صديقى، وقد اتصل بى وأراد أن يتحدث معي. ماذا كان بإمكانى أن أفعل، أثور عليه؟ لا أظنها فكرة صائبة. إذن لماذا لم تلقيا القبض عليه؟".

فقلت له: "مجرد سوء حظ. لم يكن لدى عميلى المراقبة أية فكرة عن شكله الآن بقصة شعره الأقرب إلى الصلع ومظهره الأخرق الذى يعود إلى فترة السبعينيات. والآن، أكرر عليك السؤال نفسه أين سولى هذه الأيام؟".

الفصل ٩٤

كان مايكل سوليفان يكسر العادات والقواعد البديهية غير المكتوبة للمافيا التى ظلوا يقدسونها لوقت طويل، وكان يعلم ذلك جيدًا، وكان يدرك تبعات ذلك أيضًا. ولكنهم هم من بدأ هذه الحماقات، أليس كذلك؟ لقد تعقبوه وأرادوا قتله، وفعلوا ذلك على مرأى ومسمع من أطفاله.

والآن هو فى طريقه لكى يضع حدًا لذلك، أو ربما يموت هو. أيًا كانت النتيجة، فالأمر كان أشبه بالجحيم بالنسبة له، أجل أشبه بالجحيم.

وفى العاشرة والنصف من صبيحة السبت، كان يقود شاحنة بريد كان قد سرقها قبل عشرين دقيقة. قام من قبل بسرقة سيارة البريد السريع، والآن سيارة البريد العادي، يا له من لص سيارات لا يهتم الفروق الطبقية أو العنصرية. كان السائق

فى الخلف يبذل قصارى جهده يحاول إصلاح عنقه المقطوع.

كانت هناك صورة لصديقة أو زوجة ذلك السائق أو أيًا كانت صلتها به، على تابلوه السيارة. ولم تكن السيدة أقل قبحًا من السائق المحتضر. ولم يكن الجزار يبالى بهذه الجريمة العارضة؛ وذلك لأنه لم يكن يبالى أصلاً بالغرباء. وحقيقة، فإن كل الناس كانوا غرباء بالنسبة له، بل إن أفراد أسرته كانوا غرباء بالنسبة له معظم الوقت.

صاح وسط الضوضاء والجلبة الصاخبة التى تحدثها شاحنة البريد: "مرحبًا! هل أنت بخير هناك فى الخلف؟"

لم تكن هناك أية إجابة، لا شيء يأتى من الخلف.

"اعتقدت ذلك أيضًا يا عزيزى. لا تقلق بشأن ذلك سيصل البريد وأى شيء آخر مهما كانت الظروف. سيصل على الرغم من المطر والثلوج والبَرد والموت، وعلى الرغم من أى شيء آخر".

أوقف شاحنة توصيل البريد البنية الكبيرة أمام مزرعة متوسطة الحجم فى روزلين. ثم أخرج طردين كبيرين من الرف المعدنى خلف مقعد السائق وتوجه إلى الباب الأمامى وهو يمشى مسرعًا ويهرول، تمامًا كما يفعل دائمًا رجال البريد الذين نراهم على شاشات التلفاز، بل كان يصفر بنغمة سعيدة.

ضغط الجزار على جرس الباب. ووقف ينتظر. وهو لا يزال يصفر النغمة السعيدة بإتقان، كما يعتقد.

جاء صوت رجل عبر جهاز الاتصال الداخلى. "ماذا؟ من هناك؟ من الطارق؟".

"يوجد طرد بريدى لكم".

"اتركه عندك فسحب".

"لا بد أن توقع بالاستلام يا سيدى".

"قلت اتركه، حسنًا. التوقيع ليس مشكلة. اترك الطرد. مع السلامة".

"معذرة يا سيدي، ولكن لا يمكننى أن أتركه فحسب. آسف حقًا، ولكنى أؤدى عملى هنا فحسب".

لم يأت أى شيء آخر عبر جهاز الاتصال الداخلي. تجاوزت الساعة الحادية عشر إلا ربع بثلاثين ثانية. إنه بحاجة إلى خطة بديلة الآن.

وأخيرًا، خرج من الباب رجل ضخم جدًا يرتدى بزة رياضية سوداء ماركة "نايكى". كانت بنيته الجسدية مثيرة للإعجاب، ولا عجب فى ذلك فقد كان لاعب كرة قدم أمريكية سابق فى فريقى نيويورك جتس وميامى دولفينز.

بادره الرجل السؤال: "هل تعانى من مشاكل فى السمع؟ أمرتك أن تترك الطرد فى الشرفة. ألم تفهمنى؟".

"لا يا سيدي، أنا أمريكى من أصل أيرلندى فى الحقيقة. لا يمكننى فقط أن أترك هذا الطرد الثمين دون توقيع".

تنحى الجزار عن اللوحة الإلكترونية ليوقع لاعب كرة القدم السابق اسمه والغضب يملؤه.

نظر الجزار إلى الاسم بول موسكونى، ولم يكن إلا أحد أفراد المافيا المتزوج من الأخت الصغرى لـ "جون ماجيونى". كان هذا مخالفًا للقواعد تمامًا، ولكن هل ما زالت هناك أية قواعد بعد الآن؟ هل لا تزال هناك أية قواعد فى المافيا أو الحكومة أو فى المجتمع بأسره؟

قال له الجزار: "الأمر ليس ضدك شخصيًا".

خذ هذه،

وهذه،

وهذه أيضًا.

"لقد انتهيت يا بول موسكوني، وقريبًا سيصب زعيمك علىّ جام غضبه. بالمناسبة، لقد كنت من مشجعى فريق جتس، ولكن

من الآن فصاعدًا سأتحول لتشجيع نيو إنجلاند".

ثم انحنى الجزار وأخذ يعمل مشرطه فى وجه الرجل الميت مرارًا وتكرارًا. ولم يتوقف عند هذا الحد، بل قطع عنقه بخطوط متصالبة من فوق تفاحة آدم مباشرة.

طلت امرأة برأسها إلى حجرة المعيشة، وكان شعرها الأسود لا يزال مضفرًا، وما إن رأته حتى أخذت تصرخ وتصيح: "بولى! بولى! أوه، يا إلهى! أوه، بولي! أوه، بولى! لا، لا، لا!".

انحنى الجزار انحناءته المفضلة أمام الأرملة المضطربة.

"أبلغى تحياتى إلى أخيك. إنه من فعل ذلك بك. لقد قتل أخوك الأكبر بولي، وليس أنا". وعندما هم بالانصراف، استدار إليها قائلاً: "آسف لخسارتك".

ثم انحنى انحناءته المعهودة مرة أخرى.

الفصل ٩٥

قد تكون هذه هى النهاية. نهاية طريق طويل ومتعرج بدأته بعد مقتل ماريا.

أخذت أنا وسامبسون طريق لونج أيلاند السريع إلى نورثرن ستيت، وأخذنا الطريق كله حتى مشارف لونج أيلاند. اتبعنا الطريق ٢٧ لنجد أنفسنا أخيرًا أمام قرية مونتوك، التى لم تكن حتى تلك اللحظة سوى اسم سمعت عنه وقرأت عنه بالصدفة. ولكنها كانت حيث يختبئ مايكل سوليفان وأسرته، حسب ما قاله لنا أنتونى مولينو ـ حيث قال إنهم انتقلوا إليها اليوم.

وجدنا المنزل بعد عشرين دقيقة من البحث على الطرق الجانبية الغربية. وعندما وصلنا إلى العنوان الذى حصلنا عليه، كان هناك ولدان يلعبان بكرة قدم منتفخة على ملعب

صغير فى حديقة المنزل الأمامية. وكان الطفلان أشقرين ويبدو من منظرهما أنهما أيرلنديان. كانا رياضيين بارعين، لا سيما الولد الصغير. قد يزيد وجود الطفلين من تعقيد الأمر علينا.

سألنى سامبسون وهو يوقف محرك السيارة: "هل تعتقد أنه هنا الآن؟" وكنا نتمركز على مسافة مائة ياردة من المنزل على الأقل، الأمر الذى جعلنا آمنين لكوننا بعيدين عن الرؤيا إلى حد كبير.

أجبته: "يقول مولينو إنه يكثر من التنقل فى الآونة الأخيرة، ولكنه يقول أيضًا إنه هنا الآن بالتأكيد. وهذان الطفلان فى نفس عمر طفليه. ولديه طفل آخر يدعى مايكل الصغير".

نظرت باتجاه المنزل كى أحصل على رؤية أفضل، ثم قلت له: "السيارة التى بالطريق الخاص للمنزل تعلق لوحات ولاية ميريلاند".

"ربما لا يكون هذا محض صدفة، فمن المفترض أن سوليفان كان يعيش فى ميريلاند قبل أن يقوموا برحلتهم الأخيرة. هذا يعنى أنه كان قريبًا من واشنطن، وهذا بدوره يفسر حوادث الاغتصاب هناك. لقد بدأت الصورة تكتمل الآن".

قلت له: "لم يرنا طفلاه بعد. ونأمل ألا يكون سوليفان قد رآنا أيضًا. فلنبتعد عن هنا الآن ونراقب الوضع من نقطة أخرى يا جون".

تحركنا بالسيارة ليتوقف سامبسون على مسافة شارعين، ثم أخرجنا بنادقنا ومسدساتنا من حقيبة السيارة. اختبأنا داخل غابة خلف صف من المنازل المتواضعة، ولكنها كانت لا تزال تتمتع برؤية المحيط. كان المكان الذى تسكن فيه أسرة سوليفان مظلمًا من الداخل، ولم نتمكن من رؤية أى أحد آخر.

لا وجود لـ "كايتلين سوليفان" ولا مايكل سوليفان، أم تراهما داخل المنزل ويبعدان نفسيهما عن النوافذ؟ بدا ذلك منطقيًا. هذا فضلاً عن معرفتى بمهارة سوليفان فى التصويب بالبندقية.

جلست وأسندت ظهرى إلى إحدى الأشجار، ثم أخذت أرابض فى البرد وبندقيتى على ركبتى. أخذت أفكر فى مشكلة النيل من سوليفان دون إيذاء أسرته. ولكن هل ذلك ممكن؟ وبعد برهة، بدأت أفكر فى ماريا مرة أخرى. هل أصبحت أخيرًا قريبًا من حل لغز مقتلها؟ لم أكن متأكدًا من ذلك، ولكن هذا ما بدا عليه الأمر. أم أن ذلك مجرد تفكير ينم عن رغبتى أنا فى حدوث ذلك؟

أخرجت محفظتى وسحبت صورة قديمة من جيبها البلاستيكى، وكنت لا أزال أشعر بافتقادها كل يوم. سأظل أرى ماريا فى عقلى دائمًا فى الثلاثين من العمر، أليس كذلك؟ يا لها من خسارة كبيرة فى حياتى!

ولكنها هى التى جاءت بى إلى هنا الآن، أليس كذلك؟ وإلا لماذا أقطع أنا وسامبسون كل هذه المسافة بمفردنا كى نمسك بالجزار؟

لأننا لم نكن نريد أن يعرف أى أحد بما نعتزم أن نفعله به.

الفصل ٩٦

كان الجزار يتميز غيظًا، وهو ما لم يكن يوحى بالخير لجميع سكان العالم. والأكثر من ذلك أن غضبه أخذ يزداد كل دقيقة، بل كل ثانية. تبًا لذلك، لقد كره جون ماجيوني.

كان تشتيت ذهنه عاملاً مساعدًا لنا بعض الشيء. ولم يكن الحى القديم على حالته كما كان يتذكره سوليفان. ولم يكن الجزار يحبه حينها، بل زاد بغضه له الآن. وكمن يعرف المكان جيدًا بعض الشىء، خرج الجزار إلى الطريق بى، ثم قام بجولة فى باى باركواى.

وعلى حد علمه، كانت هذه المنطقة العامة لا تزال محور التسوق الرئيسى فى بنسونهرست. وكانت المنطقة تتكون من شوارع بعدها شوارع كلها تحتوى على مبان مشيدة بالقرميد الأحمر، وبها محلات تجارية فى الطابق الأرضى: من مطاعم

تقدم أكلات إيطالية وخبز إيطالى وأطعمة لذيذة إيطالية كذلك؛ أى أن الطابع الإيطالى كان يغلب على كل شىء فى المنطقة. بعض الأشياء لا تتغير أبدًا.

عاودته صور محل والده مرة أخرى فكل شيء يشع بالبياض دائمًا؛ حجرة التجميد وبابها الأبيض المطلى بالمينا؛ وبداخل حجرة التجميد، الخطاطيف التى تتدلى منها أرباع الذبائح؛ المصابيح المنتفخة التى تتدلى فى أقفاص معدنية من السقف؛ السكاكين والسواطير والمناشير فى كل مكان. وهنا كان يقف أبوه وهو يضع يده تحت مريلته فى انتظار ابنه ليثور عليه.

انعطف يمينًا إلى الشارع الحادى والثمانين. وهناك وجده. لم يجد محل الجزارة ولكنه وجد شيئًا آخر أفضل منه. وجد الانتقام، وهو طبق يفضل أن يقدم وهو ساخن، بل ويغلي!

وقعت عيناه على سيارة ماجيونى طراز لينكولن متوقفة فى باحة الانتظار الخلفية فى النادى الاجتماعي. رخصة قيادة - إيه سى إف ٣٠٦٩. كان متأكدًا من أنها سيارة ماجيونى الصغير على أية حال.

خطأ؟

ولكن خطأ من؟ أخذ يطرح هذا السؤال على نفسه وهو يواصل السير فى الشارع الحادى والثمانين. هل يمكن أن يكون ماجيونى الصغير الوغد بكل هذا الغرور لدرجة أنه يذهب ويجيء متى أحب؟ هل هذا يعنى أنه ليست لديه أية مخاوف من الجزار؟ ولا أى احترام؟ حتى الآن بعد كل ما حدث؟

أم أنه يعد فخًا له؟

ربما يكون الأمر مزيجًا بين الاحتمالين؛ الغرور والخداع، السمتان المميزتان للعالم الذى نعيش فيه.

توقف سوليفان فى مطعم دانكينج دوناتس عند تقاطع شارعى نيو أوترشت والسادس والثمانين. تناول قهوة سادة وكعكة بالسمسم كانت معجنة ورقيقة جدًا. ربما يكون هذا

النوع من الطعام الرديء يلقى رواجًا فى أمريكا الوسطى، ولكن هذا الكعك الرديء لا يقدم فى أى مكان فى بروكلين. على أية حال، جلس على إحدى الطاولات وأخذ يراقب السيارات التى تجوب شارع نيو أوترشت ذهابًا وإيابًا، وهو يفكر فى رغبته فى دخول النادى فى شارع الحادى والثمانين ويبدأ فى شن هجومه الكاسح. ولكن ذلك لم يكن فى خطته وإنما كان مجرد تصور لطيف وعنيف وليد لحظته.

بالطبع كانت لديه خطة حقيقية فى عقله.

لقد أصبح ماجيونى الصغير فى عداد الأموات من الآن، وربما يكون مصيره أسوأ من ذلك. ابتسم سوليفان عندما خطرت له هذه الفكرة، ثم نظر حوله ليتأكد من أنه لا يراقبه أحد ، ويعتقد أنه شخص مجنون. ولكن أحدًا لم يكن يراقب، بل هو من كان يقوم بالمراقبة. عظيم!

أخذ رشفة أخرى. وحقيقة، لم تكن القهوة التى يقدمها مطعم دانكين سيئة جدًا، ولكن الكعك كان الأسوأ على الإطلاق.

الفصل ٩٧

وبعد عشرين دقيقة، كان يتمركز فى موقعه. وهنا حدث أمر طريف: لقد نفذ غارة الكوماندو نفسها التى كان يقوم بها وهو لا يزال طفلاً. لقد سبق أن تسلق هو وجيمى هاتس وتونى مولينو سلم حريق متداع خاص بمخرج الطوارئ فى شارع الثامن والسبعين، ليأخذوا فى العدو بعد ذلك عبر الأسطح المغطاة بالورق المطلى بالقار حتى يصلوا إلى أحد المبانى المجاورة للنادى الاجتماعى فى وضح النهار، دون أدنى خوف.

كانوا يتطفلون على فتاة تعرف عليها تونى فى المبنى المجاور للنادى الاجتماعي. كانت الفتاة تدعى أنيت بوتشي. وكانت أنيت فتاة إيطالية جميلة اعتادت على الإنفاق على أصدقائها عندما كانوا جميعًا فى الثالثة عشر والرابعة عشر من العمر. كانوا يشاهدون معًا أفلامًا مثل *Happy Days . Laverne & Sherley*.

وكانوا يتصرفون كما يفعل الحمقى، فيدخنون السجائر والمخدرات ويفعلون ما يحلو لهم.

على أية حال، كانت هذه المغامرة الحالية أكثر سهولة؛ حيث إنه سيقوم بها فى الليل والقمر مكتمل. وبطبيعة الحال، لم يأت إلى هنا هذه المرة ليرى أنيت بوتشى.

كلا، بل جاء لمهمة خطيرة وجدية مع ماجيونى الصغير، مهمة لم تكتمل، ربما يرجع تاريخها إلى عهد ماجيونى الكبير، الذى قام بتصفية جيمى هاتس. ماذا يمكن أن يكون قد حدث مع هاتس غير ذلك؟ إذن فالمهمة كلها تدور حول الانتقام، الذى بدا أنه سيكون عذبًا لدرجة أن الجزار كان قادرًا على تذوقه. كان بإمكانه أن يرى ماجيونى الصغير وهو ينازع الموت.

وإذا قدر لخطته أن تنجح الليلة، فستكون حديث الحى كله لسنوات عديدة.

وستكون هناك بالطبع بعض الصور!

أخذ يسرع وهو يجتاز الأسطح القديمة وهو يأمل ألا يسمعه أو يحس به أحد فى الطوابق العلوية، فربما يأتى أحدهم ليلقى نظرة على ما يحدث بالأعلى، أو ربما يطلب الشرطة. وأخيرًا، وصل إلى المبنى المشيد بالقرميد الأسمر الرملى المجاور للنادى الاجتماعى.

لم يبد أن أحدًا علم بما يحدث بالأعلى. جلس على السطح وهو يحبس أنفاسه، ثم أخذ يتنفس ببطء، ولكن غضبه لم يتناقص قيد أنملة. غضبه من ماجيونى؟ أم من والده؟ وما هو الفرق اللعين بين الاثنين؟

وبينما هو يجلس فى مكانه هناك، أخذ يتساءل عما إذا كان قد تحول إلى شخص انتحارى فى هذه المرحلة من حياته. لقد أصبح هكذا إلى حد ما على أية حال. وكان يؤمن بأن كل من يدخن لديه ميول انتحارية، وأن جميع الحمقى الذين يعاقرون الخمر والذين يقودون سياراتهم بسرعة متهورة لديهم أيضًا

ميول انتحارية، وكذلك الحال بالنسبة لأى شخص يقود دراجة بخارية. ولا شك أن من يقتل والده ويطعمه للأسماك فى خليج شيبسهيد يكون ذا ميول انتحارية. أو يكون انتحاريًا فى الخفاء، أليس كذلك؟

لقد كان فاسقًا طوال حياته، مثل جون ماجيونى. لقد حاول النيل من الجزار، والآن فلننظر ما سيحل به إذا نجحت الخطة.

الفصل ٩٨

ظللنا نعبث بأصابعنا ونحن نمضى الوقت ما بين مراقبة وانتظار. بدا كأن الأيام الماضية قد عادت مرة أخرى، ولكن الوضع لم يكن بكل ذلك السوء هذه المرة.

وبينما أنا وسامبسون جالسان نترقب على مسافة أقل من مائة ياردة من المنزل فى مونتوك، بمحاذاة التقاطع الجنوبى لـ "لونج أيلاند"، كان حماسى يزداد بإمكانية إلقاء القبض على الجزار قريبًا. وفى الوقت نفسه، لم أستطع منع نفسى من التفكير فى أن شيئًا ما لم يكن صحيحًا.

وربما أكون حتى على علم بما هو خطأ: لم يقبض على هذا القاتل من قبل أبدًا. وعلى حد علمي، لم يسبق لأحد تحقيق هذا السبق. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا اعتقدت أن بإمكاننا أن نلقى القبض عليه الآن؟

هل لأننى قاتل التنين ونجحت فى إلقاء القبض على الكثير من القتلة الآخرين؟ هل لأننى اعتدت أن أكون قاتل التنين؟ أم لأن طبيعة الحياة العادلة تحتم انتصار الخير فى النهاية ولا بد من الإمساك بالقتلة، لا سيما ذلك القاتل الذى قتل زوجتى؟ حسنًا، اللعنة! لم تكن الحياة عادلة. أدركت ذلك منذ اللحظة التى سقطت فيها ماريا، لتموت بعدها بين ذراعى.

سألنى سامبسون: "لا تعتقد أنه سيعود إلى هنا ثانية؟ أليس ذلك ما تفكر فيه يا عزيزى؟ ألا تعتقد أنه عاود الهروب مرة أخرى؟ وأنه سيهرب بعيدًا هذه المرة؟".

"كلا، ليس هكذا تمامًا. لم أكن أفكر فيما إذا كان سوليفان سيعود إلى هنا أم لا. أعتقد أنه قد يعود. لا أعلم بالضبط ما يزعجنى يا جون. أشعر فقط ... أننا على وشك السقوط فى فخ ما بطريقة أو بأخرى".

تجهم وجه سامبسون قبل أن يسأل:

"ومن ذا الذى يفعل ذلك؟ ولماذا؟".

"لسوء الحظ ليست لدىَّ أية إجابة على أى من هذين السؤالين المنطقيين".

كان ذلك مجرد شعور داخلى غريب فى ذلك الوقت. ليس إلا مجرد حدس، أحد الأحاسيس التى تنتابنى دائمًا، والتى غالبًا ما تكون صحيحة، ولكن ليس دائمًا، ليس فى كل مرة".

ومع اقتراب الشمس من الغروب وتسلل البرد إلى الأجواء، شاهدت اثنين من الصيادين المخبولين بالقرب من المحيط. كان بإمكاننا أن نرى الماء من الغابة. كان الصيادان يرتديان بنطالين من المطاط حتى صدريهما للخوض فى الماء، وربما كانا يصطادان سمك القاروس المقلم فى هذا الوقت من العام. وكانا يعلقان حقائب الطعم وخطاطيف رفع الأسماك الثقيلة فى وسطيهما، وكان أحدهما يعلق مصباح منجم غريب المنظر فى قبعة فريق رد سوكس التى كان يرتديها. كان الجو عاصفًا،

وكلما كان عاصفًا، كان ذلك مواتيًا للصيد أو هكذا قالوا لى.

فكرت فى أننى وسامبسون نصطاد أيضًا، نعكف على اصطياد أى شر، ولو قليل، يكمن بعيدًا تحت السطح. وبينما أنا أراقب هذا النشاط الذى بدا بسيطًا، انزلق أحد الصيادين أسفل موجة ثم عاود الظهور على سطح الماء ليستعيد كرامته. لا بد أن ذلك الماء اللعين كان باردًا.

تمنيت ألا يحدث ذلك لى ولـ "سامبسون" الليلة. لم يكن ينبغى أن نكون هنا ولكننا جئنا على أية حال.

ونحن أيضًا نقبع فى العراء، أليس كذلك؟

والقاتل هو أحد أبرع القتلة الذين واجهناهم من قبل. وربما يكون الجزار هو الأفضل على الإطلاق.

الفصل ٩٩

كانت تتكون من مواد بسيطة فى الواقع؛ أقصد المكونات الرئيسية لعملية القتل الاحترافية التى سينفذها قاتل محترف: كانت هذه المرة عبارة عن إبريق من البنزين عالى الأوكتين وتروبين واصبع ديناميت للإشعال. لا شىء من ذلك صعب الإعداد. ولكن هل ستنجح الخطة فعلاً؟ لطالما كان ذلك هو السؤال الحاسم.

لقد بدت المهمة وكأنها مزحة من نوع ما بالنسبة للجزار - مجرد مغامرة كان سينجح فيها هو وتونى مولينو وجيمى هاتس لو أرادوا القيام بها فى الماضى، لو عادوا للحى القديم مرة أخرى. سيجنى بعض المتعة المجنونة من وراء ذلك، فربما يفقأ إحدى عينى الأحمق بإحدى هذه القنابل. وهكذا سارت معظم حياته فكانت ما بين حيل ومغامرات والانتقام لأخطاء

الماضى.

كان ذلك ما حدث مع والده؛ حيث عاد ليقتل الوغد اللئيم. لم يكن يحب أن يفكر فى هذا الأمر كثيرًا، ولذلك لم يفعل؛ وإنما اكتفى بقطع رقبته. ولكنه عاد ذات ليلة، وذلك قبل وقت طويل فى بروكلين، ومزق جسد جزار سليجو الأصلى إلى أشلاء صغيرة، ثم أطعم كيفين سوليفان للأسماك فى الخليج. وكانت جميع الشائعات التى أثيرت حول هذا الموضوع صحيحة. اصطحب معه فى المركب كل من جيمى هاتس وتونى مولينو، الرجلين اللذين كان يثق بهما.

لم تكن الليلة مختلفة من ناحية وهى أنها تدور كلها حول الانتقام. اللعنة! إنه يكره ماجيونى الصغير منذ عشرين عامًا.

تسلق سلم النجاة ليهبط من سطح المنزل المجاور للنادى الاجتماعى. وما إن وصل إلى أرض الشارع حتى أخذ يسمع أصوات غليظة لبعض الرجال تأتى من داخل النادى. كانت هناك مباراة كرة قدم بين فريقى جتس وبيتسبيرج فى قناة إيه إس بى إن. ربما كانت هذه المباراة السبب فى انشغال الجميع فى ليلة الأحد الباردة هذه، التى يكسوها الظلام. انطلق صوت معلق المباراة: بولينجر يتمركز فى الخلف! بولينجر محاصر باللاعبين!

حسنًا، إنه محاصر أيضًا، هكذا كان الجزار يفكر فى نفسه. كان بحاجة إلى الحماية التامة لينفذ اللعبة التى لطالما أراد القيام بها طوال الوقت. كان يكره هؤلاء الأوغاد داخل النادى، ولطالما كان يكن لهم الكراهية دائمًا؛ وذلك لأنهم لم يسمحوا له أبدًا بدخول مجتمعهم الصغير حتى هذا اليوم. لقد ظل بالخارج دائمًا.

أعد قنبلته شديد الانفجار بجوار الحائط الخشبى فى الزقاق الضيق خارج الشارع. وفى أثناء وجوده فى الزقاق، رأى

اثنين من جنود ماجيونى يتمركزان على جانب الطريق. كانا يتكئان على سيارة إسكاليد سوداء.

كان يراهما بينما لم يكن بإمكانهما رؤيته فى الزقاق المظلم.

تقهقر إلى الوراء فى الزقاق واختبأ خلف صندوق قمامة من نوع دمبسى دامبستر كانت رائحته كسمكة متعفنة.

سمع أزيز طائرة نفاثة تابعة للخطوط الأمريكية تحلق فوقه متوجهة إلى لاجوارديا، وكانت تهز السماء بصوتها المدوى كالرعد. كان التوقيت ممتازًا لما سيحدث لاحقًا.

لم يكن أزيز الطائرة يمثل شيئًا مقارنة بالصوت المدوى الذى صاحب انفجار الباب الخلفى للنادى الاجتماعى، ليتبعه صرخات ولعنات الرجال الذين بالداخل.

وها هى النيران تندفع! يا إلهى! إن ألسنة اللهب تتراقص بعدما خرجت عن السيطرة بسرعة كبيرة.

فتح الباب الخلفى عنوة، ليظهر خلفه اثنان من الجنود، الحارسان الشخصيان لـ "ماجيونى"، وهما يحيطان زعيمهما كما لو كان رئيس الولايات المتحدة وهما من إدارة المخابرات السرية. كانا يسرعان به ليخرجاه من الخطر، وكانا ينزفان ويسعلان من الدخان، ولكنهما مع ذلك كانا يواصلان السير للأمام ويشقان طريقهما مباشرة إلى سيارة الزعيم اللينكولن. حاولا أن يزيلا الدخان عن أعينهما بأكمام قميصيهما.

خرج سوليفان من وراء صندوق القمامة قائلاً: "مرحبًا، ها أنا ذا أيها الحمقى!"، ثم أطلق أربع رصاصات سقط على أثرها الحارسان على الرصيف وتكوما عليه جنبًا إلى جنب، وقد لفظا أنفاسهما الأخيرة حتى قبل أن يصطدما بالأرضية الأسمنتية للرصيف. وكانت النيران لا تزال مشتعلة فى سترة أحدهما الرياضية المليئة بالمربعات.

ثم انطلق باتجاه ماجيونى الصغير الذى أصيب ببعض الجروح والحروق فى وجهه ووضع ماسورة مسدسه فى صدغه.

"أتذكرك وأنت لا تزال مجرد طفل يا ماجيونى الصغير. لقد كنت حينها وغدًا حقيرًا فاسدًا وحاد المزاج. لم يتغير شيء، أليس كذلك؟ ادخل السيارة وإلا أرديتك قتيلاً هنا فى الزقاق الخلفي. سأطلق عليك النار بين عينيك ثم أقطعهما وألصقهما فى أذنيك. ادخل السيارة قبل أن أفقد أعصابى!".

وهنا لوح بمشرطه أمام ناظرى ماجيونى الصغير.

قال: "ادخل قبل أن أستخدمه".

الفصل ١٠٠

جاب سوليفان بزعيم المافيا الشوارع الكبرى فى بروكلين بدءًا بشارع نيو أوترشت أفينيو، ثم الشارع السادس والثمانين وهو يقود سيارة الزعيم ويستمتع بكل لحظة يقضيه فيها.

قال له: "عد بذاكرتك إلى الوراء قليلاً من أجلى". ثم أخذ يقوم بسلسلة من التعليقات المتعاقبة وهو يتابع: "من يقول إنك لن تتمكن من العودة إلى البيت ثانية؟ هل تعلم من قال ذلك يا ماجيونى الصغير؟ ألم تقرأ أى كتاب من قبل؟ كان ينبغى لك أن تقرأ، ولكن فات الأوان".

أوقف السيارة أمام مطعم دانكين دوناتس فى الشارع السادس والثمانين لينقل ماجيونى إلى سيارته الفورد المستأجرة، التى كانت عديمة القيمة، ولكن على الأقل لن يلاحظها أى أحد فى الشارع. ثم وضع الأغلال فى يد ماجيونى. وضع أغلالاً ضيقة

من تلك التى تستخدمها الشرطة.

صاح ماجيونى حين آلمته القيود فى رسغه: "ماذا تظن نفسك فاعلاً بحق السماء؟".

لم يكن سوليفان متأكدًا مما عناه ماجيونى الصغير. أتراه كان منشغلاً بتغيير السيارتين وإطلاق النار وما سوف يحدث فى النصف ساعة القادمة أو ما شابه؟ ماذا؟

"لقد تعقبتنى، أتذكر ذلك؟ لقد كنت أنت من بدأ هذا الهراء كله. ألا أخبرك بشىء؟ لقد جئت إلى هنا لأنهى هذا الهراء. كان يفترض بى أن أقوم بذلك عندما كنا أطفالاً".

احمر وجه الزعيم وبدا أنه سيصاب بجلطة فى الشريان التاجى داخل السيارة. أخذ يصيح وهما يبتعدان عن المنطقة السكنية: "أنت مجنون! أيها المخبول غريب الأطوار!".

أوقف سوليفان السيارة تقريبًا فى وسط الشارع. هل كان ماجيونى يصيح فيه كأحد مساعديه؟

"مهلاً، لن أدخل معك فى جدل عن الصحة العقلية. أنا قاتل محترف، ولذا من المفترض بى أن أكون مجنونا بعض الشىء. من المفترض بى أن أكون مجنونًا، أليس كذلك؟ لقد قتلت ثمانية وخمسين شخصًا حتى الآن".

قال ماجيونى: "إنك تمزق قتلاك إلى أشلاء صغيرة. لقد خرجت عن السيطرة أيها المجنون. لقد قتلت أحد أصدقائى، أتذكر ذلك؟".

"أنفذ عمليات القتل التى أتعاقد عليها فى الوقت المحدد، وذلك فى كل مرة. ربما أكون ذائع الصيت بعض الشىء ومفضلاً لدى بعض الناس. ولكن تذكر تلك الفكرة ـ تمزيق الجثث إلى أشلاء صغيرة".

"عمَّ تتحدث بحق الجحيم؟ إنك لست مجنونًا إلى هذا الحد. لا يمكن لأحد أن يكون بكل هذا الجنون".

من المذهل أن ترى كيف يعمل عقل ماجيونى، أو كيف لا يعمل؛ حيث كان السيد الصغير لا يزال قاتلاً ذا دم بارد تمامًا، ولذا كان عليه أن يكون حريصًا، فلا مجال للأخطاء الآن.

تابع مايكل سوليفان: "أنا صريح تمامًا فى هذه الجزئية. نحن متوجهان الآن إلى جسر أعرفه جيدًا على نهر هادسون. وبمجرد أن نصل إلى هناك، سآخذ لك بعض الصور الفنية كى أعرضها على جميع أصدقائك المقربين. سأبعث لهم برسالة تهديد واضحة من خلال هذه الصور وآمل أن يفهموا مضمونها ويتركونى وأسرتى ولا يحاولوا المساس بنا".

ثم وضع سوليفان إصبعه على شفتيه وقال: "لا تتحدث بعد الآن. يغمرنى شعور بالأسف تجاهك يا ماجيونى، ولا أريد أن أشعر بذلك".

علق ماجيونى: "لا يهمنى ما تشعر به، آه ه ه ه"، هكذا صاح عندما طعنه سوليفان بمدية يبرز نصلها بضغطة سريعة وغاص بها فى بطنه حتى مقبضها، ثم أخذ يخرجها ببطء.

قال سوليفان بصوت خافت يملؤه الغضب: "هذه مجرد بداية. أنا لم أتجاوز مرحلة التسخين بعد".

بعدها انحنى له الجزار نصف انحناءة بسيطة قبل أن يقول: "بل أنا بكل هذا الجنون".

الفصل ١٠١

عدت أنا وسامبسون إلى سيارته فى انتظار عودة الجزار إلى منزله فى مونتوك. لم نكن نفعل أى شىء سوى حساب الوقت وعد الدقائق تلو الدقائق حتى يعود، فسيعود إن عاجلاً أو آجلاً. كل ما فى الأمر أنه لم يعد بعد، وأن التعب بدأ يتسلل إلينا أنا وسامبسون، بالإضافة إلى برودة الطقس. وللصراحة، فقد بدأت خيبة الأمل أيضًا تدب فى نفسينا.

ظهر أمامنا عامل توصيل البيتزا للمنازل من مطعم بابا جون فى حوالى السابعة والنصف. ولكن لم يظهر سوليفان؛ لم يظهر الجزار؛ ولا أية علامة تبث الارتياح فينا؛ هذا فضلاً عن عدم وجود بيتزا لنا أيضًا.

قال سامبسون: "دعنا نتحدث فى أى شىء؛ دعنا لا نفكر فى الطعام أو فى البرد".

فقلت وأنا أنظر إلى عامل توصيل البيتزا ذى الشعر الطويل: "كنت أفكر فى ماريا مرة أخرى لأضيع الوقت الطويل الذى نمضيه هنا دون أن نفعل أى شيء". خطرت ببالى فكرة أن سوليفان قد يلجأ إلى استخدام حيلة توصيل الطلبات للمنازل كما يحدث الآن ليبعث رسالة إلى زوجته. هل هذا ما حدث للتو؟ إذا صح هذا، فلا يمكننا عمل أى شيء. ولكن هل هذا ما حدث للتو؟

فقال سامبسون: "لا غرابة فى ذلك يا عزيزي".

"ما حدث الشهرين الماضيين أعاد أمامى الكثير من الماضي. ظننت أننى قد تألمت بما يكفي. ربما لا يكون ظنى فى محله. يبدو أن المعالج النفسى يعتقد أنه لا يتألم بالقدر الكافى".

"كان لديك طفلان رضيعان لتعتنى بهما فى ذلك الوقت. ربما كنت منشغلاً كثيرًا لتحزن كما تريد. أذكر أننى كنت أتردد على المنزل فى بعض الليالى. لم يبد أنك كنت تنام أبدًا؛ فكنت إما تعمل على قضايا القتل وإما تحاول أن تقوم بمهامك كأب. هل تذكر ذلك الشلل الذى عانيت منه فى نصف وجهك؟".

"ها أنت تذكرنى به الآن".

وكنت قد أصبت بشلل رعاش مقلق فى وجهى لفترة بعد وفاة ماريا. وأخبرنى طبيب الأمراض العصبية جون هوبكنز أننى قد أشفى منه أو أعانى منه لعدة سنوات. ظللت أعانى منه لأكثر من أسبوعين، وكان بمثابة أداة فعالة تساعدنى فى عملى؛ حيث كان يبث الخوف فى نفوس المجرمين الذين كنت أستجوبهم فى الحبس.

"كنت فى ذلك الوقت فى حاجة ماسة للإمساك بقاتل ماريا يا أليكس. ثم بدأت تنشغل بقضايا القتل الأخرى، وعندها أصبحت محققًا بارعًا، فى رأيى على أية حال؛ وذلك لأنك احتفظت بتركيزك فى تلك التحقيقات. وهكذا أصبحت قاتل التنين".

شعرت كأننى طفل صغير يعترف بأخطائه أمام أبيه، الذى لم يكن إلا سامبسون نفسه فى هذه الحالة. وما الجديد فى ذلك إذن؟

"لم أكن أريد أن أفكر فيها طوال الوقت، ولهذا أظننى عمدت إلى إلهاء نفسى فى شيء آخر. وبالفعل، كان هناك الأطفال، بالإضافة إلى العمل".

"هل تألمت بما يكفى إذن يا أليكس؟ أقصد هذه المرة؟ هل انتهى الأمر؟ أم أنه اقترب من نهايته؟".

"بصراحة؟ لا أعرف يا جون. أحاول أن أقرر ذلك الآن".

"ماذا لو لم نتمكن من إلقاء القبض على سوليفان هذه المرة؟ ماذا لو تمكن من الإفلات من قبضتنا؟ ماذا لو كان قد تمكن من ذلك بالفعل؟".

"أعتقد أننى سأكون بحال أفضل تجاه ماريا. لقد رحلت منذ وقت طويل". ثم توقفت وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أتابع: "لا أعتقد أنه كان خطئى. لم يكن بوسعى فعل أى شيء آخر عندما تعرضت لإطلاق النار".

تأوه سامبسون: "آه!".

فتأوهت أيضًا: "آه!".

"ولكنك لست متأكدًا تمامًا، أليس كذلك؟ لم تقتنع بذلك بعد".

فأجبته: "ليس مائة بالمائة"، ثم ضحكت وأنا أتابع: "ربما أقتنع إذا قبضنا عليه الليلة. ربما إذا نسفت مخه. عندئذ، سيستريح كل منا بالتأكيد".

"أليس هذا هو السبب نفسه الذى جئنا من أجله يا عزيزي؟ كى ننسف مخه؟".

سمعت طرقًا على النافذة الجانبية للسيارة، فأمسكت ببندقيتى على الفور".

الفصل ١٠٢

سألنى سامبسون: "ماذا يفعل هنا بحق الجحيم؟".

لم يكن الطارق إلا تونى مولينو نفسه الذى كان يقف بجوار السيارة من ناحيتى. ماذا يفعل هنا فى مونتوك بحق السماء؟

أنزلت زجاج النافذة ببطء على أمل استبيان الأمر والحصول على إجابة، أو ربما مجموعة من الأجوبة.

قال وهو يصعر خده متعاليًا: "كان من الممكن أن أكون سولى. ولو أن ذلك ما حدث بالفعل، لكنتما فى عداد الأموات الآن".

فقال سامبسون: "لا، بل أنت من سيموت". ثم ابتسم له ابتسامة ثقيلة وأخرج له بندقيته من نوع جلوك قبل أن يتابع: "رأيتك تأتى من الخلف منذ دقيقتين، وكذلك رآك أليكس".

لم أكن رأيته بالفعل، ولكن أسعدنى أن أعلم أن سامبسون كان لا يزال يحمى ظهرى، أن شخصًا ما كان يفعل ذلك؛ لأننى ربما كنت قد بدأت أفقد تركيزى بعض الشىء وقد يعرضك ذلك لإطلاق النار، أو ربما يؤدى إلى ما هو أسوأ من ذلك.

أخذ مولينو يفرك يديه فى بعضهما البعض وهو يقول: "الطقس شديد البرودة هنا الليلة". ثم انتظر قليلاً قبل أن يكرر ما قاله: "قلت إن الطقس قارس البرودة هنا، إنه يكاد يصل إلى درجة التجمد بالخارج هنا".

فقلت له: "تعال إلى داخل السيارة".

قال له سامبسون: "أتعدنا ألا تغدر بنا وتطلق علينا النار؟".

رفع مولينو كلتا يديه وبدا إما مرتبكًا أو خائفًا. وفى بعض الأحيان، يكون من الصعب وصف حالته على سبيل اليقين. "إننى حتى لا أحمل سلاحًا أيها السيدين. بل لم يسبق لى أن حملت سلاحًا فى حياتى كلها".

قال سامبسون: "ربما تحمله يومًا ما، بفضل أصدقائك. ينبغى عليك أن تفكر فى هذا الأمر يا أخى".

فقال مولينو وقد ارتسمت على وجهه ضحكة صغيرة وخبيثة جعلتنى أعيد التفكير فى حقيقته: "حسنًا يا أخى".

فتح باب السيارة وجلس على المقعد الخلفي. وكان السؤال الذى لا يزال يطرح نفسه: لماذا ظهر هنا وماذا كان يريد؟

قلت له بمجرد أن أغلق الباب الخلفى وسط الطقس البارد: "لن يأتي، أليس كذلك؟".

فأجاب مولينو: "لا، لن يأتى. ولم يكن ليأتى أبدًا".

فسألته: "أحذرته؟"، وكنت أراقب مولينو من خلال مرآة الرؤية الخلفية. ضاقت عيناه وكشفتا عن عصبية مفرطة وشعور بعدم الارتياح، بما يوحى بأن هناك أمرًا ما غير صحيح.

قال بصوت منخفض أقرب إلى الهمس: "ليست هناك حاجة لأن أحذره؛ فـ "سولى" يعتمد على نفسه، ويعتنى بنفسه

جيدًا".

فقلت له: "أراهن على ذلك".

سأله سامبسون: "ماذا حدث إذًا يا أنتونى؟ أين صغيرك الآن؟ ولماذا أنت هنا الآن؟".

بدا صوت مولينو وكأنه يخرج من تحت الماء، ولم أستطع أن أسمع تمامًا ما قاله هذه المرة.

ولم يسمعه سامبسون كذلك، فاستدار نحوه وقال: "ارفع صوتك. هل تسمعنى؟ أرأيت كيف يجدى ذلك؟ عليك أن ترفع صوتك لدرجة معينة".

قال مولينو: "قتل جون ماجيونى الليلة. اختطفه ثم قتله. كان ذلك متوقعًا منذ فترة طويلة".

ساد السيارة صمت تام، ولا أعلم شيئًا كان يمكن أن يفاجئنا كل هذه المفاجأة أكثر مما قال. أحسست من قبل أنه قد نصب فخا، وهذا ما كان.

وأخيرًا سألته: "وكيف وصلتك هذه الأنباء؟".

"أعيش فى الجوار. كما أن بروكلين تبدو مدينة صغيرة فى بعض الأحيان، ولطالما كانت كذلك. هذا فضلاً عن أن سولى اتصل بى بعدما أنجز مهمته. أرادنى أن أشاركه فرحته".

استدار إليه سامبسون بجسمه كله كى يواجهه: "إذن لن يأتى سوليفان إلى هنا ليكون إلى جانب أسرته. أليس خائفًا عليهم؟".

كنت لا أزال أراقب مولينو فى المرآة، وأنا أعتقد أننى ربما علمت ما يعتزم قوله بعد ذلك.

قال: "هذه ليست أسرته، بل إنه لا يعرف أصلاً من يكونون".

"ومن بداخل المنزل إذًا؟".

"لا أعرف من يكونون. ربما يكونون مجرد بدائل؛ مجرد أسرة تشبه أسرة سولى".

سألته: "هل تعمل لحسابه؟".

"لا، ولكن لطالما كان صديقًا جيدًا لى. حقيقة، كنت أنا من يخشى التعرض للأذى فى المدرسة وليس هو. لقد كان سوليفان يحمينى دائمًا، ولذلك ساعدته. وسأساعده مجددًا. تبًا! لقد ساعدته فى قتل أبيه المجنون".

سألته بعد ذلك: "ولماذا جئت إلى هنا؟".

"هذا سؤال سهل. لأنه طلب منى ذلك".

فسألته: "لماذا؟".

"اسأله هو شخصيًا. ربما لأنه يحب أن ينحنى بعد نجاحه فى إنجاز كل مهمة. هكذا يفعل دائمًا، كما تعلم، ينحنى. لا أظنك تريد أن ترى ذلك".

فأخبرته: "بل رأيته بالفعل".

فتح مولينو باب السيارة الخلفى، وانحنى إلينا برأسه، ثم اختفى فى ظلام الليل".

هكذا هو الجزار، كما خبرته.

الشكوك لا تزال تساورنى بأنه يتلقى مساعدة من أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية أو أحد مخبرى الشرطة، وأن هذا الشخص أو ذاك يوفر له الحماية، ولكن لم يتسن لى التأكد من ذلك، وربما لا يحدث ذلك أبدًا.

وذات ليلة بعد هروب سوليفان، وكانت ليلة يوم دراسي، جلست فى الشرفة وأخذت أعزف لـ "جانى" وديمون موسيقى الروك آند رول على البيانو. ظللت أعزف حتى قاربت الساعة العاشرة مساءً. ثم أخذت أحدث الأطفال عن أمهم. لقد حان الوقت.

الفصل ١٠٣

ثمة مقولة لا أعلم ما إذا كانت قديمة أم حديثة، فلا يهم ذلك كثيرًا - مفادها أن الحياة هى ما يحدث عندما تكون منشغلاً فى إعداد خطط أخرى.

عدت أدراجى إلى واشنطن بسبب حاجتى إلى رؤية الأطفال، وبسبب جدتى، وبسبب مرضاى الذين وثقوا بى والذين كان مقررًا أن ألتقى بهم فى اليوم التالي. ولطالما أعطتنى جدتى دروسًا فى أهمية مد يد العون للآخرين؛ وكانت تسميها دائمًا سبب بلائى وشقائي. وربما تكون محقة فى ذلك.

كانت صورة مايكل سوليفان وانحناءته البسيطة لا تفارق ذهني، وكدت أموت غيظًا لأنه لا يزال طليقًا فى مكان ما. وطبقًا لمكتب التحقيقات الفيدرالية، فقد رصدت المافيا بالفعل مليون دولار مكافأة لمن يأتى برأسه، ومليونًا آخر لأسرته. كانت

الفصل ١٠٤

لا أعرف على وجه التحديد ما دفعنى إلى التحدث معهما عن أمهما فى هذا التوقيت، ولكنى أردت أن يعرف الطفلان المزيد من الحقيقة عنها.

وربما أردت أن يصلا إلى النتيجة التى عجزت عن التوصل إليها بنفسي. ولم أكن قد كذبت عليهما أبدًا فيما يتعلق بـ "ماريا"، ولكنى كنت أتحفظ فى الكلام عنها فى بعض الأحيان، و... لا، بل كذبت فى أمر ما. لقد أخبرت ديمون وجانى أننى لم أكن مع ماريا عندما تعرضت لإطلاق النار، وأننى وصلت إلى مستشفى سانت أنطونى قبل أن تموت وتبادلنا بعض الكلمات الأخيرة. والسبب فى ذلك أننى لم أكن أريد أن أضطر إلى إخبارهما ببعض التفاصيل التى لم أستطع أبدًا أن أخرجها من رأسي: صوت الطلقات التى أردت

ماريا قتيلة؛ الشهقة الحادة التى صدرت عنها لحظة إصابتها؛ طريقة انزلاقها من بين ذراعى لتسقط على الرصيف؛ المشهد الذى لا ينسى لتدفق الدم من صدر ماريا؛ وأخيرًا إدراكى أن إصاباتها كانت قاتلة. كنت لا أزال أتذكر كل هذه التفاصيل رأى العين وكأنى مستيقظ لتوى من كابوس مفزع حتى بعد مرور أكثر من عشرة أعوام.

قلت لهما فى تلك الليلة وأنا جالس فى الشرفة: "كنت أفكر فى أمكما مؤخرًا. كنت أفكر فيها كثيرًا. وربما تعرفان ذلك بالفعل يا صغيريَّ".

كان الطفلان يتجمعان حولى والشكوك تساورهما فى أن هذا الحديث لم يكن أحد تلك الأحاديث التى اعتدنا عليها.

"كانت مميزة فى كثير من النواحى. أجل، فى كثير من النواحى يا عزيزى ديمون وجانى. كانت عيناها مفعمتين بالحيوية وكانتا صادقتين دائمًا. وكانت مستمعة جيدة، وهذا عادة ما يكون سمة للشخص الجيد، وأظنها كذلك على أية حال. كانت تحب أن تبتسم وأن تجعل الآخرين يبتسمون ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وكانت تقول دائمًا: "هذا كأس حزن، وهذا كأس سعادة، أيهما تختار؟"، وكانت تختار كأس السعادة فى أغلب الأوقات".

فسألتنى جانى: "فى أغلب الأوقات؟".

"نعم يا جانى فى أغلب الأوقات. فكرى فى ذلك يا صغيرتى، فأنت ذكية. لقد اختارتنى، أليس كذلك؟ لقد رفضت جميع الرجال الجذابين واختارت هذا الشخص العنيد قليل الشأن".

ابتسم كل من جانيل وديمون، ثم قال ديمون: "هل تذكر ذلك الآن لأن المجرم الذى قتلها ظهر مرة أخرى؟ لماذا نتحدث عن أمنا الآن؟".

"هذا جزء من الحقيقة. ولكنى أدركت مؤخرًا أن ثمة عملاً لم أنته منه بعد معها، ومعكما أيضًا. ولهذا فنحن نتحدث

الليلة، حسنًا؟".

أخذ ديمون وجانيل يصغيان فى صمت، فيما أخذت أتحدث لوقت طويل. وأخيرًا، انفجرت باكيًا، وأعتقد أنها كانت المرة الأولى التى رأيانى فيها وأنا أبكى على ماريا. استطردت قائلاً: "كنت أحبها حبًا جمًا، كنت أحب أمكما كما لو كانت جزءا مني. ولا زلت أحبها على ما أعتقد. أجل، لا زلت أحبها. أعرف ذلك".

سألنى ديمون: "هل نحن السبب فى ذلك؟ إننا نتحمل جزءًا من الخطأ، أليس كذلك؟".

فقلت له: "ماذا تقصد يا عزيزى؟ لست متأكدًا مما إذا كنت أفهمك".

"إننا نذكرك بها، أليس كذلك؟ نذكر بأمنا كل يوم، عندما ترانا كل صباح تتذكر أنها ليست هنا. أليس ذلك صحيحًا؟".

هززت رأسى وأنا أقول: "ربما ينطوى ذلك على جزء بسيط من الحقيقة، ولكنكم تذكرونى بها بطريقة جيدة، بل بأفضل طريقة. صدقونى فى ذلك، بطريقة إيجابية من جميع النواحى".

انتظرانى حتى أواصل حديثى وأعينهما مثبتة علي، كما لو كنت سأفر هاربًا فجأة من أمامهما.

قلت لهما: "ثمة أمور كثيرة تتغير فى حياتنا: أصبح آلى معنا الآن، وجدتى تطعن فى السن، كما أننى قد عدت إلى مرضاى مرة أخرى".

فسألنى ديمون مرة أخرى: "هل تحب ذلك؟ أن تكون معالجًا نفسيًا؟".

"أجل. حتى الآن".

فعقبت جانى: "حتى الآن! هكذا أنت يا أبى".

ضحكت بصوت مرتفع، ولكنى لم أحاول تفسير ما قالته جانى على أنه إطراء أو مجاملة من جانبها. ليس لأننى كنت أكره المجاملات والإطراء تمامًا، ولكن لأن لكل شىء وقتًا، وهذا

لم يكن وقت الإطراء. وأتذكر عندما قرأت السيرة الذاتية للرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون، لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى أنه عندما اعترف بالضرر الذى سببه لزوجته وابنته، لم يستطع أن يقاوم البحث عن العفو والسماح أيضًا، بل كان يريد حتى أن يضمه القارئ إلى صدره ليبثه الأمان العاطفي. لم يستطع أن يقاوم فحسب ربما لأن حاجته إلى الحب كبيرة جدًا. وربما يكون ذلك هو ما جعله يحظى بشفقة الجماهير وتعاطفهم معه.

ثم قمت أخيرًا بالجزء الأصعب أخبرت جانى وديمون بما قد حدث لـ "ماريا". أخبرت طفلىَ بالحقيقة كما عرفتها. أخبرتهما بمعظم تفاصيل موتها، أو قتلها، وأخبرتهما أننى كنت شاهد عيان على مقتلها، وأننى كنت معها عندما ماتت، وشعرت بآخر نفس لها فى الحياة، وسمعت آخر كلماتها.

وعندما فرغت من حديثي، وذلك عندما أصبحت غير قادر على مواصلة الحديث، همست إلىَ جانى: "انظر إلى النهر، لاحظ كيف يجرى يا أبى. إن النهر حقيقة".

وكنت قد اعتدت على قول ذلك للأطفال عندما لم تكن أمهم موجودة وهم صغار. كنت أسير بهم بجوار نهر أناكوستيا أو نهر بوتوماك وأطلب منهم النظر إليه، وتأمل مياهه، وأقول لهم: "انظروا إلى النهر... إن النهر حقيقة".

أو أقرب ما يكون إلى الحقيقة.

الفصل ١٠٥

كان يراودنى شعور بأننى عاطفى وحساس بشكل يدعو للاستغراب، وأظننى أصبحت مفعمًا بالحيوية هذه الأيام.

وكان هذا الشعور جيدًا وسيئًا فى الوقت نفسه.

كنت أتناول إفطارى مع جدتى فى حوالى الخامسة والنصف أو نحو ذلك كل صباح. بعدها أنطلق إلى مكتبى وأبدل ملابسى لأبدأ جلساتى مبكرًا فى السادسة والنصف.

كانت كيم ستافورد أولى مرضاى كل اثنين وخميس. وكنت ألقى صعوبة كبيرة فى تنحية المشاعر الشخصية جانبًا فى أثناء الجلسات، بالنسبة إلىّ على الأقل، أو ربما كان ذلك نتيجة، فقط، لابتعادى عن المكتب لفترة. وعلى الجانب الآخر، دأب بعض زملائى على وصفى دائمًا بأننى تحليلى أكثر من اللازم، وأننى متحفظ وغير قريب من المرضى أكثر من اللازم

أيضًا. ولكن، ما الذى يعود على أى مريض، أو أى إنسان على وجه الأرض، من توددى له؟ أوه، لا بأس أن أتقرب إليهم أكثر، فأنا معالج نفسى.

كنت بحاجة إلى فعل هذا على طريقتي، مضفيًا جوًا من الدفء والحميمية فى بعض الأحيان، ولا مانع من أن أشعر تجاه مرضاى بالكثير من المشاعر والشفقة بدلاً من مجرد التعاطف معهم. كنت بحاجة أيضًا إلى كسر القواعد، أن أكون غير متزمت، كأن أواجه جيسون ستمبل فى مخفر الشرطة الذى يعمل به وأحاول ضرب ذلك الحثالة. وذلك ما أسميه بالعمل الاحترافى.

لم يكن لدىّ أى موعد حتى الظهيرة، لذا قررت الاتصال بـ "مونى دونيلى" فى كوانتيكو. وكانت مونى تقوم ببعض الأبحاث الخاصة بنظرية كنت قد صُغتها عن الجزار. لم أقل أكثر من كلمة مرحبًا، وإذا بها تقاطعنى بالقول: "لدىّ شىء من أجلك يا أليكس. وأعتقد أنه سيروق لك. إنها فكرتك على أية حال، إنها نظريتك".

ثم أخبرتنى مونى أنها استخدمت ملاحظاتى ومذكراتي، وتتبعت أخبار زوجة سوليفان من أحد أفراد المافيا الذى كان يخضع لبرنامج حماية الشهود ويعيش الآن فى ميرتل بيتش بـ "ساوث كارولينا".

"سرت فى الطريق نفسه الذى بدأته أنت، ووجدت أنك كنت محقًا تمامًا. لقد قادنى هذا الطريق إلى رجل كان قد حضر زفاف سوليفان، الذى كان حفلاً صغيرًا ولم يدع إليه الكثير من الأشخاص، الأمر الذى ربما يكون متوقعًا بالنسبة إليك. كان رفيقه الذى أخبرتنى عنه، أنتونى مولينو، قد حضر حفل الزفاف. من الواضح أن سوليفان لم يكن يريد أن يطلع الكثير من الناس على حياته الخاصة. بل إنه لم يدع أمه، وكان أبوه ميتًا فى ذلك الوقت كما تعلم".

"أجل، قتله ابنه واثنان من رفاقه. ماذا وجدت عن زوجة سوليفان؟".

"حسنًا، ما وجدته عنها مثير للاهتمام بالفعل، وليس كما توقعت أنت. إنها أصلاً من كولتس نك، بولاية نيو جيرسى، وكانت مدرسة بالمرحلة الابتدائية قبل أن تلتقى مع سوليفان. ما رأيك فى ذلك؟ ذكر لى سالفاتور بيستلى، الرجل الذى يخضع لبرنامج حماية الشهود، أنها كانت فتاة جميلة ولطيفة، وأن سوليفان كان يبحث عن أم صالحة لأطفاله. شىء مؤثر، أليس كذلك يا أليكس؟ هناك نقطة ضعف لدى هذا القاتل المختل المحترف. اسم الزوجة كايتلين هانى، ولا تزال أسرتها تقيم فى كولتس نك".

وفى ذلك اليوم نفسه، وضعنا أجهزة تنصت على هواتف والدى كايتلين سوليفان لتتبع مكالماتهما. وأجهزة أخرى على هاتف أختها التى تعيش فى تومز ريفر بـ "نيو جيرسى" وهاتف أخيها الذى يعمل طبيب أسنان فى ريدج وود.

عاد إلىّ الأمل مرة أخرى؛ فربما نتمكن أخيرًا من إغلاق هذه القضية ونلقى القبض على الجزار.

وربما أتمكن من رؤيته ثانية لأنحنى له انحناءة بسيطة بنفسى.

الفصل ١٠٦

كان مايكل سوليفان يسمى نفسه مايكل موريسى منذ أن كان يعيش فى ماساشوستس، وكان موريسى وغدًا قتله سوليفان ومزق جسده إلى أربعة أجزاء فى بداية أيامه كقاتل محترف. احتفظت كايتلين والأولاد بأسمائهم الأولى، ولكنهم الآن اتخذوا لقب موريسى هم أيضًا. وكانت القصة التى يحفظونها عن ظهر قلب أنهم كانوا يعيشون فى دبلن طيلة السنوات القليلة الماضية لأن أباهم كان يعمل هناك مستشارًا لعدة شركات أيرلندية ترتبط بعلاقات تجارية مع أمريكا.

وهو الآن يباشر عمله "كمستشار" فى بوسطن.

كان الجزء الأخير من القصة صحيحًا؛ حيث كان الجزار قد حصل لتوه على وظيفة من خلال عقد قديم فى ساوث بوسطن ـ أجل، وظيفة عملية قتل مدفوعة الأجر.

غادر المنزل المطل على نهر الهوسيك فى التاسعة من صباح ذلك اليوم، وعلامات التحضر بادية جدًا على مظهره. ثم قاد سيارته من نوع ليكزس الجديدة غربًا متوجهًا إلى بوابة ماساشوستس. وكان يحتفظ بأدوات العمل فى حقيبة السيارة بندقية ومنشار جزار ومسدس مسامير.

لم يشغل أية موسيقى فى النصف الأول من الرحلة، مفضلاً الاستغراق فى ذكرياته بدلاً من ذلك. وكان قد دأب مؤخرًا على التفكير كثيرًا فى عمليات القتل الأولى التى قام بها؛ والتى جاء فى مقدمتها قتل أبيه بالطبع، ثم عمليتى قتل قام بهما لحساب ماجيونى الكبير، ثم قتل معلم يدعى فرانسيس إكس. كونلى. وكان الأخير يعتدى على الأولاد الصغار فى مدرسته لعدة سنوات. وذاع هذا الأمر فى الأحياء المجاورة، وكانت القصص المتداولة تحوى الكثير من التفاصيل المريعة والقذرة. لم يستطع الجزار أن يصدق أن بعض الآباء على علم بالأمر ولم يفعل أى شىء ليوقفه.

وعندما أتم عامه التاسع عشر، وكان حينها يعمل بالفعل لدى ماجيوني، رأى المعلم فى حوض السفن؛ حيث كان كونلى يقضى بعض الوقت على سطح المركب للقيام برحلات الصيد. وفى بعض الأحيان، كان يصطحب معه أحد التلاميذ فى فترة الظهيرة، كمكافأة. يا لها من لفتة لطيفة!

وفى هذا اليوم من فصل الربيع، توجه المعلم الصالح إلى حوض السفن ليجهز مركبه للموسم. كان يعمل على المحرك عندما صعد سوليفان وجيمى هاتس على سطح المركب.

قال جيمى وهو يرسم ابتسامة خبيثة على شفتيه: "مرحبًا أيها المعلم فرانكى. ما رأيك فى القيام برحلة صغيرة على ظهر المركب اليوم؟ هل تود القيام ببعض الصيد؟".

نظر المعلم بطرف عينه إلى المجرمين الصغيرين، ثم عبس وجهه عندما تعرف عليهما. قال لهما: "لا أظن ذلك أيها

الولدين؛ فالمركب غير جاهز للإبحار بعد".

ضحك هاتس على إثر ذلك ثم أخذ يكرر: "بل جاهز للإبحار ـ أفهمك جيدًا".

ثم تقدم سوليفان بضع خطوات للأمام قبل أن يقول: "أجل، إنه جاهز يا علاف الماشية. سنقوم بجولة فى البحر. هل سمعت بهذه الأغنية من قبل؟ أغنية "جولة فى البحر" لـ "فرانكى فورد؟" هذا ما سنقوم به. نحن الثلاثة فقط".

وبالفعل قاما بالجولة مصطحبين معهما المعلم الذى لم ير أو يسمع عنه أحد أى شىء بعد ذلك أبدًا. وفى طريق عودتهما، أخذ جيمى هاتس يسخر منه بالقول: "جعل الله النار مثوى روحه الشريرة".

وفى ذلك الصباح، وهو يقود سيارته للقيام بأحدث عملية له، تذكر سوليفان الأغنية القديمة لـ "فرانكى" فورد وتذكر كيف توسل إليهما المعلم البائس ورجاهما ألا يقتلاه، وذلك قبل أن يمزقه إربًا ويجعله طعامًا لأسماك القرش. ولكن أكثر شىء تذكره هو تساؤله عما إذا كان ما فعله بالمعلم فرانك عملاً صالحًا، وما إذا كان بإمكانه أن يقوم بذلك أم لا.

هل كان بإمكانه فعل أى عمل صالح فى حياته؟

أم أنه لم يفعل إلا الشرور والآثام فقط طيلة حياته؟

الفصل ١٠٧

وصل أخيرًا إلى ستوك بريدج، بالقرب من ماساشوستس على الحدود مع نيويورك واستخدم جهاز تحديد الاتجاهات الخاص به ليجد المنزل الصحيح. كان مستعدًا ليقوم بأسوأ شيء، ليكون الجزار مرة أخرى، ليكسب أجره لهذا اليوم.

لقد نسى كل شيء عن الأعمال الصالحة والأفكار الجيدة التى كان يفكر بها لتوه، أيًا كان ما يفترض أنها تشير إليه. حدد موقع المنزل، الذى كان ريفيًا جدًا، وكان، حسب اعتقاده، دالاً على حسن ذوق صاحبه. كان المنزل يطل على بركة ماء ساكنة وسط أفدنة من أشجار القيقب والدردار والصنوبر. كانت هناك سيارة بورش سوداء موديل تارجا متوقفة مثل تمثال عصرى منحوت فى الطريق الخاص للمنزل.

قيل للجزار إن امرأة فى الحادية والأربعين من العمر تدعى مليندا شتينر تعيش فى هذا المنزل ولكنه عَلِم أنها تقود سيارة مرسيدس حمراء فارهة ذات غطاء قابل للطيِ. من يكون صاحب هذه السيارة البورش السوداء إذن؟

أوقف الجزار سيارته خارج الطريق الرئيسى خلف أيكة من أشجار الصنوبر، وأخذ يراقب المنزل قرابة العشرين دقيقة. كان لاحظ أن باب المرآب كان مغلقًا، مما يشير إلى احتمال وجود سيارة مرسيدس حمراء فارهة ذات غطاء قابل للطى بالداخل.

إذن مرة أخرى من يكون صاحب السيارة البورش السوداء؟

اتخذ لنفسه موقعًا آمنًا واختبأ خلف الأغصان الكثيفة، ووضع منظارًا ألمانيًا ثنائيًا على عينيه. ثم أخذ يتفقد النوافذ الشرقية والجنوبية للمنزل بتمهل، نافذة نافذة دون أن يترك واحدة منها.

لم يبد أن هناك أحدًا فى المطبخ الذى كانت جميع نوافذه مظلمة، ولم يكن أى أحد يتحرك خلفها.

ولم يبد أن هناك أحدًا فى حجرة المعيشة أيضًا، التى كانت مظلمة هى الأخرى وبدت خالية.

ولكن أحدًا ما كان فى المنزل، أليس كذلك؟

وجدهم أخيرًا فى حجرة نوم واقعة فى إحدى زوايا المنزل فى الطابق الثانى. ربما كانت هذه الحجرة الرئيسية فى المنزل.

كانت مليندا، أو مل، شتينر داخل الحجرة.

كانت برفقة رجل أشقر أنيق فى بداية الأربعينات من العمر، يحتمل أن يكون صاحب السيارة البورش.

ظل يقول فى نفسه: أخطاء كثيرة لا تعد، سلسلة من الأخطاء اللعينة.

ثمة شيء آخر انشغل بحسابه، وهى الخمسة والسبعون ألف دولار أتعاب العملية التى من المفترض أن تتضاعف الآن، حيث

لم يسبق أن قتل اثنين بسعر واحد.

بدأ الجزار يسير باتجاه المنزل الريفي، ممسكًا ببندقيته فى إحدى يديه وصندوق الأدوات فى اليد الأخرى، وكان يشعر بالتفاؤل إزاء هذه العملية، وهذا اليوم، وإزاء هذه الحياة التى اختارها لنفسه.

الفصل ١٠٨

ثمة أشياء قليلة فقط فى الحياة يمكنها أن تتغلب على الشعور بالثقة بقدرتك على القيام بعمل ما بصورة طيبة. كان مايكل سوليفان يفكر فى الحقيقة التى تتضمنها هذه الجملة وهو يقترب من المنزل.

كان مدركًا لمساحة الأرض المحيطة بالمنزل الأبيض المبنى على الطراز الاستعمارى، ثلاثة أو أربعة أفدنة من الغابات والحقول المعزولة. وبعيدًا عند نهاية الحقول، رأى ملعب تنس بدا وكأنه مغطى بالطين الأخضر. ربما كان ملعب هار ترو الذى شيده محترفو اللعبة فى ميريلاند.

لم يهتم لأمره كثيرًا، فقد كان تركيزه منصبًا على عمله، على المهمة التى يسعى إلى إنجازها، تلك المهمة التى باتت تتكون من جزأين.

أخذ يقول فى نفسه: اقتل امرأة تدعى مليندا شتينر وعشيقها، إذا تصادف وجوده الآن.

انتبه لئلا يقتلك أحدهم.

لا أخطاء.

فتح باب المنزل الخشبى الأمامى ببطء، ولم يكن الباب مغلقًا. عادة ما يفعل الناس ذلك فى الريف، أليس كذلك؟ خطأ. كان واثقًا أيضًا من أنه لن يلقى مقاومة كبيرة بمجرد أن يصعد إلى الطابق الثانى.

عاد ليحدث نفسه قائلاً: لا زلت لا تعلم ما قد يحدث، فلا تغتر بنفسك إذًا، وكف عن ارتكاب الحماقات، ولا تبالغ فى تقدير ذكائك يا مايكى.

تذكر الإخفاق الذى تعرض له فى البندقية بإيطاليا، وما حدث له هناك. تذكر الفوضى الكبيرة، وكيف كان من الممكن أن يتم استدراجه والإيقاع به. لا شك أن المافيا تبحث عنه الآن، وستعثر عليه يومًا ما.

إذًا لماذا لا تعثر عليه اليوم؟ ولماذا لا يكون ذلك هنا؟

صحيح أن من كلفه بهذه المهمة صديق قديم له، ولكن من الوارد أن تكون المافيا قد وصلت إليه بسهولة، ومن ثم تنصب فخًا للجزار للإيقاع به.

ولكنه فقط لم يعتقد ذلك.

ليس اليوم.

فالباب الأمامى لم يكن مغلقًا. ولو كان هذا فخًا وأرادوا أن يجعلوه محكمًا، لأغلقوا الباب.

كما أن الشخصين اللذين رآهما فى حجرة النوم بديا طبيعيين إلى حد كبير، وكانا يعيشان اللحظة بشكل طبيعي، فضلاً عن أنه لم يكن ليصدق أن أحدًا ـ ربما فيما عدا هو ـ يتمتع بالقدر الكافى من الدهاء الذى يمكنه من إعداد هذا الفخ المحكم للقبض عليه. لا شك أن المرأة والرجل بالأعلى غير

منتبهين له، ولذلك لم تساوره الشكوك من ناحيتهما.

سمع أصوات ضحكاتهما وهو يرتقى السلم.

بالطبع، يمكن أن تكون هذه الأصوات مجرد تسجيل.

ولكن الجزار شك فى ذلك أيضًا، وعادة ما يكون حدسه صادقًا جدًا جدًا. ومن المؤكد أن هذا الحدس هو ما أبقاه على قيد الحياة حتى الآن، وهو نفسه الذى أدى إلى مصرع الكثير من الآخرين غيره.

الفصل ١٠٩

عندما اقترب من الطابق الثانى، أخذ قلبه يخفق بشدة، فيما تعالت أصوات الضحكات من داخل الحجرة، ما دعاه للابتسام على الرغم منه.

فكرة غريبة. أخذ يتذكر مشهدًا من فيلم *"Sideways"* كان قد أثر فيه بشدة عندما شاهده. كان المشهد لرجل قصير ثمل تمامًا، يحاول استرداد محفظة امرأة سيئة السمعة، مما اضطره إلى التسلل إلى حجرة نوم بها رجل بدين قبيح المنظر وزوجته البدينة أيضًا يتصرفان كأى خنزيرين فى حظيرة حقيرة. كان المشهد رائعًا جدًا ومرحًا، وغير متوقع تمامًا، كهذا الذى سيحدث الآن ـ بالنسبة له على أية حال.

ولذلك تسلل هو الآخر إلى أحد أركان الحجرة وأخذ يحدق داخلها، وهو يقول فى نفسه: مفاجأة! أنتما فى عداد الأموات.

كان كل من الرجل والمرأة ذا قوام رياضى انسيابى، وكانت الابتسامة تملأ وجهيهما.

بدا أنهما يحبان بعضهما البعض. وكانت مليندا ترتدى جوربًا أبيض حتى الركبة، وهو ما استثاره جدًا. أخذ يتساءل عما إذا كانت قد فعلت ذلك من أجله أم من أجل نفسها؟

وبعد دقيقة أو نحوها من المشاهدة، تنحنح ثم قال: "أريد نظامًا فى هذه الحجرة اللعينة".

قفز الرجل والمرأة من مكانهما.

قال لهما: "أوه، كم أنتما رائعان معًا!"، ثم ابتسم بلطف، وكأنه يجرى دراسة عن الخيانة الزوجية، وذلك قبل أن يتابع: "أنتما رائعان حقًا. كم أنا معجب بكما".

بدا أنه أعجب بهما فعلاً، لا سيما مليندا. لا شك فى ذلك؛ فقد كانت جميلة جدًا بالنسبة لعمرها. كان يحدث نفسه بجمال قوامها وعذوبة وجهها ذلك الوجه الحسن.

أعجبه أنها لم تخجل منه بل راحت ترمقه بناظريها، وكأنها تقول له: ماذا تظن نفسك تفعل هنا بحق الجحيم؟ هذا منزلي، وهذا شأنى، وليس لك أى دخل فيه أيًا كنت. ولذلك اغرب عن وجهى الآن!

سألها وهو يشير إليها ببندقيته، ولكن بطريقة لا توحى بالتهديد: "أنت مليندا شتينر، أليس كذلك؟" وأى تهديد يمكن أن يبث الرعب فى نفسيهما أكثر مما فعل؟ ولم يكن هناك ما يدعوه لكراهيتهما: إنهما لا ينتميان إلى المافيا؛ ولم يحاولا إلحاق الأذى به أو بأسرته.

"أجل. أنا مليندا شتينر. ومن أنت؟ وماذا تريد هنا؟".

بدا واضحًا أنها كانت حادة الطباع وسريعة الغضب نوعًا ما، ولكن ذلك لم يكن ليضايقه كثيرًا. تبًا! هذا منزلها حقًا، وكان لها الحق فى معرفة ما يفعل بمنزلها.

تقدم بضع خطوات سريعة داخل الحجرة ثم.

دوى صوت طلقتين.

أصاب الرجل الأشقر برصاصتين فى رقبته وجبهته، سقط على أثرهما من أعلى السرير ليهوى على الرقعة ذات الطراز الهندى من أرضية الحجرة. لم تعد هناك فائدة من الشكل والقوام الجميل الذى تمتع بهما طوال حياته.

وضعت مليندا كلتا يديها على فمها وقالت وهى تلهث بصوت مرتفع: "يا إلهى!" ولكنها لم تصرخ، وهو ما يعنى أنها لم تكن تكترث بذلك الرجل. لم تكن تحبه إذن، ولم يكن حتى قريبًا منها. وبالنظر إلى وجهها الآن، تبين له أنها ما كانت تحب ذلك الرجل الأشقر.

"خيرًا فعلت يا مليندا. إنك تفكرين فى نفسك. لم يشعر بأى شىء. أؤكد لك أنه لم يشعر بأى ألم".

قالت له: "كان المهندس المعمارى الخاص بى"، ثم أضافت بسرعة: "لا أدرى لماذا أخبرتك بذلك".

"أنت متوترة فحسب. ومن ذا الذى يحتفظ بأعصابه فى هذا الموقف. ربما تكونين قد أدركت بالفعل أننى ما جئت إلى هنا إلا لأقتلك أنت، وليس حبيبك السابق".

كان يقف على بعد ثلاث أقدام من المرأة وبندقيته مصوبة باتجاه قلبها. بدت متزنة كثيرًا على الرغم من ذلك ـ الأمر الذى أثار إعجابه جدًا؛ فهذا هو نوع النساء الذى يفضله سوليفان. ربما كان ينبغى أن تكون على رأس المافيا، وربما يطرح اسمها ويرشحها لهذا العمل.

بدا واضحًا أنه أحبها، وخطر بباله فجأة أنه لا يحب زوجها. جلس إلى جوارها على السرير، وهو لا يزال يصوب بندقيته نحوها.

قال لها: "مليندا، إليك القصة كلها. أرسلنى زوجك إلى هنا كى أقتلك، ودفع لى خمسة وسبعين ألف دولار. إننى أرتجل هنا، ولكن هل يمكنك الوصول إلى مالك الخاص؟ ربما يمكننا

أن نعقد صفقة معًا. هل تروقك هذه الفكرة؟".

فقالت: "أجل، تروقنى". كان ذلك كل شىء.

وما هى إلا دقيقتين حتى أبرما صفقة بينهما، تضاعفت بها أتعابه أربعة أضعاف. لم يستطع منع نفسه من التفكير فى أن هناك الكثير من الأشخاص المجانين فى العالم ولذلك لا عجب أن يحظى المسلسل التلفزيونى *Desperate Housewives* بكل هذه الشهرة.

الفصل ١١٠

لم أكن أنا وسامبسون قد أتينا إلى ماساشوستس منذ عدة سنوات، منذ أن كنا نطارد قاتلاً معتوهًا يدعى "السيد سميث" فى قضية أطلقنا عليها مجازًا "القط والفأر". وربما كان السيد سميث الأكثر مكرًا ودهاءً من بين جميع القتلة الساديين الذين تعقبناهم حتى هذه اللحظة. لقد كاد يقتلنى أنا شخصيًا. لم يكن هناك، إذن، الكثير من الذكريات السعيدة ونحن ننتقل بسيارة سامبسون من واشنطن إلى بيركشاير.

وفى الطريق، توقفنا لنتناول عشاءً رائعًا ونتحدث قليلاً فى مطعم ابن عمى جيمى باركر: ذا رد هات، فى إرفينجتون نيويورك. وفيما عدا ذلك، قضينا سائر الرحلة فى العمل. ذهبنا بمفردنا، دون أى تعزيزات. ولم أكن متأكدًا بعد مما أعتزم فعله إذا وجدت الجزار. هذا إن وجدناه أصلاً، وإن لم

يكن قد هرب بالفعل.

أخذنا نستمع فى الطريق إلى بعض الأغانى القديمة لـ "لورين هيل" وايريكا بادو، ولم نتحدث كثيرًا عن مايكل سوليفان حتى بلغنا نهاية حاجز كونكتيكت وعبرناه إلى ماساشوستس.

وأخيرًا كسرت جدار الصمت الذى خيم على هذا الموضوع بسؤال سامبسون: "إذًا، ماذا نفعل هنا يا جون؟".

فأجابنى: "نطارد الرجل السيئ، كعهدنا دائمًا. لم يتغير شيء، أليس كذلك؟ هذا الرجل قاتل، ومغتصب. وأنت قاتل التنين، وأنا هنا لأوصلك".

"أنا وأنت فقط، هه؟ هكذا دون أن نستدعى الشرطة المحلية؟ أو نشرك رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية فى هذه القضية؟ أظنك تعلم أننا تجاوزنا حدود الولاية".

أومأ سامبسون برأسه ثم قال: "أعتقد أن القضية شخصية هذه المرة. هل أنا مخطئ فى ذلك؟ ناهيك عن أنه يستحق الموت، لو تطلب الأمر ذلك، ولا أظنه أمرًا مستبعدًا. ربما يحدث".

"إنها قضية شخصية تمامًا، ولم تكن شخصية مثل الآن أبدًا. لقد ظل صدرى يحترق بسببها لوقت طويل، وحان الوقت لنضع نهاية لها. ولكن ــــ"

"ليس هناك لكن يا أليكس. لا بد أن نضع نهاية لهذا الوغد".

ظللنا صامتين لبضعة أميال أخرى. ولكنى كنت بحاجة إلى المزيد من الحديث، مع سامبسون. كان علينا أن نرسى قواعد الاشتباك.

قلت: "لا أنوى قتله؛ هذا إن كان هنا بالفعل؛ فأنا لست عضوًا فى لجنة أمن أهلية يا جون".

فقال سامبسون: "أعرف ذلك. وأعرف من تكون يا أليكس إن كان هناك من يعرف حقيقة من تكون. دعنا نر كيف تسير

الأمور هنا؛ فربما لا يكون هنا أصلاً".

وصلنا إلى مدينة فلوريدا بولاية ماساشوستس فى حوالى الثانية ظهرًا. ثم أخذنا نبحث عن المنزل الذى كنا نأمل أن نجد به مايكل سوليفان الآن وإلى الأبد. كان بإمكانى أن أشعر بالتوتر يتسلل بداخلى الآن. استغرق البحث نصف ساعة أخرى حتى نجد المنزل، الذى كان مشيدًا على حافة جبل يطل على النهر. راقبنا المنزل، ولم يبد أن أحدًا كان بداخله. ترى هل حذر أحد سوليفان هذه المرة أيضًا؟

إذا كان هذا ما حدث بالفعل، فمن ذاك الذى حذره؟ هل هو من مكتب التحقيقات الفيدرالية؟ أم أنه من برنامج حماية الشهود؟ هل كان يتمتع بحماية مكتب التحقيقات؟ هل رجال المكتب هم الذين أخبروه أننا نتعقبه؟

توجهنا إلى مركز المدينة وتناولنا الغداء فى أحد مطاعم سلسلة دني. لم نتناقش أنا وسامبسون كثيرًا ونحن نتناول وجبة البيض والبطاطس، التى لم نعتد على تناولها.

سألنى أخيرًا عند وصول القهوة: "هل أنت بخير؟".

"إذا أمسكنا به، فسأكون بحال أفضل. لا بد من وضع نهاية لهذا على الرغم من كل شيء. أنت محق فى ذلك".

"دعنا نبدأ العمل إذن".

عدنا أدراجنا إلى المنزل. وبعد الخامسة بقليل، كانت هناك سيارة عائلية كبيرة تشق طريقها عبر الطريق الخاص المؤدى للمنزل لتتوقف أمام الشرفة مباشرة. أتراه هو؟ هل جاء الجزار أخيرًا؟ قفز ثلاثة أولاد من مؤخرة السيارة، ثم نزلت امرأة جميلة سوداء الشعر من جانب السائق. كان واضحًا أنها والأولاد قضوا وقتًا ممتعًا. اندفعوا عبر الحديقة الأمامية للمنزل ، ثم تجمعوا داخل المنزل.

كانت معى صورة لـ "كايتلين سوليفان"، ولكنى لم أكن بحاجة للنظر إليها. قلت لسامبسون: "تلك هى بالتأكيد. نحن

فى المكان الصحيح هذه المرة. هذه كايتلين وأبناء الجزار".

قال سامبسون: "سيرانا إذا بقينا هنا. هذا ليس مسلسل *"Cops"*، وهو لن يقف كالمعتوه ينتظر أن يلقى القبض عليه".

فقلت له: "أجل، أنا واثق من ذلك".

الفصل ١١١

لم يكن مايكل سوليفان فى أى مكان بالقرب من المنزل غرب ماساشوستس. وفى السابعة والنصف تلك الليلة، دخل بيتًا يحتوى على عشر غرف نوم فى ولسلى، وهى ضاحية ثرية خارج بوسطن.

كان يسير على مسافة بضع خطوات خلف مليندا شتينر، التى كانت تتمتع بساقين طويلتين وجسد جميل صغير يستحق المشاهدة، وهذا ما كانت تعرفه مليندا أيضًا. كانت تدرك أيضًا كيف تكون مهذبة ومثيرة فى الوقت نفسه بمشيتها الوئيدة.

أضيئت الأنوار فى إحدى الغرف المتراصة على جانبى الردهة الأمامية الواسعة وكانت الغرفة تحتوى على ثلاث ثريات فى تتابع بديع ـ ما يدل بلا شك على الذوق الرفيع الذى تتمتع به مليندا أو مهندس الديكور الخاص بها.

صاحت مليندا بصوت مرتفع وهى تسقط حقيبة سفرها على أرضية الحجرة المصقولة بشدة: "حبيبى، لقد عدت!".

لم تكن هناك إشارة على وجود أى خطأ فى صوتها. لا إنذار أو تحذير أو حدة، فقط مودة ورقة الزوجة.

كانت بارعة حقًا، مما جعل سوليفان غير قادر على الامتناع عن التفكير والقول فى نفسه: من دواعى سرورى أننى لست متزوجًا بها.

لم يأت أى رد لتحيتها من الحجرة التى ينبعث منها صوت التلفاز. لم يكن هناك أى صوت.

نادته مرة أخرى: "حبيبى؟ هل أنت بالداخل؟ حبيبى؟ لقد عدت من القرية. جيرى؟".

كان من المفترض أن يتفاجأ الوغد لسماع هذا بالتأكيد. حبيبى، لقد عدت!، حبيبى، أنا لا أزال حية!

وأخيرًا ظهر فى المدخل رجل بدا عليه التعب، وكان يرتدى قميصًا أبيض مجعدًا ذا خطوط رفيعة وسروالاً قصيرًا فضفاضًا وحذاءً منزليًا أزرق.

والآن بدا هو الآخر ممثلاً بارعًا. وكأن لم يحدث أى شىء خطأ فى العالم كله.

حتى الآن على الأقل، إلى أن رأى الجزار يمشى خطوة بخطوة خلف زوجته الحبيبة، التى قد حاول لتوه أن يقتلها فى منزلهما الريفى.

سألها جيرى عندما رأى سوليفان واقفًا فى الردهة: "مهلاً يا رجل. من هذا يا مليندا؟ ما الذى يحدث؟".

كان الجزار يشهر بندقيته بالفعل ويصوبها باتجاه الجزء السفلى من جسد الرجل، ولكن سوليفان صوبها بعد ذلك إلى القلب، إذا كان لهذا الوغد المتآمر قلب. تقتل زوجتك؟ أى نوع من التوحش هذا؟

قال سوليفان: "تغيير فى الخطط. ماذا عسانى أن أقول لك؟ هكذا حدث".

رفع الزوج جيرى يديه دون أن يطلب أحد منه ذلك. بدا أيضًا منتبهًا تمامًا بسرعة كبيرة.

"عم تتحدث؟ ما هذا يا مليندا؟ لماذا هذا الرجل فى منزلنا؟ من هو بحق الجحيم؟".

خطة كلاسيكية محكمة!

والآن جاء دور مليندا لتقول كلمتها، فقررت أن تجيبه بصوت مرتفع:

"إنه الرجل نفسه الذى كان من المفترض أن يقتلنى يا جيرى! لقد دفعت له ليقتلنى أيها الوغد البائس! يا لك من حثالة حقيرة، وجبان أيضًا. ولذلك دفعت له أكثر مما دفعت أنت كى يقتلك. هذا كل ما فى الأمر يا حبيبى. أعتقد أنه يمكنك أن تسميه ضاربًا مزدوجًا". قالت ذلك ثم انفجرت ضاحكة على مزحتها الأخيرة.

لم يضحك أحد آخر غيرها؛ لا جيرى ولا سوليفان. كانت مزحة طريفة بالفعل، ولكنها لا تستدعى الضحك بصوت مرتفع. أو ربما كان الخطأ فى طريقة إلقائها للمزحة، مما جعلها بمثابة لمسة قاسية جدًا؛ وذلك لأنها كانت تحتوى على قدر زائد من الحقيقة.

قفز الزوج للخلف للاحتماء داخل حجرة التلفاز وحاول إغلاق الباب دونه، ولكنه لم ينجح فى ذلك.

كان الجزار سريعًا، وكان يرتدى حذاء العمل، فبادر إلى وضع قدمه للحيلولة دون إغلاق الباب. ثم فتحه بكتفه وتبع جيرى إلى الداخل.

كان جيرى، المتعاقد الأصلى، رجلاً طويلاً منتفخ البطن أصلع من أعلى الرأس الفظ الذى يشبه المديرين التنفيذيين أو المديرين الماليين. كانت الحجرة القذرة تعج برائحة عرقه

الكريهة ودخان السجائر يتصاعد من المرمدة بجوار الأريكة. وكان هناك مضرب وكرتا جولف ماركة تيتليست على السجادة. كان رجلاً حقيقيًا من حيث اهتماماته وهواياته، ذلك الذى استأجر قاتلاً مأجورًا ليقتل زوجته، وها هو يمارس تسجيل النقاط ليظهر أنه ليس متوترًا.

صرخ جيرى: "سأدفع لك أكثر مما يمكنها دفعه! أيًا كان ما دفعته لك تلك العاهرة، فسأدفع لك ضعفه! أقسم بالله على ذلك! إليك المال. هو لك".

مرحى - الأمر يتحسن أكثر فأكثر، هكذا كان يفكر سوليفان فى نفسه. أعطى ذلك معنى جديدًا للعبة مثل لعبة المخاطرة! أو لعبة هيا نعقد صفقة!

صاحت مليندا على زوجها من المدخل: "أنت أيها الحثالة!"، ثم هرولت إلى داخل الحجرة وأخذت تضربه. وكان سوليفان لا يزال يعتقد أنها سيدة هادئة ورابطة الجأش فى كثير من النواحى، على الرغم من أنها لم تكن كذلك فى نواح أخرى.

نظر إلى الزوج مرة أخرى، ثم نظر إلى مليندا. إنهما زوجان مثيران للاهتمام بكل تأكيد.

قال الجزار: "أتفق مع مليندا. ولكن جيرى لديه عرض يا مليندا. ربما سنضطر إلى إقامة مزاد علنى مصغر هنا. هل توافقان على ذلك؟ دعنا نناقش الأمر كأناس راشدين. لا مزيد من الضرب أو التنابز بالألقاب".

الفصل ١١٢

وبعد ساعتين، كان الجزار يقود سيارته الليكزس باتجاه حاجز ماساشوستس بعد أن انفض المزاد. كانت السيارة تسير بحالة جيدة، وكانت الرحلة بأكملها سلسة، أو ربما يكون ذلك لمجرد شعوره بالارتياح.

كان قد ترك بعض التفاصيل التى كان يتعين عليها إنهاؤها، ولكنه أنجز مهمته. لقد عادت عليه لعبة "دعنا نعقد صفقة" بثلاثمائة وخمسين ألف دولار، حولها كلها إلى رصيده فى بنك يونيون فى سويسرا. وحقيقة، لم يشعر بمثل هذا الاستقرار المادى منذ فترة طويلة، على الرغم من أنه ربما يكون قد أفسد عقد عمله فى بوسطن. وربما يكون عليه أن يرحل بأسرته مرة أخرى، أو ربما يكون الوقت قد حان ليستقل بنفسه ويعمل لحسابه الخاص، الأمر الذى طالما كان يفكر

فيه كثيرًا.

ربما كان المقابل المالى يستحق ما قام به - ثلاثمائة وخمسون ألف دولار مقابل عمل يوم واحد. أسفر المزاد عن فوز جيرى شتينر، ولكنه بعد ذلك قتل الوغد اللئيم الأخرق على أية حال. كانت مليندا قصة مختلفة. لقد أحبها ولم يكن يريد إيذاءها. ولكن ما الخيار البديل الذى كان أمامه؟ أيتركها لتنشر الأمر؟ ولذا، قرر أن يجعل الأمر غير مؤلم... رصاصة فى مؤخرة رأس مليندا. ثم التقط لها صورتين ضمهما إلى مجموعته لتذكراه بوجهها الجميل.

على أية حال، كان يغنى إحدى أغانى الروك الراقصة كان يحبها كثيرًا، أغنية "الخيول البرية"، عندما وصل إلى منعطف الطريق المؤدى إلى منزله. وكان منزله هناك أعلى التل، تمامًا حيث تركه.

ثم - ما هذا بحق الجحيم؟

خطأ؟

ولكن خطأ من؟

أطفأ الأنوار الأمامية بالقرب من المنحنى الصغير التالى على الطريق. ثم أبطأ السيارة وعرج بها داخل طريق صغير مسدود، حيث يوفر له رؤية أفضل لمنزله والأراضى المحيطة به.

يا إلهى! لم يستطع الحصول على راحة فى الآونة الأخيرة. لم يستطع تجنب ماضيه مهما مر على ذلك الماضى.

لقد رآهما الآن، فى سيارة زرقاء داكنة، ربما تكون من نوع دودج، وكان مصد السيارة الأمامى موجهًا ناحية المنزل مثل البندقية. استطاع أن يرى رجلين داخل السيارة. كانا ينتظرانه، لا شك فى ذلك.

خطأ.

من جانبهما!

ولكن من يكون هذان الرجلان الذى يتعين عليه قتلهما الآن بحق السماء؟

الفصل ١١٣

حسنًا، لم يكن أمرهما يهمه كثيرًا. أصبحا فى عداد الأموات ـ سيموتان دون سبب، سيموتان لا لشىء إلا لأنهما كانا أحمقين بائسين يباشران عملهما. إنهما رجلان ميتان يراقبان منزله، جاءا ليقتلاه هو وأسرته.

كان سوليفان يحتفظ ببندقية من طراز وينشستر عمرها ثلاث سنوات فى حقيبة السيارة، وكانت البندقية معدة للاستخدام. فتح حقيبة السيارة وأخرج منها البندقية الطويلة. ثم أعاد تعميرها بطلقات ثاقبة.

لم يكن يتمتع بالمهارة الكافية التى تؤهله ليكون قناصًا فى الجيش، ولكنه كان ماهرًا بما يكفى للقيام بهذا النوع من الهجوم الخاطف.

كَمنَ لهما فى الغابة بين شجرتين طويلتين ومتشابكتى الأغصان دائمتى الخضرة وفرتا له ظلة منحته غطاءً إضافيًا. ثم ألقى نظرة سريعة بمنظار الرؤية الليلية، الذى كان يمنحه رؤية دقيقة بما يكفى لتفقد نقطة الرؤية، وهو ما جعله يحبه كثيرًا. وحقيقة، كان جيمى هاتس هو من علمه كيف يكون راميًا ماهرًا فى التصويب من مسافات طويلة. وكان جيمى قد تلقى تدريبًا أثناء التحاقه بالجيش فى فورت براج، نورث كارولينا، وذلك قبل طرده المشين منه.

ثبت عدسة المنظار على رأس السائق، ثم تحسس زناد بندقيته بإصبعه برفق. سيكون هذا سهلاً، ولن يكون مشكلة بالنسبة له.

ثم بدل هدفه إلى رأس الرجل فى المقعد المجاور. وأيًا كان هذان الرجلان، فمن المؤكد أن نهايتهما قد باتت وشيكة جدًا.

وبمجرد أن ينتهى من هذا، سيكون عليه أن يجمع أسرته ويرحل بعيدًا عن هنا؛ ليقطع صلتهم بالماضى نهائيًا. كان ذلك هو الخطأ، أليس كذلك؟ أنهم دأبوا على الاتصال بشخص ما من الماضي؟ وربما كان هذا الشخص عائلة كايتلين فى نيو جيرسى؟ وربما يكون أحدهم قد تعقب إحدى هذه المكالمات الهاتفية. إنه على استعداد للرهان بأى شىء على أن ذلك ما قد حدث.

خطأ، خطأ، خطأ.

لا شك أن كايتلين ستداوم على الاتصال بهم، أليس كذلك؟ مما يعنى أنه لا بد من اختفاء كايتلين. لم يكن يريد أن يفكر فى هذا الأمر كثيرًا، ولكن كان لا بد من التخلص من كايتلين أيضًا، ما لم يقم هو نفسه بذلك.

كان عليه اتخاذ الكثير من القرارات، ولا يتسع الوقت لاتخاذها جميعًا.

أعاد العدسة على رأس السائق. وكان مستعدًا لإطلاق رصاصتين لينتقل الرجلان اللذان داخل السيارة إلى عالم الأموات. كل هذا وهما لا يعرفان شيئًا بعد.

أخرج نفسًا ببطء حتى هدأ جسمه وسكن وأصبح جاهزًا للقيام بهذا.

كان يشعر بدقات قلبه بطيئة، ومنتظمة، وواثقة؛ بطيئة، ومنتظمة، وواثقة.

ثم جذب زند البندقية لتسمع فرقعة عالية تخترق سكون الليل.

وما هى إلا لحظة حتى أعاد جذب زناد سلاحه للمرة الثانية، ثم للمرة الثالثة فالرابعة.

لا بد أنه أنجز مهمته.

تم القتل، وكان عليه أن يرحل بعيدًا عن هنا، على الفور. كان عليه أن يرحل بـ "كايتلين" والأولاد أو بدونهم.

ولكنه كان بحاجة أولاً لأن يعرف من قتلهما لتوه، وربما يأخذ بعض الصور للفقيدين.

الفصل ١١٤

شاهدت أنا وسامبسون الجزار يقترب من السيارة. كان جيدًا إلى حد كبير، ولكن ربما لم يكن بالقدر نفسه من البراعة الذى كان يعتقده فى نفسه. تقدم بسرعة، وهو ينحنى فى وضع التصويب، استعدادًا لأية مقاومة قد يلاقيها.

كان على وشك اكتشاف أنه ما أصاب إلا ملابس محشوة ووسادتى زينة من أحد المتاجر المحلية التابعة لسلسلة وول مارت. كنت أنا وسامبسون نتربص فى الغابة على مسافة أقل من ثلاثين ياردة خلف السيارة التى شن عليها هجومه الخاطف لتوه. من كان الأفضل فى هذه المباراة إذن؟ الجزار أم نحن؟

همس سامبسون من جانب فمه: "ائذن لى أن أقتله من هنا يا أليكس".

فقلت وأنا ألمس ذراع سامبسون: "لا تقتله يا جون. إلا إذا اضطررنا لذلك. صِبه فحسب".

كرر سامبسون: "ائذن لى!".

ثم انقلب كل شيء رأسًا على عقب، على أقل تقدير.

وفجأة، استدار الجزار ولكن ليس فى اتجاهنا! فى الاتجاه المقابل!

ماذا كان هذا بحق الجحيم؟ ماذا يجرى الآن؟

استدار سوليفان باتجاه صف من الأشجار الكثيفة ناحية الشرق وليس حيث نتربص أنا وسامبسون. لم يكن يعيرنا أى انتباه الآن.

أطلق عدة رصاصات سريعة فسمعت أحدهم يصرخ ألمًا على بعد.

ظهر رجل يرتدى ملابس سوداء للحظة، ثم هوى على الأرض. من كان هذا؟ ثم انشقت الأرض عن خمسة رجال آخرين يجرون من داخل الغابة باتجاه الشمال. كان معهم مسدسات وكلاب بوليسية وسلاح آلى طراز "أوزى" على ما أعتقد.

ترى من كان هؤلاء الرجال؟

وكأنه يجيب عن سؤالى، صاح أحدهم: "مكتب التحقيقات الفيدرالية! ألق سلاحك! مكتب التحقيقات الفيدرالية!".

لم تنطل علىّ الخدعة.

فقلت لـ "سامبسون": "المافيا!"

"متأكد؟".

"أجل".

ثم بدأ إطلاق النار بين الجانبين، كما لو كنا فى شوارع شيكاغو وليس فى بقعة من ماساشوستس الريفية.

الفصل ١١٥

أطلق رجال المافيا، إذا كانوا هم فعلاً، النار علينا نحن أيضًا، فرددت عليهم أنا وسامبسون بدورنا. وهذا ما فعله الجزار أيضًا.

أصبت رجلاً كان يرتدى معطفًا جلديًا وهو الرجل نفسه الذى كان يحمل سلاح الأوزى، هدفى الأول.

دار القاتل المسلح حول نفسه قبل أن يسقط على الأرض، ولكنه بعد ذلك رفع سلاح الأوزى ليعاود إطلاق النار مرة أخرى. أصيب بعدة طلقات فى صدره على شكل دائرة، فأردته قتيلاً فى الحال. لم أكن من أصابه على الرغم من ذلك. هل يمكن أن يكون سامبسون؟

أم كان الجزار هو من أطلق عليه النار؟

كان الظلام يمثل خطرًا كبيرًا على الجميع. وكانت الرصاصات تتطاير فى كل مكان، لتصطدم بالأشجار وترتد منها مرتطمة بالصخور. كانت الفوضى فى كل مكان وساد الهرج والمرج، والخوف والذعر الشديدان، وجنون تحدى الموت الذى وصل إلى منتهاه فى الظلام.

أخذ سفاحو المافيا ينتشرون فى كل مكان، محاولين بذلك أن يخلقوا مساحة بينهم، وهو ما زاد الموقف صعوبة وتعقيدًا علينا.

فر سوليفان باتجاه اليسار، متخذًا من الأشجار والظلام ساترًا له.

حاولت أنا وسامبسون أن نبذل قصارى جهدنا لنحتمى قدر الإمكان خلف الأشجار دائمة الخضرة العارية تقريبًا من الأوراق.

كنت أخاف من الموت هنا، وبدا أن هذا ممكن؛ حيث كانت هناك العديد من الطلقات فى منطقة محدودة جدًا، مما جعلها بمثابة منطقة موت. وكنا كالمدجج بالسلاح ولكنه يواجه فرقة إطلاق نار كاملة.

أطلق أحد رجال المافيا كلب البوليس الذى معه خلف الجزار. لم أكن متأكدًا، ولكنى لا أعتقد أنه ظفر بهدفه.

لم يفعل، لأن سوليفان استدار عن يمينه وأصاب رجل المافيا وهو ينطلق مسرعًا طلبًا للأمان داخل الغابة. صرخ الرجل صرخة ثم صمت إلى الأبد. أعتقد أن ثلاثة من رجال المافيا قد أصيبوا حتى الآن. لم أصب لا أنا ولا سامبسون، ولكنا لم نكن هدفًا أساسيًا لأى من الجانبين.

والآن ماذا؟ من سيقوم بالخطوة التالية؟ سوليفان؟ أم جون أم أنا؟

ثم حدث أمر غريب سمعت صوت طفل. سمعت صوتًا صغيرًا ينادى: "أبى! أبى! أين أنت يا أبى؟".

الفصل ١١٦

استدرت برأسى ونظرت باتجاه المنزل أعلى التل، فرأيت اثنين من أبناء سوليفان يركضان بسرعة من فوق درجات السلم الأمامي. كانا يرتديان ثياب النوم ويجريان بقدمين حافيتين.

صاح بهما سوليفان: "ارجعا! ادخلا المنزل أنتما الاثنان! ادخلا!".

ثم انطلقت كايتلين سوليفان خارج المنزل وهى ترتدى مئزر الحمام، فى محاولة منها للحاق بابنها الأصغر، ثم حملته بين ذراعيها. كانت تصيح بأعلى صوتها على الولدين الآخرين ليعودا إلى الداخل.

وفى هذه الأثناء، كانت الطلقات فى كل مكان بأصواتها العالية التى كان يتردد صداها فى ظلام الليل. وكان الضوء الناتج عن إطلاق النار ينعكس على الأشجار والصخور والأجساد المستلقية على العشب.

ظل سوليفان يصرخ: "عودا إلى المنزل! عودا! أعيديهم يا كايتلين!".

لم يصغ إليه الولدان، وواصلا عدوهما عبر الحديقة الأمامية باتجاه والدهما.

أدار أحد القتلة المحترفين سلاحه باتجاه الطفلين، فأصبته فى جانب رقبته. استدار الرجل على إثرها قبل أن يهوى ويستقر على الأرض. خطر ببالى أننى أنقذت لتوى حياة ابنى سوليفان. ماذا كان يعنى ذلك؟ أننا بذلك متعادلان، وأننى قد رددت صنيعه عندما تسلل إلى منزلى ولم يقتل أحدًا؟ ولكن هل يفترض أن أطلق النار على كايتلين سوليفان الآن انتقامًا لمقتل ماريا؟

كانت جميع الأمور غامضة أمام عينى فى هذه الحديقة المظلمة الملطخة بالدماء.

كان هناك قاتل محترف آخر يعدو فى خط متعرج فى انسحاب سريع حتى وصل إلى الغابة. ثم غاص برأسه بين الأغصان المتساقطة، بينما وقف آخر رجال المافيا صامدًا فى العراء، وأخذ يواجه سوليفان وجهًا لوجه، وأخذا يطلقان النار على بعضهما البعض. ولكن سرعان ما أصيب الرجل وخر صريعًا، لتتدفق الدماء من جرح كبير أصيب به فى وجهه، ويترك سوليفان واقفًا بمفرده بعد أن سقطوا جميعًا.

واستدار سوليفان ناحيتى أنا وسامبسون.

الفصل ١١٧

يا له من مأزق ـ على الأقل فى هذه اللحظة. هل سنعيش لثانيتين؟ ثم ماذا يحدث بعد ذلك؟

أدركت أن سيارة سامبسون لم تعد درعًا واقيًا بينى وبين سوليفان. وكان أطفاله قد توقفوا أخيرًا عن العدو باتجاهه. وكانت كايتلين سوليفان قد أمسكت بالولدين الصغيرين بين ذراعيها، فيما وقف الولد الأكبر إلى جانبها وهو ينظر بحذر، وكان كبير الشبه بأبيه. دعوت الله ألا يتورط فى هذا الأمر الآن.

قلت لـ "سوليفان": "أنا أليكس كروس. تسللت إلى منزلى ذات مرة. ثم قتلت زوجتى فى واشنطن عام ١٩٩٣".

فأجابنى: "أعرف من تكون، ولكنى لم أقتل زوجتك؛ فأنا أعرف من قتلت".

بعد ذلك أسلم سوليفان ساقيه للرياح وانطلق بأقصى سرعته باتجاه الغابة. صوبت سلاحى على ظهره وكان يمكننى إصابته ولكنى لم أجذب الزناد. لم أستطع أن أفعل ذلك.

ولكن لا، ليس فى ظهره؛ ليس فى حضور زوجته وأولاده. لن أفعل ذلك تحت أى ظروف.

صاح أحد أبنائه مرة أخرى حين انطلقت أنا وسامبسون خلف أبيه: "أبى! استمر فى الجرى! استمر فى الجرى!".

قال سامبسون ونحن نجرى فوق أرض غير مستوية مغطاة بطبقة مرتفعة من العشب والصخور الناتئة وجذور الأشجار: "إنه قاتل يا أليكس لا بد من تصفيته والقضاء عليه. وأنت تعلم مدى حاجتنا لذلك. لا تتعاطف مع الشيطان".

ولم أكن بحاجة إلى من يذكرنى؛ فلم أكن لأندفع متهورًا وأفقد انتباهى وتركيزى.

ولكنى لم أطلق عليه النار عندما تمكنت منه؛ لم أقتل مايكل سوليفان عندما واتتنى الفرصة.

كانت الغابة مظلمة، ولكن كان ضوء القمر كافيًا لرؤية الأجسام وبعض التفاصيل الأخرى. ومن ثم، ربما نتمكن من رؤية سوليفان، ولكن هذا يعنى أنه سيرانا هو الآخر.

وهكذا استمر المأزق. ولكن أحدنا سيموت الليلة. كنت أعلم ذلك وتمنيت ألا أكون أنا من سيموت. ولكن كان لا بد أن ينتهى هذا الأمر الآن، خاصة وأننا كنا نعد له منذ وقت طويل.

أخذت أسأل نفسى عن وجهته وما إذا كانت لديه خطة هرب أم أنه يعد كمينًا لنا.

لم نعد نرى سوليفان بعد أن توارى بين الأشجار. ربما كان أسرع منا، أو ربما انحرف فى الاتجاه الآخر. ولكن كيف عرف الغابة بكل هذه الدقة؟

هل يراقبنا الآن؟ هل يستعد لإطلاق النار علينا؟ هل يخطط لمفاجأتنا من خلف إحدى الأشجار؟

وأخيرًا، رأيت حركة ـ رأيت شخصًا ما يعدو بسرعة أمامنا. لا بد أنه سوليفان! إلا إذا كان رجل المافيا الذى نجا واختبأ داخل الغابة.

أيًا كان ذلك الذى يجرى، فلم أطلق عليه النار؛ فقد كانت هناك الكثير من جذوع الأشجار والأغصان والفروع التى حالت دون ذلك.

بدأ الإنهاك يتسلل إلى جسدى، وبدأت ألهث وأتنفس بصعوبة بالغة. لم أكن قد فقدت لياقتى، ولهذا فإن ما أشعر به لا بد وأنه نتيجة للضغط والتوتر من كل ما يحدث حولى؛ فقد كنت أطارد الوغد الحقير الذى قتل ماريا. كنت أكرهه لأكثر من عشر سنوات، ولطالما انتظرت هذا اليوم، بل لطالما دعوت الله أن يأتى.

ولكنى لم أقتله عندما سنحت لى الفرصة.

سألنى سامبسون الذى كان يقف بجانبى: "أين هو؟"، لم يستطع أى منا أن يرى الجزار، ولم نعد نسمعه يجرى أيضًا.

ثم سمعت صوت محرك فى الغابة! محرك؟ ترى ما نوع هذا المحرك؟

وفجأة، أضاءت المصابيح الأمامية رأينا مصباحين مضيئين مسلطين علينا مباشرة.

كانت هناك سيارة تأتى مسرعة باتجاهنا، وربما كان سوليفان أو أى شخص آخر على عجلة القيادة وبدا أن السائق يعرف الطريق جيدًا.

وهنا، أخذ سامبسون يصيح: "أطلق عليه النار! اقتله يا أليكس!".

الفصل ١١٨

كان الجزار يخفى سيارة داخل الغابة، ربما تحسبًا لأى هروب طارئ كهذا. ظللت ثابتًا فى مكانى، ثم أطلقت ثلاث رصاصات على الزجاج الأمامى للسيارة من ناحية السائق.

ولكن الجزار لم يتوقف وواصل التقدم باتجاهنا!

كانت السيارة داكنة اللون، ولكنها أبطأت فجأة. هل أصبته؟

جريت للأمام، ولكنى تعثرت فجأة، فأخذت أسب وألعن. لم أكن أفكر فيما يجب وما لا يجب فعله، وإنما كنت أفكر فى ضرورة إنهاء هذا الأمر فحسب.

ثم رأيت سوليفان ينهض داخل السيارة مرة أخرى ورآنى قادمًا إليه. أظننى كنت أرى ابتسامة ساخرة على شفتيه عندما أشهر بندقيته فى وجهى. انبطحت على الأرض فى اللحظة

نفسها التى أطلق فيها النار. عاد ليطلق النار، ولكنى أصبحت بعيدًا عن خط رؤيته بضعة بوصات.

بدأت السيارة تتحرك مجددًا، ولكن بسرعة أكبر هذه المرة جعلت المحرك يصدرًا صوتًا عاليًا. فما كان منى إلا أن أودعت المسدس فى حافظته بسرعة وانتظرت حتى يمر بجانبى، ثم قفزت على حقيبة السيارة. أمسكت بجانبى السيارة وتعلقت بهما بشدة، ووجهى يلتصق بجسم السيارة المعدنى البارد.

سمعت سامبسون يصرخ خلفى: "أليكس! اترك السيارة!".

لم أفعل أو بالأحرى لم أستطع.

زاد سوليفان من سرعته، ولكن كانت هناك أشجار كثيرة جدًا، فضلاً عن جلاميد الصخر التى حرمته من الحصول على السرعة التى يريد. اصطدمت السيارة بإحدى الصخور فارتفعت من الأمام؛ حيث ارتفع إطاراها الأماميان عن الأرض. كدت أسقط تقريبًا، ولكنى تماسكت بطريقة أو بأخرى.

ثم أوقف سوليفان السيارة. بحدة! فوجدتنى أنظر إليه.

دار دورة كاملة فى المقعد الأمامى. ولجزء من الثانية، تلاقت أعيننا ونظر كل منا إلى الآخر، ولم يكن يفصل بيننا سوى خمس أقدام فقط. استطعت أن أرى الدم يسيل على جانب وجهه. لقد أصيب، ربما أصابته إحدى رصاصاتى التى اخترقت الزجاج الأمامى.

عاد ليشهر بندقيته مرة أخرى، ثم أطلق النار فى اللحظة نفسها التى أفلتُّ يدىَّ فيها من مؤخرة السيارة. سقطت على الأرض الوعرة وأخذت أتدحرج بجسمى مبتعدًا عن السيارة.

زحفت على ركبتىَّ، وأخرجت سلاحى وصوبته باتجاه السيارة مباشرة.

أطلقت رصاصتين اخترقتا النافذة الجانبية، وأنا أصيح بـ "سوليفان" أو بالجزار، أو أيًا من كان بحق السماء. أردته ميتًا، وكنت أريد أن يكون ذلك على يدى.

لا بد أن ينتهى هذا،

هنا والآن.

لا بد أن يموت أحدنا،

ويبقى الآخر.

الفصل ١١٩

أطلقت المزيد من الرصاصات على الوغد المتوحش الذى قتل زوجتى وغيرها الكثيرين ـ ذلك الذى يقتل ضحاياه بأبشع الطرق التى لا تخطر ببال، مستخدمًا أدوات الجزار من مطارق ومناشير وسكاكين. لا بد أن تموت أيها "الجزار" سوليفان. لا بد أن تموت فحسب أيها الوغد. إنك تستحق الموت أكثر من أى شخص آخر على وجه الأرض.

كان يشق طريقه خارج السيارة الآن.

ماذا يحدث؟ ماذا يفعل؟

أخذ يعرج وهو يجرى باتجاه زوجته وأولاده الثلاثة، والدماء تتدفق من أسفل قميصه، ليتسرب جزء منها من خلاله، فيما يسقط الجزء الآخر عبر سرواله ومنه إلى حذائه. ثم ارتمى سوليفان فى حديقة المنزل بجانب أسرته، وضمهم إليه.

جريت أنا وسامبسون ببطء باتجاهه، ونحن مشدوهان بما يحدث، وغير متأكدين بما سنفعله بعد ذلك.

استطعت أن أرى بقع الدماء على الأولاد، وعلى جميع جسد كايتلين سوليفان. لم تكن تلك الدماء إلا دماء أبيهم، الجزار. وعندما اقتربت منه، رأيته على وشك فقدان الوعى، وكأنه سيغشى عليه أو حتى سيموت. ثم تحدث إلى قائلاً: "إنها إنسانة صالحة. لم تكن تعرف ما أقوم به، ومازالت تجهله. وهؤلاء أيضًا أولاد صالحون. خذهم بعيدًا عن هنا، أبعدهم عن المافيا".

كنت لا أزال أشعر برغبة جامحة فى قتله، وكنت أخشى أن يعيش، ولكنى أخفضت سلاحى. لم أستطع أن أشهره فى وجه زوجته وأطفاله.

ضحك سوليفان، ثم صوب بندقيته فجأة على رأس زوجته. جذبها بعنف من على الأرض قبل أن يتوجه إلينا بالقول: "ألقيا سلاحيكما وإلا قتلتها يا كروس. سأفعل ذلك فى غمضة عين. سأقتلها هى والأولاد كذلك. ليست لدىّ أدنى مشكلة فى ذلك. هذا أنا، وهذه طبيعتى على أية حال".

لم تكن النظرة التى على وجه كايتلين سوليفان تعبر عن المفاجأة أو الصدمة بقدر تعبيرها عن الحزن الرهيب وخيبة الأمل فى هذا الرجل الذى ربما أحبته، أو كانت تحبه فى وقت من الأوقات على أية حال. كان الولد الأصغر يصرخ فى أبيه فى مشهد مؤثر جدًا يكاد القلب ينفطر له: "لا يا أبى، لا تفعل! لا تؤذ أمى! أرجوك يا أبى!".

فصاح سوليفان: "ألقيا سلاحيكما!".

ماذا عساى أفعل؟ لم يترك لى خيارًا آخر، لا فى عقلى، ولا فى عالم الأخلاق الخاص بى. لذلك، لم أجد أمامى إلا أن ألقى سلاحى من طراز جلوك.

فانحنى سوليفان انحناءته المعتادة.

ثم انطلقت رصاصة من بندقيته.

شعرت بلطمة قوية فى صدرى اقتلعتنى من الأرض. ظللت واقفًا على أطراف أصابعى للحظة أو نحوها. ترانى كنت أرقص؟ أم أسبح فى الهواء؟ أم أننى كنت أموت؟

سمعت طلقة ثانية ثم بدأت أفقد الوعى ولم أعد أحس بشيء مما يحدث من حولى. أدركت أننى سأموت، وأننى لن أرى أسرتى مجددًا أبدًا، وأنه لا أحد يلام على ذلك غيرى.

لقد حذرنى الكثيرون منه مرارًا وتكرارًا، ولكنى لم أستمع لهم.

لن يكون هناك قاتل التنين بعد الآن.

الفصل ١٢٠

كنت مخطئًا؛ فلم أمت تلك الليلة أمام منزل الجزار، وإن كنت لا أستطيع القطع بأننى تفاديت طلقة أخرى.

أصبت إصابة بالغة، اضطررت معها أن أمضى الشهر التالى فى مستشفى ماساشوستس العام فى بوسطن. انحنى مايكل سوليفان انحناءته المعتادة، ولكن سامبسون عاجله برصاصتين فى صدره ليلقى حتفه أمام منزله فى الحال.

لم أشعر بالأسى على الجزار، ولم أتعاطف معه أو أشفق عليه. وربما يعنى ذلك أننى لم أتغير بالقدر الذى أريد، وأننى لا أزال قاتل التنين على الأقل.

كنت معتادًا هذه الأيام على الجلوس كل صباح تقريبًا مع أديل فينالى، وذلك بعد الانتهاء من جلساتى مع مرضاى. كانت تولينى أقصى اهتمامها. وذات يوم، أخبرتها عن تبادل

إطلاق النار الأخير أمام منزل سوليفان، وكيف أننى كنت أريد إشباع رغبتى فى الانتقام وتطبيق العدالة، ولكنى لم أتمكن من تحقيق ذلك. قالت أديل إنها تتفهم موقفى، ولكنها لا تشعر بأى تعاطف، لا مع سوليفان ولا معى أنا أيضًا. وكان كل منا يدرك أوجه الشبه الواضحة بينى وبين سوليفان؛ حيث كان على أحدنا أن يموت أمام أسرته.

قلت لـ "أديل" فى أثناء الجلسة: "أخبرنى أنه لم يقتل ماريا".

"وماذا يعنى ذلك يا أليكس؟ تعرف أنه كذاب، ذلك السادى القاتل السادى الحثالة".

"نعم، هو كذلك وأكثر أيضًا، ولكن أعتقد أننى أصدقه، بل إننى أصدقه بالفعل. ولكنى لا أفهم ما كان يقصده فحسب. يبدو أننى أمام لغز آخر يتعين علىّ كشفه".

وفى جلسة أخرى، تحدثنا عن رحلة برية قمت بها إلى ويك فورست فى نورث كارولينا التى تقع شمال مدينة رالى. أخذت معى سيارتى الآر ٣٥٠، سيارة الأسرة، تلك الشاحنة الكبيرة. وكنت قد ذهبت إلى هناك لرؤية كايلا كولز؛ كى أتحدث معها، كى أرى عينيها وهى تتحدث إلىّ.

كانت كايلا بأفضل حال، ذهنيًا وبدنيًا، وقالت إنها أحبت حياتها هناك أكثر مما كانت تتوقع. وذكرت لى أنها تعيش فى مدينة رالى، وفسرت ذلك بقولها: "يوجد أناس كثيرون مستعدون لتقديم المساعدة هنا فى نورث كارولينا يا أليكس. كما أن نمط الحياة هنا، بالنسبة لى على أية حال، أفضل بكثير منها فى واشنطن. جرب أن تقضى بعض الوقت هنا وستكتشف هذا بنفسك".

سألتنى أديل بعد صمت طويل ساد بيننا: "هل كانت تلك بمثابة دعوة من كايلا؟".

"ربما، ولكنها كانت تعرف أننى لم أكن لأقبل دعوتها".

قالت: "والسبب؟".

أجبتها: "السبب؟ السبب... أننى أليكس كروس".

"وهذا لن يتغير، أليس كذلك؟ أنا أسأل فقط، ليس بصفتى معالجة نفسية، وإنما بصفتى صديقتك يا أليكس".

"لا أعلم ما إذا كان سيتغير أم لا. أريد أن أغير بعض الأشياء فى حياتى، وهذا ما أتى بى إلى هنا. هذا بالإضافة إلى حقيقة أننى أستمتع باستنشاق النسيم معك نوعًا ما. حسنًا، الإجابة لا، لن يتغير شىء من ذلك".

"لأنك أليكس كروس؟".

"أجل".

فعقبت أديل: "هذا جيد. بداية جيدة. أمر آخر يا أليكس ــــ"

"وهو؟"

"أستمتع باستنشاق النسيم معك أنا أيضًا. أنت شخص فريد من نوعه".

الفصل ١٢١

ها هو لغز آخر يتعين علىّ كشفه.

فى إحدى ليالى الربيع، سرت أنا وسامبسون فى شارع الخامس، كنا نسير معًا فحسب دون أن تكون لنا وجهة معينة. وكنا نشعر بالارتياح نفسه الذى يغمرنا دائمًا عندما نكون معًا. أخذنا معًا بعض العصائر والمشروبات المثلجة. وكان سامبسون يرتدى نظارة واى فارر وقبعة كانجول قديمة لم أكن قد رأيتها على رأسه الضخمة منذ عدة سنوات.

مررنا ببعض المنازل الخشبية القديمة التى ما زالت موجودة هنا منذ أن كنا طفلين ولم يبد أنها تغيرت كثيرًا الآن، على الرغم من التغير الهائل الذى شهدته معظم واشنطن، سواء كانت هذه التغيرات للأفضل، أم للأسوأ، أم بين بين.

قال سامبسون: "كنت قلقًا عليك وأنت فى المستشفى".

"بل إننى كنت قلقًا على نفسى. كدت أكتسب لكنة ماساشوستس التى تتميز بمط بعض الحروف. كدت كذلك أن أنمى قدراتى السياسية".

"ثمة أمر ما أريد التحدث معك بشأنه. لقد كان هذا الأمر يشغل بالى كثيرًا".

"أسمعك، فالليلة مناسبة للحديث".

قال سامبسون: "أجد صعوبة بعض الشىء فى التحدث عن هذا الأمر، ولا أعرف كيف أبدأ. حدث هذا ربما بعد شهرين أو ثلاثة من مقتل ماريا". ثم تابع: "هل تذكر ذلك الرجل فى الجوار المدعو كلايد ويلز؟".

"أتذكر ويلز جيدًا. إنه مهرب المخدرات ذو الطموحات الكبيرة، وذلك قبل أن يقتلوه ويلقوا به فى أحد صناديق القمامة خلف مطعم بوبيز تشيكن، على ما أذكر".

"هو كما قلت تمامًا. كان ويلز مخبرًا لحساب راكيم بويل عندما كان راكيم محققًا فى الوحدة ١٠٣".

"هكذا إذن! لا يفاجئنى أن أعرف أن ويلز كان يلعب على الجانبين. ولكن ما فائدة هذا الآن؟".

قال سامبسون: "هذا ما سأخبرك به يا عزيزى. هذا ما أحاول أن أخبرك به. لقد توصل كلايد ويلز إلى بعض الأشياء عن ماريا مثل الشخص الذى ربما يكون متورطًا فى قتلها".

لم أتفوه بكلمة واحدة، ولكنى شعرت برجفة شديدة فى ظهرى. ظللت أواصل السير وساقاى بالكاد تحملاننى.

سألته: "لم يكن مايكل سوليفان؟ تمامًا كما قال هو".

فقال سامبسون: "كان لديه شريك فى تلك الأيام رجل غليظ كان يسكن بجوار مسكنه القديم فى بروكلين يدعى جيمس هاتس جالاتى. كان جالاتى هو من أطلق النار على ماريا. لم يكن هناك وقتذاك، ولكن ربما يكون هو من كلف

جالاتى بهذه المهمة. أو ربما كان جالاتى يقصدك أنت".

لم أقل أى شيء. وللأمانة، لم أستطع قول شيء. علاوة على ذلك، فقد كنت أريد أن أدع سامبسون ينتهى مما جاء إلى هنا من أجله. كان ينظر أمامه مباشرة وهو يسير ويواصل حديثه، ولم ينظر إلىّ أبدًا.

"تحققت أنا وراكيم من هذه المعلومات على مدار بضعة أسابيع يا أليكس. لقد عملنا على هذه القضية بجد، بل إننا ذهبنا إلى بروكلين. ولكننا لم نستطع الحصول على أى دليل مادى ضد جالاتى. ومع ذلك، علمنا أنه القاتل؛ فقد تحدث عن حادث القتل مع زملائه فى نيو يورك. وكان جالاتى قد تلقى تدريبًا ليكون قناصًا فى الجيش فى فورت براج".

"كنت قد التقيت أنتونى مولينو قبل ذلك إذن، أليس كذلك؟ ألهذا السبب تذكرك عندما قابلناه معًا؟".

أومأ سامبسون برأسه قبل أن يتابع: "إليك إذن أهم ما فى الأمر؛ إليك ما ظللت أخفيه عنك طوال هذه المدة. وصدقنى، فإننى أجد صعوبة كبيرة لمجرد إخبارك بذلك الآن. قتلنا هذا الوغد الأخرق يا أليكس؛ لقد قتلت جيمى جالاتى أنا وراكيم ذات ليلة فى بروكلين. لم أستطع أبدًا أن أخبرك بذلك يا أليكس، حتى الآن. حاولت أن أخبرك فى وقت سابق. أردت أن أخبرك به عندما بدأنا البحث عن سوليفان مرة أخرى. ولكنى لم أستطع".

قلت: "كان سوليفان قاتلاً، ومتوحشًا. وكان لا بد من الإمساك به".

لم يقل سامبسون أى شيء آخر، ولم يختلف الأمر كثيرًا بالنسبة لى. واصلنا سيرنا لبعض الوقت، ثم انصرف قاصدًا بيته، وأظنه سيسلك الشوارع نفسها التى نشأنا فيها معًا. لقد اهتم بقاتل ماريا من أجلى، لقد قام بما رآه صوابًا، ولكنه كان يعلم صعوبة ذلك علىّ. ولذلك لم يخبرنى أبدًا بهذا الأمر،

حتى عندما كنا نطارد سوليفان. لم أفهم تمامًا ذلك الجزء الأخير، ولكن لا يمكن للمرء أبدًا أن يفهم كل شيء. ربما أسأل جون عنه فى وقت لاحق.

لم أستطع النوم عندما عدت إلى البيت فى تلك الليلة، وكنت عاجزًا كذلك عن التفكير السليم. وأخيرًا، دخلت إلى حجرة آلى ونمت معه مرة أخرى. كان ينام فى وداعة، وكأنه تجسيد للبراءة، غير مبال بأى شيء فى العالم.

رقدت هناك، وأنا أفكر فيما أخبرنى به سامبسون ومدى حبى له، بصرف النظر عما حدث. ثم فكرت فى ماريا وكم كنت أحبها.

أخذت أهمس إليها فى نفسى: لقد ساعدتنى كثيرًا؛ فلطالما أزحت عن كاهلى الكثير من الهموم. لقد تعلمت على يديك أن أؤمن بالحب، وبوجوده، بصرف النظر عن صعوبة تحصيله. لذا ساعدينى الآن يا ماريا... أريد أن أنساك يا حبيبتى. تعرفين ما أقصد؛ أريد أن أنساك لأبدأ حياتى من جديد.

وفجأة، سمعت صوتًا فى الظلام. وقد روعنى هذا الصوت وفاجأنى كثيرًا لأننى كنت فى مكان آخر داخل عقلى، كنت بعيدًا جدًا عن الحاضر.

"أبى، هل أنت بخير؟".

ضممت آلى إلى صدرى برفق قبل أن أجيبه: "أنا بخير الآن. بالطبع أنا بخير. شكرًا على سؤالك. أحبك يا صغيرى".

فقال: "أحبك يا أبى. أنا رجلك الصغير".

أجل. كان ذلك صحيحًا تمامًا.

الخاتمة

حفل عيد ميلاد

الفصل ١٢٢

هكذا بدأت حياتى الجديدة، أو ربما ظلت هكذا تنتقل من قصة لأخرى. كان اليوم فى معظمه جيدًا ورائعًا جدًا؛ لأن اليوم عيد ميلاد جدتى، وإن كانت ترفض الإفصاح عن حقيقة عمرها أو حتى العقد الذى بلغته من عمرها.

كنت أعتقد أنها ستقف متفاخرة بطول عمرها، ولكن لم يكن ذلك ما حدث.

على أية حال، هذه ليلتها بالتأكيد، وهذا أسبوع الاحتفال بعيد ميلادها، على حد قولها، ويمكنها أن تفعل ما يحلو لها. قلت فى نفسى: تمامًا كما تفعل فى أى يوم آخر من العام، ولكنى احتفظت بذلك فى نفسى.

كانت أوامر جلالتها أن يعد "الأولاد" العشاء، ولذلك أخذت أنا وديمون وآلى سيارة الأسرة إلى السوق، وقطعنا بها

نحو خمس وثمانين قدما مكعبا من أجل إحضار الطلبات وشحنها إلى المنزل. ثم قضينا الجزء الأفضل من الظهيرة فى إعداد صنفين من الدجاج المحمر والبسكويت المصنوع من الذرة والفاصوليا البيضاء المجففة وعصير الطماطم.

أنهينا إعداد الطعام فى السابعة، والذى ضم أيضًا عصائر ومثلجات بوردو. قلت وأنا أرفع كوب العصير: "مئوية سعيدة!".

قالت جدتى قبل أن تقوم من مكانها: "أريد أن ألقى كلمة: أريد أن أنظر إلى جميع الموجودين حول المائدة وأقول لهم إننى أحب أسرتنا أكثر من أى وقت مضى، وكم أنا فخورة ومحظوظة كذلك لأن أكون أحد أفراد هذه الأسرة الجميلة، لا سيما وأنا فى هذا العمر. أيًا كان هذا العمر، الذى لم يبلغ المائة عام بعد".

قلنا جميعًا: "اسمعوا، اسمعوا"، وأخذنا نصفق مثل تلك دمى القردة الصغيرة التى تصفق بأيديها.

تابعت جدتى: "تهانينا لـ "آلى" الذى يقرأ الكتب بنفسه تمامًا، والذى أصبح قادرًا على عقد رباط حذائه كأى بطل حقيقى".

أخذت أغنى: "تهانينا إلى "آلى"! تهانينا إلى "آلى"! على طريقتك فى عقد رباط الحذاء".

استطردت جدتى: "أما ديمون، فأمامه الكثير من الخيارات ليفكر فيها فى حياته: فهو مطرب جميل حقًا، وطالب متميز عندما يعمل بجد. أحبك يا ديمون".

فعقب ديمون: "أحبك يا جدتى، ولكنك أغفلت الاتحاد".

فقالت جدتى: "لم أنس "الاتحاد الوطنى لكرة السلة"، ولكن يدك اليسرى ضعيفة. ابذل قصارى جهدك فى التمرن على يدك اليسرى إذا كنت تريد اللعب فى مستوى أعلى".

ثم توجهت إلى جانيل بالقول: "جاء دور فتاتى جانيل، تلك الطالبة المتميزة هى الأخرى، التى لا تقوم بذلك من أجلى

أو من أجل أبيها وإنما من أجلها هى، لنفسها. إنه لمن دواعى فخرى أن أقول إن جانيل تسيطر على نفسها".

ثم جلست جدتى، بعد أن أدهشتنا جميعًا، وخاصة أنا؛ إذ أنها لم تذكرنى ولو بكلمة واحدة. لم أعرف أننى خارج دائرة اهتماماتها حتى الآن.

ثم وقفت مرة أخرى وهى ترسم ابتسامة ماكرة على وجهها الصغير ذى العظام البارزة، وذلك قبل أن تقول: "أوه! كدت أنسى شخصًا ما".

"لقد مر أليكس بأكثر من تغير هذا العام، وكلنا يعلم كم كان صعبًا على ذلك الرجل أن يتغير. عاد إلى عمله مرة أخرى، وعاد معه إلى تكريس نفسه لمساعدة الآخرين، وكأنه يعمل فى مطابخ أشهر وأفخم المطاعم، وإن كان من الصعب أن أسمح له بدخول مطبخى".

"ومن أعد هذا العشاء إذًا؟".

"قام الأولاد بعمل رائع، أقصد كلكم. أنا فخورة جدًا بأسرتنا، وأعرف أننى أكرر نفسى. أليكس، أنا فخورة جدًا بك. إنك لغز محير، ولكنك مصدر سعادة دائم بالنسبة لى، ولطالما كنت كذلك دومًا. فليبارك الله عائلة كروس".

فهتفنا جميعًا فى صوت واحد: "فليبارك الله عائلة كروس".

وفى وقت لاحق من تلك الليلة، بقيت مع آلى حتى نام، كما اعتدت أن أفعل مؤخرًا، وبقيت فى فراشه لعدة دقائق إضافية. وكان الولد قد قضى يومًا مشحونًا، ولا بد أن التعب قد بلغ منه مبلغًا.

ثم أخذ جرس الهاتف يرن وكأنه جهاز إنذار، فقفزت من الفراش وجريت مسرعًا إلى الردهة. التقطت سماعة الهاتف من فوق المنضدة المتأرجحة.

قلت وقد غلب الإرهاق صوتى: "هنا مسكن عائلة كروس".

تقلصت معدتى عندما سمعت الطرف الآخر يقول: "حدثت جريمة قتل".

صمتت لحظة قبل أن أقول أى شىء، ثم سألته: "ولماذا تتصل بى؟".

"لأنك الدكتور كروس، وأنا القاتل".

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر إلى "فيرن جالبرين" و "مارى جوردن" لمساعدتهما فى توفير مصادر الرواية. وأشكر أيضًا "كريس تيبتس" لما أضافه من مصادر ولمساعدته فى تنقيح مسودة جزء كامل من القصة. وأخيرًا، أتوجه بالشكر إلى "ستيف بوين" الذى لا يألو جهدًا فى نقل أعمالى إلى شركات الإنتاج السينمائى فى هوليوود، وهى ليست بالمهمة السهلة.